

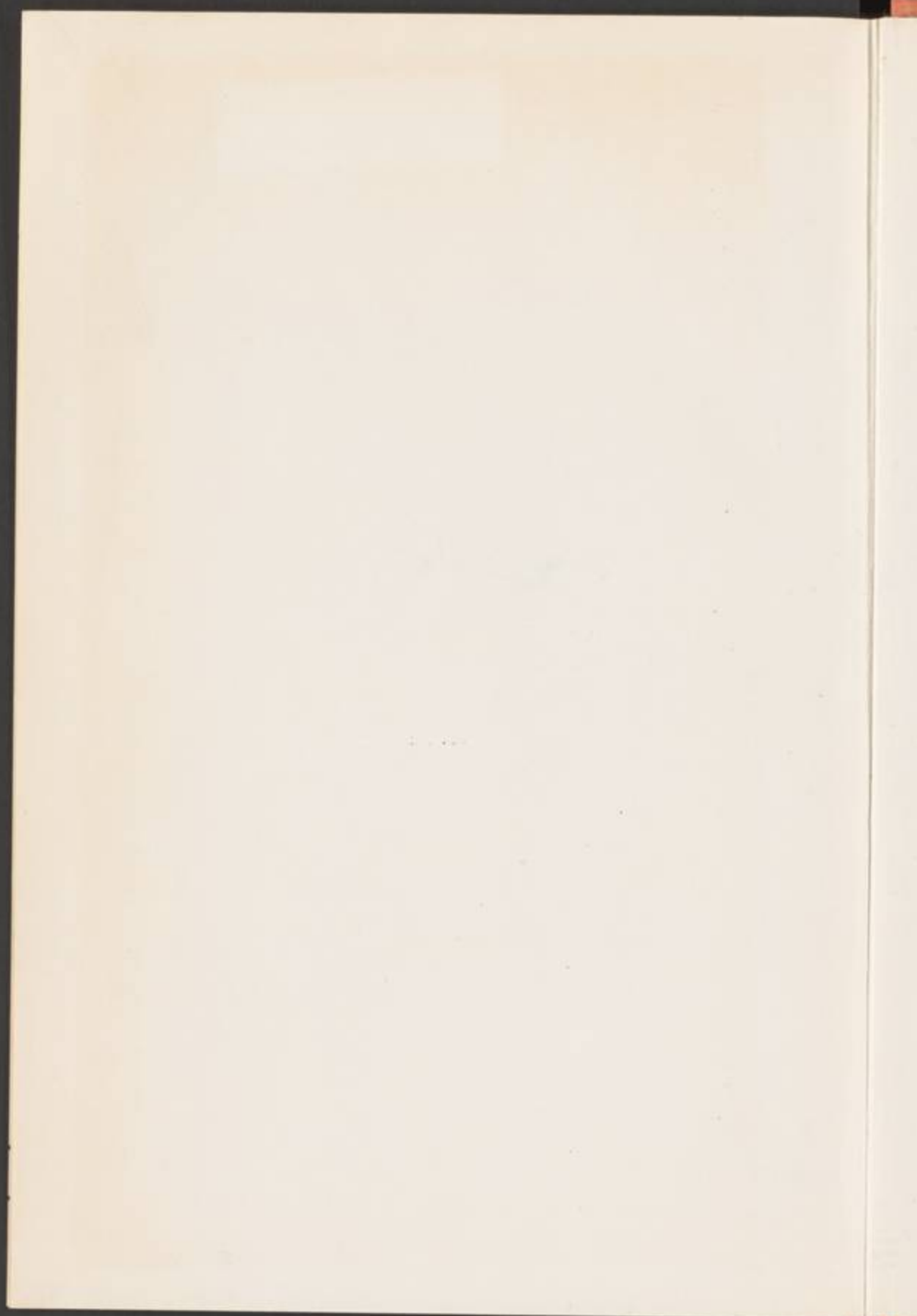


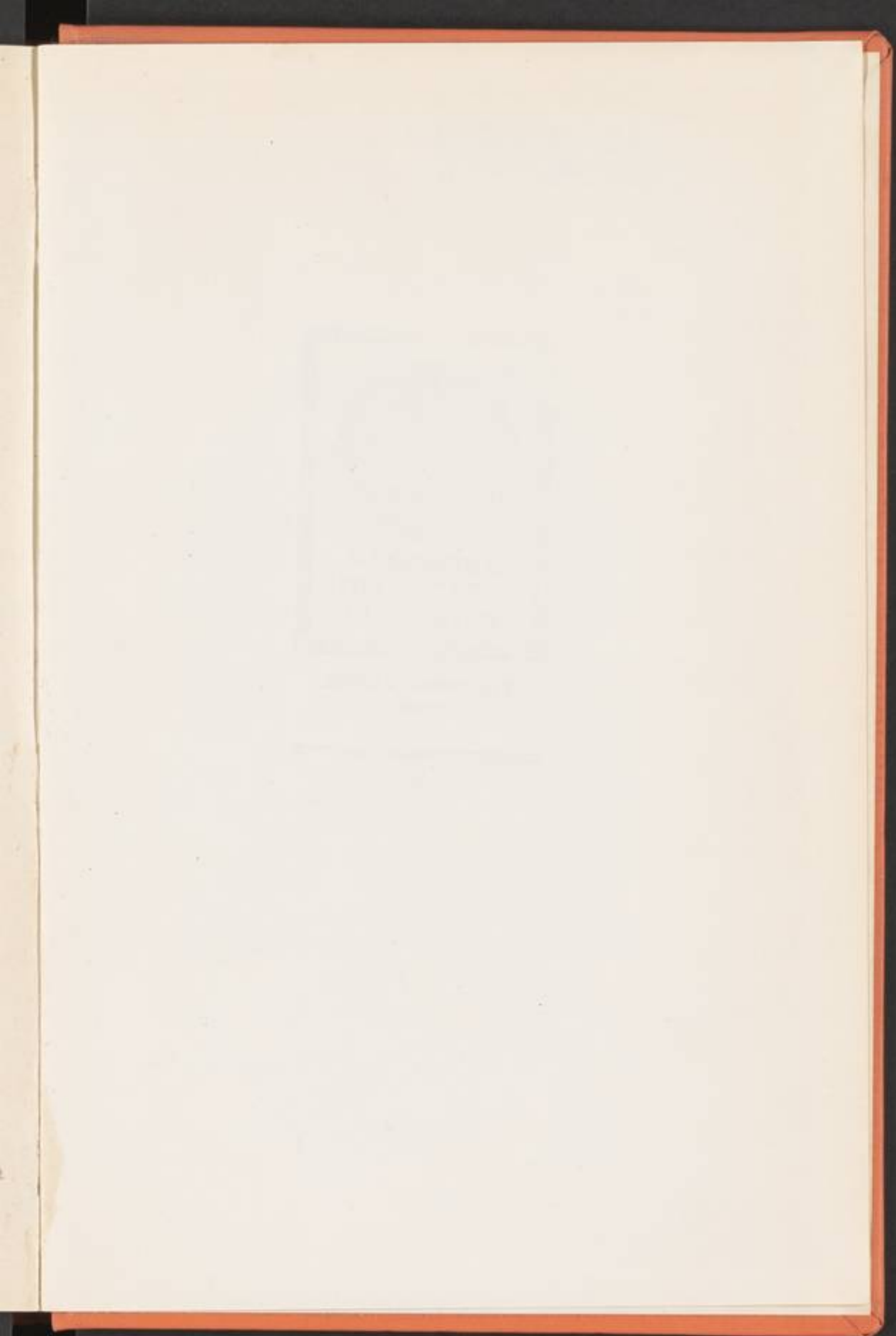


3 1142 00314 7785



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





می زیادة

قوله

قوله

جامعة الزيتونة

معهد الدراسات العربية العالية

Fahmī, Mansūr

محاضرات
Muhadaratun 'an Māyy ziyādah.
عن

مى زيادة

ألقاها

الدكتور

منصور فحمي

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

١٩٥٤

١٩٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Near East

PJ

7876

.I9

.Z6

c.1

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARY
NEAR EAST LIBRARY

3097

3097

مقدمة

وجدت بين «سى» والمرحوم «يعقوب صروف» صلة كانت تبدو عند الأولى فيما يحفظ من مظاهر الاجلال والاعتراف بأستاذية ذلك الشيخ العالم الجليل ، وتبدو عند الثاني فيما أحاطها به من رعاية وعطف يفيض بهما قلب رائد علمي وأستاذ صادق ، له أن يفتخر ويعتز بكل مروض نابغ وفي ، فمن كتاب لها إلى يعقوب صروف في سنة ١٩١٩ - بعد أن طالعت مقالاته في مجلة «المقطف» عن بحيرة قارون بعنوان «فتاة الفيوم» نقرأ ما يلي : (١)

«... وقد أدى بي ذلك إلى مطالعة كثير مما كتبه عن المصريين القدماء وآثارهم وفنونهم . وكل فصل أجمل من ماضيه . لا شك عندي في أن كل كاتب يتمنى أن يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته ، وأتمنى أن ينال ما نال باحثة البادية (٢) من حسن الحظ ، لأن المخلصين قليلون ، حتى بعد موت السكاتب . العدا له ، والغيرة منه ، وتعمد تصغير شخصيته ، والنيل من مقامه ، يبرز إلى الوجود بعد سكونه في قلب الثرى . . . نعم أتمنى أن يأتي بعد موتى من ينصفني ، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة ، المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص ، والصدق والحمية ، والتحمس لكل شيء حسن ، وصالح وجميل لأنه كذلك ، لاعن رغبة في الارتفاع به . وقد قال قوم إن هذه صفة حسنة . وإذا كانت لي صفة فهي تنحصر في هذه ، وأنا سعيدة بها لأنها كل شخصيتي . . . بل أتمنى أن أموت في حياتك أنت لتقوم لي بذلك العمل المبارك ، فأكون خالدة بخلود قلبك الذهبي لا باستحقاقى .»

كتبت «سى» ما تقدم إلى يعقوب صروف ، الذي كانت تلقبه في رسائلها

(١) رسائل سى منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١ .

(٢) «سى» ملك حفني ناصف التي كتبت كتابا إصلاحيا في سبيل المرأة والأسرة وكتبت عنها «سى» كتابا أسماه «باحثة البادية» أنصفتها فيه وقدرتها تقديراً حسناً .

اليه به «أستاذى العزيز» ، وتارة به «ياذا التاج والصولجان» ، وتمنت فيما كتبت أن ينصفها الناقدون ، ويقدروا ما كان لها من روح الإخلاص والتحمس لكل جميل . والآن وقد دعانى صديق العلامة السيد ساطع الحصرى مدير معهد الدراسات العربية العالية ، أن ألقى بضع محاضرات عن «مى زيادة» بعد أن أصبحت هى فى جوار الله ، وبعد أن انقطعت أنا الآخر منذ زمن طويل عن القاء المحاضرات لطلبة العلم والأدب ، فهل أستطيع يا ترى أن أحقق لها ما تمنت ، وأجلو للعلم والمتعلمين صورة صحيحة تتوضح بها شخصيتها ويبدو منها نبوغها ولون أدبها النسائى الرفيع ، وغزارة مادتها العلمية الواسعة ، كما تظهر دقة ذوقها الفنى المرهف وتعبير عن هزات «نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة زاهية فى الأفق الأزرق» (١) أحاول ذلك وعسى الله أن يوفقنى ؟

منصور فهمى

(١) وصف لى لنفسيتها فى البحث الذى صدرت به ديوان «حلية الطراز» لعائشة التيمورية
ص ٣٣ (طبعة دار الكتاب العربى)

عائشة التيمورية

ليس من سبيل إلى ذكر النهضة النسوية المعاصرة فيمن يمثلها من النساء في شرقنا العربي الحبيب دون أن نذكر «ميا»، وليس من سبيل أن تمر صورة «مى» السكّانة الأدبية، على خاطر ناقد أو أديب، دون أن يمر بنفسها طيف بعض الرائدات اللاتي سبقن «مى»، فتناولن الأدب، وتحدثن عن الإصلاح وعن المرأة، كالسكّاتبتين الشاعرتين «عائشة التيمورية»، و«ملك حفنى ناصف» المعروفة باسم «باحثة البادية». وليس ذلك لأن «عائشة» شاعرة، ولها شخصية مميزة فيما كتبت، وليس لأن «ملك» كاتبة اجتماعية ومصالحة تناولت بقلم عربي بين متين عدة موضوعات، تتصل بنواحي الإصلاح الاجتماعى. بل لأن «ميا» نفسها قدرت في صدق مكانة هاتين السكّاتبتين اللتين كاتتا في المقدمة لرائدات هذا العصر الحديث فألقت عنهما المحاضرات، ودونت عن آثارهما رسالتين تدخلان في البحوث الممتعة التي تصوغها كاتبة نابغة عن كاتبتين شهيرتين قدرتهما تقديراً.

ومن أجل هذا أتقدم بالحديث عن عائشة، وأذكر في غضون «ميا» حسبما يقتضى الحال، قبل أن أحصر الحديث في آثارها ونواحيها اللامعات من فكر وقلم.

مباة عائشة :

قالت «مى» : (١) دعتنى جمعية فتاة مصر الفتاة فى الشتاء الماضى (٢) إلى إلقاء محاضرة على أعضائها فى الجامعة المصرية ، فوعدت وخطر لى أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية ندرسها معا ، فتعرض لنا فى سياق

(١) و (٢) من بحث لى عن عائشة التيمورية فى شخصيتها وشاعريتها صدر به ديوانها المسمى «حلية الطراز» وقامت بنشره مطبعة دار السكّاتب العربى بالقاهرة سنة ١٩٥٢ .

البحث موضوعات جملة ، في الأخلاق والأدب والإجتاع ، بمحصها قدر المستطاع ، بينما نحن نرسم من المرأة صورة شيقه فנסجل للحركة النسائية في هذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات ، ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعا . . . وما خطر لي ذلك إلا وصحبه اسم شجي يحيا دواما بزفراته الحارة المنغومة . زفرات تناقلتها الأصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطا جميلا حين كانت صورة المرأة سديما محجوبا وراء جدران المنازل وتكتم الاستئثار . . . وكنت كلما دقت نمت التيمورية في ذهني وتفردت صورتها أمامي

إذن في معجبة بعائشة لأنها « طليعة اليقظة النسوية في هذه البلاد » . (١)
فن تكون عائشة . . ؟

سيدة كريمة نشأت في بيت مجدوعز ، تحوطه الرفاهية والترف . . واتصلت بأوساط الأمراء والنبلاء والمرأة ، مما جعل أديها ومظاهر حياتها في مستوى يسمو عن السوقية والابتذال .

ولدت بالقاهرة في أواخر عصر محمد علي سنة ١٨٤٠ ، وتوفيت عن نحو أربعة وستين عاما في شهر مايو سنة ١٩٠٢ . وعلى ذلك فقد شهدت « عائشة التيمورية » ، تطور مصر في عهد سبعة من حكامها : محمد علي ، وإبراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد وإسماعيل وتوفيق ، وعباس الثاني . وأصل الشاعرة تقاسمه عناصر ثلاثة : كردى وتركى وشركسى . وذلك أنه كان من رجال الوالى « محمد على الكبير » ، رجلا من خلصائه ، أحدهما كردى ، وهو محمد بك تيمور كاشف بن اسماعيل كرد بن على كرد ، من ضباط الجيش ، ومن الذين كانت لهم اليد الطولى في استئصال شأفة المماليك ، . . والآخر تركى وهو عبد الرحمن أفندى الإسلامبولى تولى في زمن السلطان سليم الثالث

(١) شتاء سنة ١٩٢١ .

مى زيادة ٥

منصب رئيس كتاب الديوان الهايوى . فلما جاء إلى مصر كانت له الخطوة عند الوالى محمد ... على وقد تزوج محمد بك تيمور كاشف السيدة «عائشة خاتون» كريمة «عبدالرحمن افندى الإسلامبولى» فكان هذان الرجلان جدى السيدة عائشة عصمت التيمورية .. (١)

أما والدها فهو إسماعيل تيمور باشا تقلب فى المناصب الرئيسية زمانا طويلا بين حكم الوالى محمد على الكبير وحكم الخديو إسماعيل ؛ وبقى فترة يرأس القلم الإفرنجى للديوان الخديوى . وأما والدتها فشر كسية الأصل . وأما الشاعرة نفسها فمصرية المولد والنشأة والتربية والمقام . (٢)

على أن عائشة الشاعرة والكاتبة برغم ما يتقاسم أصلها بين الكردى والتركى والشركسى فإن اللغة العربية مهرت نفسيتهما بطابعها المكين . وصبغت قولها بصبغتها الظاهرة . وبذلك كانت فى ميدان العروبة من رائدات الشعر النسوى العربى الحديث، لأن اللغة حين تتغلغل أساليبها وآدابها وموحياتها فى النفوس تصبح تلك النفوس خاضعة لتبعية تلك اللغة وسلطانها وإن يكن الشخص شديد صلة بجنس من الأجناس .

ولئن كانت عائشة شاعرة لها مكانتها فى الشعر العربى . فقد كانت فتاة ثائرة بقدر ما تستطيع فتاة أن تنطلق أو تثور فى أيامها وفى بيئتها على المتأصل من التقاليد .

فأما كانت تريدها على أن تكون ربة بيت وسيدة قصر فى العلية بين ربات الخدور ، وتود لها أن تصبح كوكباً لامعاً فى سرة المجتمع النسائى الماهر فى فنون البيت والتطريز .

ولكن الفتاة كانت تريد أن تكون ربة قلم وخذن كتاب ، وذات رأى فى المحيط العام . وشجعها أبوها على ذلك لأنه كان ميالا إلى العلم والأدب . فألف

(١) أنظر حلية الطراز ص ١٤ من قلم حبيبها الأستاذ كمال زادة .

(٢) من فصل الأستاذ أحمد كمال زادة حفيد الشاعرة . فى ديوان «حلية الطراز»

كتابا جمع فيه خلاصة مطالعته . كما وضع لأسرته تاريخا باللغة التركية .
وكون مكتبة وكان هذا الميل وما تابعه من توريث واستعداد من حظ شاعر تنا
ومن حظ آل تيمور (١) فيما بعد ومن حسن حظ الأديب .

ولما تآزرت الأقدار مع توجيه والد عائشة على إذكاء مواهبها الأدبية
لم تشعر الفتاة أن إقبالها على الشعر يخرجها عما ينبغي أن تتحلى به الفتاة من
التعفف والاحتشام ، في حين كانت أمها ترى أن في ذلك تقليداً لأعمال
الرجال . وأن فيه خروجاً عما ينبغي أن تكون عليه المرأة . وتشير الفتاة
إلى ذلك الأمر من نفسها ومن أمها قائلة في أبيات رقيقة فيها مفاخرة ولا تخلو
من غرور تحوطه براءة وسذاجة :

بيد العفاف أصون عز حجابي	وبعصمتي أسمى على أترابي
وبفكرة وقادة وقرينة	نقادة قد كملت آدابي
والقد نظمت الشعر شيمة معشر	قبي ذوات الخدر والأحساب
.....
فبنية المهدي ، و « ليلي » قدوني	وبفطنتي أعطيت فصل خطابي (٢)
.....
فجعلت مرآتي جبين دقآري	وجعلت من نقش المداد خطابي
كم زخرفت وجنات طرمي أنملي	بعذار حظ أو أهاب شبابي
.....
ماضرنى أدبي وحسن تعلبي	إلا بكوني زهرة الألباب
ما ساءني خدرى وعقد عصابتي	وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجل عن العليسا ولا	سادل الخمار بلهتي ونقابي

(١) المرحوم أحمد باشا تيمور أخ الشاعرة عالم وبخانة كبير وابنه المرحوم محمد تيمور أديب
وشاعر مات في شرح الشباب . وزميلنا محمود تيمور من أبرز الأدباء في فن القصص .
(٢) بنية المهدي هي عليّة بنت المهدي العباسي ، وليلى هي ليلى الأخبيلية وسكانها ممن نبغ
في الشعر والأدب .

على أن ثورة عائشة التيمورية تتوضح وتبرز عندما تقحم شاعريتها في أساليب الغزل، إذ يكاد يكون شعرها الغزلي مستأثراً بنحو نصف ما نظمت في اللغة العربية . وحقاً إن في غزلها وإرسال أشواقها ما يؤثر في النفس بسهولة في لفظه ، ورقة في نغمه ، وانسجام في موسيقاه ، بما قد يدل على إصابة في حسن إدراك معنى الحب ، وعلى حساسية مرهفة لتلك العاطفة التي أعدت نفوس النساء لاستقبالها والسكون اليها ، متى تهيأت الأسباب ووات الظروف لهذا الاستقبال وذلك السكون . وهذه الثورة الجريئة المعلنة في تناول الغزل في الشعر وفي لغة الألحان من امرأة عاشت محجبة بين هؤلاء السراة من أهلها ، في زمن الحجاب ، واتصلت حياتها الكابرية (١) المرهفة بنظام العزلة عن مجتمع الرجال ، قد فرضته أحكام التقاليد فرضاً محتوماً . أقول إن هذه الثورة تبيح للدارس أو الناقد أن يتساءل كل منهما كيف كان لعائشة أن تجول في ميدان ذلك الغزل الدافق الذي استساغته ، وهتفت به جهرأ ، وأن أنكرته البيئة التي تهيئ فيها ، وأباه عليها العرف السائر حينذاك ... أيكون ضرب من ضروب الصلة بمن هو أهل لهذا الغزل ، أو بمن هو حرى بهذا الحب من الرجال ؟ أيكون هو الحرمان من حرية الاختلاط بمن ترغب النفس في الاختلاط بهم من الناس ، قد أدى إلى كبت العواطف ، وأدى السكبت إلى التنفيس عنها وتصعيدها في التخيل ، والشعر ، والقول المنغوم . ؟ أيكون هو التسامي بالغرائز الجنسية الدافقة الحبيسة فيعمل الاستعداد الفنى والأدنى لتحويلها وتبخيرها إلى أدب وشعر . . ؟ ربما يكون كل ذلك أو بعض ذلك ، على أنه مهما يكن السبب فإن النتيجة تجعل من التيمورية طليعة في الثائرات .

شعرها في الغزل :

عندما تشببت التيمورية في سعة وفي جرأة وعلانية ، تخالفت بذلك

(١) الكابرية كلمة نضعها لعبارة الاسترقاطية الفرنسية الأصل .

المألوف من إضمار عاطفة الحب عند النساء بوجه عام وعند العربيات والمسلمات منهن بوجه خاص، نود أن نذكر لها من غزلها بعض المقطعات، على سبيل المثال فنقولها:

أسيرٌ في الحمي لم ترغبوه فقيرٌ للراحم فارحموه
صحيح الجسم ذو كبد جريح وقلب في لظى قد قلبوه
له صدرٌ يجوز لكل فن ولكن قلبه قد ضيعوه
'ملك في الخصال، وعبدرق لملكه، فرقوا واعذروه (١)

° ° °

وقولها:

من ذا الذي أعواك حتى خنتني ونبتت عهدي بعدما قاسمتني
يا مالكا قلبي وما ملكتني أين الوعود.. وأين ما بشرتني
قد خاب من جدواك ما أملتُه

جهل العواذل حالي بخلوتها خاضوا بسر مدامع أطلقتها
قالوا: بمهجة غرام، قلتها شكوى بسر سريرتي أعلنتها
لولاك ما أعلنت ما أخفيتُه

ما بال قلبك لا يرق لحالي ولكم رثي اللاحى ورق اللوعتي
قل لي بحقك: هل أتيت بزلة حتى أقاسى في الحياة منيتي
أو خنت عهداً كنت قد راعيتُه (٢)

° ° °

وقولها:

حى الرفاق وصف للحي أشواق وحدث الركب عن تسكاب آماقي
وبلغنى يا صبا أن جزت نحوهم أنى مقيم على عهد الهوى باقى

(١) صحيفة ٢٠٨ حاية الطراز

(٢) » ٢١٩ * *

كيف اصطبارى وأحشاني بها حرق من جذوة مالها من حرها وراق
قد جرعتني صروف الدهر مرتغا لواعجا كحميم أو كغساق
هذا شواظ الهوى في القلب ملتهب وفي التنفس من آثار إحراقى (١)
وقولها لكي يترنم بما تقول (٢):

تسفيد الشوق لقد غلبا ولذيذ النوم به سلبا
والقلب شكا حزنا وصبا كم قلت إذا الشوق التها
من حر غرامى : واحربا

ظبي بالسفح من التترك صنم في الحسن بلا شرك
كم هاج فؤادا بالترك كم صاد عزيزا بالفتك
وغنائم غزوته نهبا

كم راش سهاما للمقل وأصاب فؤادا لم يقل
ما زال فؤادى منذ بلى يهوى العسال مع العسل
ويقول : وصالك قد وجبا

جفنى والنوم قد اختصما ولدى عيناك قد احتكما
فبعز قوامك كن حكما فالحق لسطوته رسما
وأراه نأى عنى وأبى

أعلام الحسن لقد رفعت وجيوش الفتنة قد جمعت
جاءت للفتك فما رجعت عن حومتها حتى وقعت
مهج راحت إربا إربا

لله قوام أنحفنى برشاقتة قد أضعفنى
وحسام لحاظ أتلفنى أترى منه من ينصفنى
إذ ضيع صبرى فيه هبا

(١) ص ٢٢٦ حلية الطراز
(٢) ص ٢٤٩ حلية الطراز

وقالت من المربعات للتغنى به من هذا السهل الممتنع :

مذلاح بدرى مشرقا بعد البعاد	وشفا بدر ياق اللقا أم الفؤاد
ناديت عدلى يا صفا فالأنس عاد	جل الذى هنى فؤادى بالمراد
هنى المنازل يا صفا بحضورهم	وتحملى فى الكون نفح عبيرهم
وترددى سحرا الشرح صدورهم	ودعى القصور وعرجى بقصورهم
أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب	واحذر حماك الله أن يدرى الرقيب
دعنى لأنى باللقا قلبى يطيب	ودع العلاج وما يقول به الطيب
فوحقه مالى سواه تَخَيْلُ	أبدا ولا لى عن حماه تحول
مالى له إلا هواه توصل	فالحب أحسن ما به يتوصل (١)

وقالت :

كانت عناصر جسمى لا يقاربها	طلُّ السقام وقد أمسى بها وابل
وكيف لاوبقلبى زفرة وعنا	وأعين الغيد تروى السحر عن « بابل »
والجسم من سقمه صدَّ العلاج فما	أرى فؤادى لجرعات الشفا قابل

◊ ◊ ◊

كيف الشفاء ومن أهواه فارقتى	هيهات إن الجوى بحر بلا ساحل
جاء الطيب يداوينى فقلت له :	دع عنك طبي ولا تتعب بلا طائل
تعذر الطب والبرء انزوى ونأى	عنى ولونى من فعل الهوى حائل

◊ ◊ ◊

إن كنت تنسكربانى من جوى وضنى	جس نبضى فهو الشاهد العادل
فقال لى بعد جس النبض : وأسفا	الدا. إن عظمت أعراضه قاتل (٢)

(١) ص ٢٢٤ حلية العزاز

(٢) ص ٢٢٤ » »

شعرها الرئائي :

وإن المستطلع المحص لما تقدم من هذه الأمثال من شعر التيمورية لا يسعه إلا الحكم بأنها امرأة تحسن تصوير عاطفة الحب إحساناً ، وترق في إبرازها وتدق رقة ودقة جديرتين بالمرأة وبالفتاة حين هياتها الأقدار منذ الأزل للحب وحين تطوعها الأثوثة للغرام والهيام .

ولئن كان شعرها الغرامي هو من أطيّب ما قالت ، فإن شعرها الذى تفيض به الأمومة ، وتنساب فيه أحاسيس الحنان الجريح والفجيعة الملهية ، لهُو كذلك من أروع الشعر وأعلاه وأصدقاه . وعلى سبيل المثال نذكر رثاءها لابنتها الذى تشير فيه إلى ماتجرعته من كؤوس الأسمى وما أصابها من نيرانه المستعرة ، وما أثقل نفسها من ركام الألم . وفى هذا الرثاء توقيت للفجيعة ، وتصوير لهجز الطب ويأس الطبيب ، وفيه صورة للتعلمق بالعيش وبالحياة ، وتحنان لأطايها ومحاسن ذكرياتها وجميل أمانها . وفيه تتمثل الهزيمة حيال الحزن ، وغلبته والاستسلام له عند فقد الأحياء دون تفريط فيما يعتز به المؤمن من الرضا بقضاء الله وتقديره ، وفيه الأمل المخفف رجاء اللقيا فى حياة أخرى هى الحياة الدائمة . وعلى الجملة نجد فى تلك القصيدة مجموعة مما يصور العواطف النابعة لشكلى مؤمنة مسلمة تشعر بالحب الدقيق ، وتحلب من عميق نفسها الوفاء للحزن الحقيق . ولنثبت فيما يلى ذلك الرثاء كله لقيمتة ومكانته فى الأدب الرفيع ، قالت (١) :

إن سال من غرب العيون بحور	فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما	ولكل قلب لوعة وثبور
ستر السنا وتحجبت شمس الضحى	وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذى أهوى وجر عنى الأسمى	وغدت بقلبي جذوة وسعير
ياليتة لما نوى عهد النوى	وإلى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتى	نار لها بين الضلوع زفير

(١) صحيفة ٢٠٩ من حلية الطراز

لو بث حزني في الوري لم يلتفت
 طافت بشهر الصوم كاسات الردى
 فتناولت منها ابنتي فتغيرت
 فنوت أزهير الحياة بروضها
 لبست ثياب السقم في صغرو قد
 جاء الطيب ضحى وبشر بالشفاء
 وصف التجرع وهو يزعم أنه
 فنفست للحزن قائلة له
 وارحم شباني إن والدتي غدت
 وارأف بعين حرمت طيب السكرى
 لما رأته بأس الطيب وعجزه
 أماه قد كل الطيب وفاتني
 لو جاء عراف اليمامة، بيتني
 ياروع روحي حلها نزع الضنا
 أماه قد عز اللقما وفي غد
 وسيدنتهي المسعى إلى اللحد الذي
 قولي لرب اللحد رفقا بابنتي
 وتجلدي بازاء لحدى برهة
 أماه قد سلفت لنا أمنية
 كانت كأحلام مضت وتخلفت
 عودى إلى ربيع خلا ومآثر
 صوتي جهاز العرس تذكارا فلي
 جرت مصائب فرقتي لك بعد ذا
 والقبر صار لغصن قدى روضة

لمصاب قيس، والمصاب كثير
 سحرا وأكواب الدموع تدور
 وجنات خد شانها التغيير
 وأنقد منها مائس ونضير
 ذاقت شراب الموت وهو مرير
 إن الطيب بطبه مغرور
 بالبرء من كل السقام بشير
 عجل يرئى حيث أنت خير
 ثكلى يشير لها الجوى وتشير
 تشكو السهاد وفي الجفون فتور
 قالت ودمع المقلتين غزير
 مما أومل في الحياة نصير
 برئى لرد الطرف وهو حسير
 عما قليل ورقها ستطير
 سترين نعشى كالعروس يسير
 هو منزلى وله الجموع تصير
 جاءت عروساً ساقها التقدير
 فتراك روح راعها المقدور
 يا حسنها لوساقها التيسير
 مذبان يوم البين وهو عسير
 قد خلفت عنى لها تأثير
 قد كان منه إلى الزفاف سرور
 لبس السواد ونفذ المسطور
 ريحانها عند المزار زهور

أماه لا تنسى بحق بنوق
ورجاء عفو أو تلاوة منزل
فلعلها أحظى برحمة خالق
فأجبتها والدمع يحبس منطق
بتناه ياكبدى ولوعة مهجتي
لا توصى ثكلى قد أذاب رنينها
قسما بغض نواظرى وتلهفى
وبقبلى ثغرا تقضى نجبه
والله لا أسلو التلاوة والدعا
كلا ولا أنسى زفير توجمى
إنى ألفت الحزن حتى إننى
قد كنت لأرضى التباعد برهة
أبكىك حتى نلتقى فى جنة
إن قيل «عائشة» أقول لقد فى
ولهى على «توحيدة» الحسن التى
قلبى وجفنى واللسان وخالق
متعت بالرضوان فى خلد الرضا
وسمعت قول الحق للقوم ادخلوا
هذا النعيم به الأحبة تلتقى
ولك الهناء فصدق تاريخى بدا
سنة ١٢٩٤ هجرية ٧ ٤٣٣ ٤٨٧ ١٢٢ ٢٤٥

إن هذه المرثية المؤثرة المفعمة بمعانى الأسى والحزن العميق، قد احتفظت
لنفسها بمكان مرموق بين ما كان يفرض على تلاميذ المدارس أن يستوعبوه
فى ذاكرتهم كمثّل للشعر العربى الرفيع الصادق، كان لها أثر كبير فى التكوين
الأدبى لابن أخ الشاعر أديبنا القصصى الكبير وصديقنا وزميلنا العزيز

السيد محمود تيمور أمد الله في عمره فكتبك يناجي ويقول في كلمته لعمته (١) :
 «إليك يا عمته أحبر هذه الأسطر القلائل ، محاولاً أن تبعث من غياهب
 الماضي السحيق ذكريات ما أعزها علي ، وأن أستشف من خلال الأسي
 المطوى صوراً حبيبة ترف إليها العين ويخف القلب ، وإنك لتتراءى لي في هذه
 الصورة تحف بك مهابة . ويلوح عليك إشراق .

أحق أني أبتعث منك أطيافاً وذكريات ، واستثير صوراً وخيالات . .
 أم الحق أن روحك الحى الخالد يرفرف حوالى ، وأنى ما زلت أتلقى نفحات
 ذلك الروح فى توجهه العلوى . .

مهما يكن من أمرى معك فى حياتك وبعد مماتك ، حقيقة كنت أو خيالاً ،
 رسماً أنت أو ذكرى ، طيفاً تجليت أو نفحة روح — فقد استشعرت دائماً
 وجودك بجاني ، تطالعينى فى مختلف أطوارى وتسايرينى من حيث أدرى
 ولا أدرى ، فتكونين لى نعم الصاحب الأمين .

منذ النشأة الأولى وأنا أستمد منك العون فى ذلك الجانب المرموق من
 حياتى ، جانب النزعة الأدبية التى أعزها وأغالى ، فلأنت الآخذة بناصرى
 فى طليعة من كان لى عوناً من أب وشقيق وصدى إنى لأتمثل الآن ،
 وأنا فى شيخوختى الواهنة ، تلك اللبسات الوادعة من أناملك الرقاق ،
 فأشعر من فورى ببهجة الطفولة وصفائها يعاوداننى ، وكأنى بين يديك
 أسمع وأرى . . .

ولقد كانت قصائدك باكورة ما قرأت وما حفظت ، فما أنسى يوم أقبل
 على أنى يدفع الى ورقة خط فيها آياتاً ضبطها بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال
 لى اقرأ . فأطعت متمهلاً فى القراءة خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعضمتى أسموا على أترابى

(١) أنظر حلية الطراز ص ١١ وما بعدها

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أنى ، يرتو إلى وهو يصوب الخطأ ،
ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . . . وهكذا بلغت من شعرك
أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة من مكارم الأخلاق .

وأذكر أننا نحن الأشقاء الثلاثة ، كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى
البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميتها أنشودة الطريق ،
تسلى بالترنم بها فى نشوة وابتهاج .

وعلى الرغم مما كان لقصائدك من مكانة كريمة على ، وما كان لها من أثر
بالغ فى نفسى ، فانها قد تضاءلت وتخلفت يوم أملى على أنى مرثيتك لابنتك التى
تقولين فيها ..

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور
فلسكل عين حق مدرار الدما وبكل قلب لوعة وثبور

لقد أطال أنى جلوسه إلى وهو يملئها على ، حتى بلغت صفحتين كاملتين ،
دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون أن أجد فى نفسى كذلك ملالة . . . وفى
هذه المرة لم يلق أنى صعوبة فى الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات قصيدتك
تنساب فى وجدانى انسياباً ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر كأنما يبعثها تيار خفى .
أكنت أفتحه معانى هذه القصيدة حقاً .. لم أكن يومئذ لذلك أهلاً ،
ولسكنتنى أحبت القصيدة ما وسعنى أن أحب ، وزاد بها ولوعى يوماً بعد يوم
إذ أنارت بين جوانحى - جوانح الصبى الغرير - مشاعر دفينه ، فاتخذت منها
شجياً تطيب به نفسى كما أسمعته نفسى .

بهذا تعلمت منك يا عمته فى مطلع أيامى ان الأثر الفنى الحق ، يقدر باستجابة
القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ، قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول
والأذهان ، فالفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم
ونفاوت مداركهم صدق فى الأفتدة ، وتجاوباً فى المشاعر .

ولم تقتصر رقة العاطفة عند التيمورية وصدقها على الأمومة المفجوعة ،

ولسكن كان الأمر كذلك عند البتة الملتاعة لفقد الأب والام . فمن قولها
في رثاء ابيها :

يا لهف عامرة القصور عليه إذ	بات الأمير على فراش عزاء
أمسى لفيف النائح تحيطه	بدلا عن الندماء والجلساء
يا حسرة ابنته إذا نظرت لها	بماته عين من البأساء
قالت : وحق سنا أبوتك التي	كانت ضياء الامن للأبناء
مذما فقدتك والحشا متسع	والجسم منتحل من الضراء
يا كتر آمالي وذخر مطالبي	وسعود إقسالي وعين سنائي
يا طب آلامي ومرهم قرحتي	وغذاء روحي بل ونهر عنائي
أبتاه قد جرعتني كأس النوى	يا حرّ جرّعتته على أحشائي
أبتاه فدحشّ الفراق حشاشتي	هل يرتضى القلب الشفيق جفائي
يا من بحسن رضاه فوز بنوتي	وعزير عيشته تمام رضائي
إن ضاقتني ذرعي إلى من أشتكى	من بعد فقدك كافلا برضائي
يأليت شوي حين ما حل القضا	هل كنت عني راضياً أم نائي
لما قضى المولى ببعذك وانقضى	أملى من الدنيا وقل عزائي
وجهت مبهتلاً لربي وجهتي	ليعلم روحك منه بالنماء (١)

ومن قول الشاعرة في رثاء والدتها :

ذاقت مرير السقم من عهد الصبا	حتى قضت أيامها تتوجع
رحلت وقد أفنى النزيف دماها	والقلب في حمراته يتصدع
كم من طيب لم يكل وطالما	داوى ولكن داؤها يتفرع
كم ليلة باتت تهاجر نجمها	وثن بما قد حوته الأضلع
حتى أتى أمر الاله لها : ادخلي	لحدأ وأمر الله لا يسترجع

(١) صحيفة ٢١٦ حاية الطراز

يارب فاجعل جنة المأوى لها داراً بطيب نعيمها تتمتع

يامنهل التثنيت حسبك ماجرى فعيوننا قد أقسمت لاتبجع
 ذهب الاحبة واستقل ركابهم ياليت روجي ودعت إذ ودعوا
 ياليتهم طلبوا الفساد فهذه روجي ولكن ليت ليست تنفع
 وإرادة المولى تعالى شأنه حتمت لنا هذا ، فماذا نصنع (١)

والتيمورية إذ ترثي ابنتها أو أبها أو أمها أو أختها أى من تحب
 لاتخونها شاعريتها في تأدية حق الشعر من بعض الوصف لحالة من تبيكه
 ومن الاشارة إلى مرضه وحال الطب فيه، ومن تأثرها ومبلغ تقديرها للصلة
 بينها وبين من تقول فيه الشعر ، ومن ثورتها البائسة المهزومة على الموت مما
 يدخل في مرثيا نبضات من العواطف الحية المتأثرة والمؤثرة .

وأن الشاعرة التي تشعرك من نفسها بمجموعة من عواطف الأنوثة
 والأمومة والبنوة ، فيخرج من كل هذا طيب من القول الشدى الجذاب ، قد
 استطاعت أيضاً أن تخرج من الشعور بالدينونة ، والحس بالجمال ، والسكون
 إلى عوالم الغيب والمستور ، مما هو قريب لاستجابة نفسية المرأة المتسامية إلى
 الله والتواقة إلى المسلك الحسن ، أقول قد استطاعت كذلك أن تخرج
 شعراً في الابتهالات والأخلاقيات والتصوف تحلو تلاوته ويطيب عطره .
 فمن ذلك قصيدتها التي تعارض بها البردة وتقول فيها :

أعن وميض سرى في حندس الظلم أم نسمة هاجت الأشواق من واضم ،
 فجددت لى عهداً بالغمرام مضى وشاقتى نحو أحبابى «بذى سلم»

حسبي من الحب ما أفضى إلى تلقى ومالقيت من الآلام والسقم
 إنى رددت عنائي عن غوايته وقلت يانفس خلى باعث الندم
 ولنت بالمصطفى رب الشفاعة إذ يدعو المنادى فتحيا الناس من رجم

نعم الحبيب الذي من الرقيب به وهو القريب لراجي المجد والنعم
 روحى الفداء ومن لى أن أكون له وهذا الفداء وموجودى كنعدم
 وماهى الروح حتى أفتديه بها وهى البغاث بغار الظلم والظلم
 والعمر أفنت ثقال الوزر لمحتبه وبددته صروف الدهر بالتهم
 أين الرشاد الذى أعدده لغد غويت عنه فزلت بالهوى قدى

إلى أن تقول :

ومنة الله دين وصفه قيم وما سوى فوز كوفى بعض أمته
 إلا التماسى عفوا بالشفاعة لى مددت كف الرجا أرجو مراحمه
 محمد المصطفى مشكاة رحمتنا ياخير من أرنجى إن لم تكن مددى
 بحجتى إن أخف يوم اللقا يقم ذخرا أفوز به من زلة الوصم
 من خاتم الرسل خير الخلق كلهم وقد حلت به فى بهرة الحرم
 مصباح حجتنا فى بعثة الأمم وازلتى يوم وضع القسط واندمى (١)

وقولها :

إلهى سيدى أنت الجليل ضعيف الحال منكسر فقير
 يباب رجائك العبد الذليل فانت لذنبه رب غفور
 كثير الغنى ناصره قليل كريم صفحه السامى جزيل

فإن يك جرم عبدك ليس يحصى فإين أفر من شيطان نفسى
 فحسن رضاك ليس له عديل عظيم العفو إن عظمت ذنوبى
 ومن أمارتى أين السبيل فلى أمل لعفوك لا يزول

ومن قولها كذلك :

أتيت لبابك العالى بذلى فان لم تعف عن زللى فن لى

مقرأً بالجناية وامشالي لاسر النفس في عقدي وحلي
ومعترفاً بأوزار ثقال أقاد لخلها طوعاً لجهلي
أفر بزيتي من قبله كي لا تقر جوارحي بالذنب قبلي
أتيت ولي ذنوب ليس تحصى أقول لراحمي بالعفو كن لي

* * *

ضللت عن السبيل ولم أخله وهل يبدو الرشاد لعين مثل
سعت نفسي لأن أمشي مكباً على وجهي لطاعتها فويلي
أراك بلتي ياشيب عظني وقل: حان الرحيل غد العلي (١)

* * *

ولمن يعن النظر في شعر عائشة الديني والابتهاالي أن يذهب إلى أن صاحبة ذلك الشعر ذات نفس صافية منبسطة متهيأة للبوح ، وفضيلة الاعتراف بالزلات ، والشعور بحرقه الندم على ما يتعرض له المرء من خطايا ويقع فيه من ذنوب ، ولو أن الشاعرة تبطن في طوايا الضمير وتكتم في أعماقه تفاصيل ما يؤلمها ويجرح كرامتها أن تبديه للناس وتظهره في المجتمع ، من تفاصيل الهفوات والزلات .

فضمير الشاعرة هو إذن من تلك الضائير النابضة بالحياة يستشعر الوخر ويحس بألم التائب ، مما يدل على تمسك النزعات الدينية والأخلاقية من لبها وفي فؤادها ، ولو أن مباحج دنياها ومطالب عيشها قد تؤهل وتدعو إلى ما ليس ينسجم مع نزعات الدين ويتلاءم مع بعض مطالبه الصارمة .

والتيمورية إذ تتألم كثيراً لدقة في شعورها وحساسيتها ، هي في نفس الوقت آملة متفائلة لشدة إيمانها بالله ، وثقتها برحمته ، وحبها لرسوله وطمعها في شفاعته . وهي تفاخر بدينها ، وتباهي بتعاليمه ، وتعز بأدائه . وهي عفوة ومتساحمة ، تظهر ذلك في كثير مما قالت وفي مناسبات أخلاقية موزعة في

شعرها الأخلاقي وغيره . وهي تغلب نزعة الأسف على حياة تنقضى دون أن تنق في الغواية والزلل ، ودون أن تصد النفس عن الهوى ودون مكافأة الانقياد لوسوس الشيطان . وعلى الجملة فالتيمورية تمثل لنا صورة من فضليات النساء فوق ما تبعته من صورة لها بين البارزات في الشعر والأدب .

سُعر المجاملات والمناسبات :

أما شعر التيمورية الذي قيل في مجاملات من التهانى والتعازى ، وفي مختلف الأحداث التي يتخذ الناس منها سناً لظهار صداقتهم ، وإبراز مودتهم أو ليجعلوا منها وسيلة لصيانة الروابط الاجتماعية من التراخى والفتور ، فهو شعر جرى كثيره نحو الأمراء وذوى النفوذ ممن اتصلت بهم التيمورية أو اتصل بهم أهلها . وكثيراً ما خلا هذا الشعر من عبير العاطفة الصادقة .

وطالما يستبيح الناس ، في سبيل المجاملة والمعاملة ، ما لا تطمئن اليه النفس وترضاه . وقد يعلمون لذلك بتعليقات تيسر لهم لونا من النفاق الاجتماعي المألوف ، وتهون صنوفاً من الرياء والمداهنة ، فيذهبون إلى أن جهاز الحياة الاجتماعية قد يصاب بمساوىء الخشونة وأن دولا ب العيش قد يعلوه الصدا إذا لم يسعف هذا الجهاز بزبوت من الملاينة تتشابه مع النفاق ، وإذا لم يسعف هذا الدولا ب شيء من المداهنة يترامى مع الرياء . ويصح أن تقبل هذه التعليقات من ذوى النفوس الكريمة المهذبة التي تبعث فيها دواعى التهذيب ونزعاته إشار الحسنى والجميل . على أنها لا تقبل ممن تبلى نفوسهم بالضعف وبالجنون فيكتبون فيها فضائل الصراحة وانطلاقها الكيئس الجرىء فى الحق .

وفى تقديرى أن التيمورية ، نفس تهذبت وتعالى وأن تهذيبها وأدبها قد يكون له أثره فى امتصاص شاعريتها الزاهية ، والتضييق على عواطفها عندما تتناول شعر المجاملة فيبدو لونه باهتا ، وصوته خافتاً ، وقراره هابطاً خافقاً ومع ذلك فإن بعض شعرها فى المجاملة عندما يتصل بباعث من العواطف لا يخلو من نفحات الشاعرية كالورثت أو هنأت عزيزاً عليها وحيداً إلى نفسها .

والآن فأمسك عن ضرب الأمثال والاسترسال في القول عن شعر التيمورية في المجاملة . وأقرر أن الظروف والمناسبات لم تضن على الشاعرة بما هو مليء باللطف والرقه والجمال في هذا الضرب من الشعر فتشده ما يروق ويضطرب . ومن أمثلة ذلك ما روته «مى» عن المرحومين توفيق اسكاروس والسيد محمد الببلاوى ، وكيل دار الكتب ونقيب الأشراف وكان ممن تعزى المجالس بحسن أحاديثهم ومحاضراتهم لوفرة حفظه للطرائف واللطائف من الآثار الأدبية ، ولحدقه وحسن القائه لها . كتبت «مى» في ذلك تقول :

جاءت يوماً بعض السيدات (ويظهر أن الغرض من مجيئهن أن يخطنين توحيدة ابنة التيمورية وهي تجهل ذلك) . فخفت «توحيدة» ترحب بهن ريثما تأتي والدتها . وقالت لملاطفة بموجب الطقس المألوف : «أوحستونا ، إلا أنها كان بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجيء أوحستونا ، أوحستونا ، وهنا دخلت السيدة «عائشة» ، فسمعت الكلمة التي حرفها العيب اللفظي فضت تشرح هذا العيب على هذه الصورة :

قال العواذل ما قالت مؤانسة «أوحستنا ، أنها تجفو وذاك غلط لم يبدل الشين سيدنا لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط

والآن حسبي أن أقف من شعرها العربي عند هذا الحد بما ذكرت ففيه ما يدل على ذوق الشاعرة ، ومدى ما بلغت من مكانة في الأدب الرفيع . ولعل من يستطيع أن يصور مبلغها منه ، فيما كتبت بالفارسية أو التركية يتيح لنفسه أن يحكم بأنها ممن يذكرن في تاريخ الأدب العربي الحديث بتقدير مشرف .

نثرها :

أما نثر التيمورية في لغة العرب فظهره كتاب «نتائج الأحوال في

الأقوال والأفعال، (١) وكتاب «مرآة التأمل في الأمور»، (٢) ومقالات نشرت في جريدة الآداب والمؤيد من نحو ست وستين عاماً. ويغلب السجع المتكلف في هذا النثر على الكتابة حتى يتعب القارئ. ويميله، وتدخّل الكنايات والمحسنات اللفظية إلى التيمورية من كل ناحية، ويتفتح فيها أبواب للاطناب والتطويل، والجدال السليم الساذج، ولدخول الأخطاء في الوقائع واللغة وتراكيبها القويمة مما لا يستسيغه الذوق الأدبي السليم في القديم والحديث، ولو أن ذلك قد استسيغ في مثل زمنها وجيلها من الكتاب. على أنه برغم ذلك ينتهي القارئ الناقد العادل بما لا يستطيع إنكاره على الكتابة، من سبق وفضل في أبحاث أخلاقية وأدبية وفنية، واجتماعية إصلاحية، مما سأسير إليه، في سياق القول، وفي حين تناسب الإشارة. ولا بأس أن أضع تحت النظر نصاً أو نصوصاً حرفية طويلة من مقدمة كتاب «نتائج الأحوال»، نستدل بها على أسلوب التيمورية، وعلى البواعث النفسية الدافعة لوضعها هذه القصة، فضلاً عما يكسبه المطلع من التزديد في المعرفة لميولها، ولتفكيرها ولتاريخ حياتها ولذلك اللون الكتابي الخاص بها.

كتبت عائشة: «وبعد فتقول ذات الجناح المكسور. عائشة عصمت بنت المرحوم إسماعيل باشا تيمور. إني منذ انطوى وساد مهدي، وجمال على بساط البسيطة قدي، وأدرت مواطن غوايتي ورشدي، ووعيت حرمة والدي وجددي، أجد طفل قصدي شغفاً لرضاع اخبار من غير من الأمم، وكهل جددي مائلاً إلى استقصاء أحاديث من كان في سالف القدم. فكنت اشغف بمسامرة الكبر من النساء لسماح احسن الخبر، والتقط من تلك

(١) المطبعة المصرية القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م — (٢) مطبعة المحروسة وقد صدر هذا الكتاب الذي يقع في ١٦ صحيفة أثناء حكم الخديوي عباس الثاني بعد سنة ١٨٩٢ في مدى السنوات العشرة الأخيرة من حياتها.

النوادر أعاجيب القدر ، وأتأمل بمستطاع جهدى فيما يرد على من أنواع الجد والهزر ، وأقتطف ما يسعه وعاء وعي من تمر ذلك السمر ، حيث لا طاقة لى على خلاف ذلك السماع ، ولا سبيل لسنى إلى التمتع بغير ذلك المتاع ، فلما تهباً العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلى ربة الحنانة والعفاف ، وذخيرة المعرفة والاتحاف ، والدنى تغمدها الله بالرحمة والغفران ، بأدوات التطريز والنسيج ، وصارت تجدى فى تعليمى وتجهدى فى تفتيبنى وتفهيمنى ، وأنا لا أستطيع التلقى ولا أقبل فى حرفة النساء الترقى . وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فاجد صرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة . وكنت التمس من شوقى قطع القراطيس وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الآنام ، وأقلد الكتاب فى التحرير ، لأبتهج فى سماع هذا الصرير ، فتأتى والدنى وتعنفنى بالتكدير والتهديد . فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز قصوراً . وأريج القارىء قليلاً من الاسجاع المتلاحقة والتكلف فى صناعة الألفاظ ، التى كانت مألوفة لأقلام عصر التيمورية وعلى أسماعهم ، لا كمل حديث الكاتبة عن نفسها وعن كتابها . فوالدها أشار على والدتها أن تترك عائشة لميولها الأدبية تحت إشرافه وللوادة أن تتولى تربية شقيقته الأخرى وأن توجهها التوجيه النسائى المألوف والمنشود . وعلى ذلك استحضر الوالد لعائشة أستاذين أحدهما يعلمها العربية والآخر يعلمها الفارسية ، وكان تعليمها العربية يعتمد على أسس من القرآن الكريم والفقه وكتب اللغة والأدب ، إلى أن فطنت لكتب التاريخ والسير . وتستاذت التيمورية الحديث لتقول : ولما تلوت أحاديث من مضمي من السلف ، ووردت منهل أخبارهم وروود من أغترف ثم أعترف ، وعانيت مقادير الخلف ، وتأملت فى سير الأمم وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم ، وقد شاهدت والله فى نفسى ذات صدق هذا الخبر ، وكابدت لسوء حظى فى كهف العزلة ما هو أدهى وأمر ، فدعتنى الرأفة بكل مغبون لقي مالمقيت ، ودهى بما دهيت ، أن أبداع

له أحدى تسليية عن أشجانته عند نزاحم الأفكار ، وتلبيه عن أحزانه في
غربة الديار ، .

وعلى ذلك وضعت لنا التيمورية هذا الكتاب الذى أسمته ، نتائج
الأحوال ، فى الأفعال والأفعال ، . ورتبه على خمسة فصول .

الأول : فى « إيقاظ الجاهل من غفلة خداع النفاق وكيفية إقناع المنافق
إياه بحيل مكره وإدراك الجاهل بعد سوء المنقلب حيث لا يفيد التدبر ، .

الثانى : فى النهى عن الكبر والتنمر فى القول والفعل وسرعة المعاقبة بهما . .

الثالث : فى اثنين يحتاج صاحب كل منهما إلى اثنين وهما الإقبال والادبار .

فصاحب الإدبار يحتاج فى إدباره إلى التمسك بعروة التقوى والصبر على
النقم ، وصاحب الإقبال يحتاج فى إقباله إلى مواساة إخوانه والشكر على النعم .

الرابع : فى اقتطاف ثمرة الصداقة وعذوبة ذوقها والرى بزلال حسن
التدبير ، بعد ظلم الطيش والتدمير ، .

الخامس : فى حسن عواقب من صبر ، ونيله الأمانى والظفر ، وسوء

الخيانة وإحاقة المكر السىء بأهله ، .

وبعد ذكر هذه الفصول المسجوعة التى يدور الكتاب على الأغراض
المدونة فيها ، تقرر التيمورية أن الأخلاق والآداب هى الأسس التى تقوم
عليها الحياة ، وأن مدار صلاح الطفل على التربية ولا بد من أخذه بهما من الصغر فى
حزم رغم نفوره عن قيودها وتوجيهاتها ، ووقايته من مخالطة السفهاء . ووقعا
لمعنى هذه المقدمة الطويلة التى يرافق نصها التسجيع تروى لنا التيمورية
بلغتها : « أنه اتفق أن ملكا من ملوك الزمان إسمه العادل ، وكانت مملكته
بعيدة الأطراف واسعة المنازل . قد تشيدت أنحاء ملكه بالحصون والقلاع ،
وتأملت جوانب حوزته على أجل ما يلزم للمهاجمة والدفاع ، وكان هذا الملك
بالعدل مشهوراً ، وبالإصلاح مذكوراً ، وعلى حميد المساعى مشكوراً ،
وبعلو الهمة مغبوطاً مسروراً ، وعلى كل خصم أو معاند مؤيدا منصوراً .

وكان له وزير واسع الإدراك مدبر وكان اسمه «مالكا» ، وقد ملكه العادل
 زمام ملكه . . . وكان لذلك الملك نديم يسمى «عقيل» فيه ما فيه من صفات
 الرقة والعدوبة ما يخفف به آلام كل شك موجوع . وقد بلغ الملك من السن
 عتيا دون أن يرزق إلا بغلام أسماه «ممدوحا» . فدل الملك ولده تدليلا حتى
 «شب الغلام على ملاهى ملاعبه الكشيفة» ويقع في تلاهى مداعبه السخيفة ،
 ولم يتجاسر المؤدبون على تهذيب خصاله ، ولم يتمكن المعلمون من تقويم
 أوده ومحو غم دلاله وادلاله . مما حدا بالوزير والنديم أن يأسفا لذلك الأمر
 الذى يسيء إلى المملكة والبلاد قد يجرها إلى الاضمحلال . وابت صداقتهما
 وصدقهما للملك إلا أن يتقدما اليه بالنصيحة ويعرضا عليه الرأى فى «وقاية
 هذا العزيز فان قبل منا فزنا بما نروم ، وإن أبى ، نكون قنا بأداء حق
 العبودية ، وتحينا الفرصة فأرجآ الأمر إلى وقت بشاشة السلطان . وانفق
 إن كان الملك ذات ليلة فى البستان وكانت ليلة مقمرة فطلبهما للحضور «فاجابا
 بالسمع والطاعة ، وكانا قد تعاهدا على أن يعرضاه بالأمر فى ضمن حكاية
 أجنبية ، ويوقظاه من غفلة الخيبة ليتبيننا أيقبل الملك نصحا فى تربية ولده ،
 أم يشتعل لهيب الغيظ فى كبده . ولما اقبل الوزير والنديم على الملك وحيياه
 بما يليق بمقامه ، كانا قد تصنعا ابتسامة تخفى ملامح هم خفى . فسألها عما بهما
 وطلب الملك من عقيل فى هذه الليلة المقمرة وفقا لما لوفه من نديمه ، أن ينشده
 من الشعر ما يتناسب مع نضارة الروض ، الذى يجمله سناء البدر . ولكن النديم
 أخذ يقدم المعاذير ويلوح بكنايات تدل على ما يهيمه من أمر الأمير ابن
 الملك الذى هو خلاصة للخير الموروث والمستقبل البلاد والعباد . وتتلخص
 تلك الكنايات فى أن هذا النديم كان قد كلف بنوع من الشجر ، فغرسه فى
 حديقة صديقه الوزير لكي يرعاه ، ويوصى قيم الحديقة بالعناية به . وكان
 الوزير عند حسن ظن هذا النديم فعنى بالشجرة المغروسة ، ولكن عنايته
 البالغة كانت على غير أساس فنى دقيق إذ تركها تنمو ، من غير تقليم وتهذيب ،
 حتى نامت باحمالها وتقوست ، فلما عتب النديم على قيم البستان أجاهه القيم المظلوم

الذي لا يستحق الملامة ، بأن الوزير كان يرده عما يجب أن يفعله حيال هذه الشجرة من التهذيب والتقليم حرصا على إحساس صديقه النديم ، حيث حسب إن إكرامه في إحساسه إنما يكون بالأتمس هذه الشجرة ولا يؤخذ منها فرع ولا ينفع منها بزهرة . وقال النديم للملك ، ولا يخفك أن تهذيب الأغصان بالتقليم ، كما أن تهذيب الأطفال بالتعليم ، وكما يحتاج الصغير للتأديب ، يحتاج الغصن للتهذيب ، وهكذا استمر النديم يتكلم عن الشجرة وحالها من رعاية أو إهمال في حديث كله تلميح حتى فطن الملك وقال ، لعمرى هكذا تكون عقول الرجال فلقد هديتاني إلى طريق الرشد في تهذيب ولدى ، وأيقظتاني من لسنة الغفلة عن تأديب فلذة كبدى ، وقد غلبتني حنانة الأبوة ، وأسررتني حلاوة البنوة ، وأثقلتني قيود الشيخوخة عن السعي في طريق إرشاده ، ومنعتني شدة الرأفة من حملة على سبيل اجتهاده ، وعلى ذلك بادر الملك العاقل بقبول النصيحة وسلم إلى الوزير والنديم تربية ولده وأيدهما بكل ما تحتاج إليه هذه التربية من وسائل السكن والمعلمين والخدم . ثم طلب إلى خادمه أن يحضر ولده فلما حضر الأمير الصغير قال له أبوه : « اعلم يا قرّة العين ، إنى أقت على كفالتك هذين الاثنين ، وملكتها زمام تربيته وتأديبه ، وأمره أن يمثل لكل ما يشير به الوزير والنديم . فشكرا للملك حسن ثقته ، وضرعا إلى الله له بصادق الدعوات . ثم تقدم الوزير لمديره وأخذه من حجر والده واجاسه على دست عن شماله ، وقال يا عزيزى هذا مقر جلوسك حين حضورك عند الملك بعد الأمر اليك بالجلوس ، وأملى أنى لا أراك بعد ذلك تعبت بلحيته ولا بلبوس ، ولكن الأمير ظن أن فى ذلك إهانة فبكى وانتظر من أن أيبه يعاقب الوزير إلا أن الملك تغافل عما رآه ، وتجاهل الذى أبداه ولده ، وخرج من غير أن يلاطف الأمير متكبدا مقاومة شفقتة ورغبته فى إرضاء ولده ، ونوى أن يبست فى مكان غير الذى كان يبست فيه مع الأمير ، منذ أن ماتت والدته ، لى يتحقق الوالد من حسن الخدمة ، تاركا أمر القيام عليها لسكل من الوزير والنديم فيما بعد . وحسبى الآن ذلك التلخيص من مقدمة كتاب نتائج الأحوال ، على أن تلخيص المقدمة لا يغنى عن تلخيص القصة . وتلخيص هذه القصة

الطويلة المتعبة المغربية للقراءة دونه «مى» فى دراستها عن عائشة فقالت: (١)
 « هذه ككل قصة قديمة تحترم نفسها فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم
 واليك أسماء أهم الأشخاص :

العادل — « ملك عظيم صالح منصور ،
 الممدوح — ولى عهده ومحمور ومطمح آماله وآمال الشعب . وهو بطل القصة
 عقيل — الوزير . وهو رجل واسع الإدراك . حاذق التدبير ، وقد
 فوض اليه الملك أن يدبر شؤون الدولة .
 مالك — النديم . . . ويظهر أنه عدا ما يستحسن فى النديم من براعة
 الظرف ولطف السمر (وهى مواهب لم تبد منه خلال قصتنا) وعذوبة
 النطق ، فهو ذو مواهب خلقية كالوزير من حيث الاستقامة والحصافة
 وسعة الإدراك وحسن التدبير .

قد يطلب علماء النفس إيضاحاً عن هذا التقسيم السيكولوجى . ولكن
 استفهامهم هذا لا يغير الواقع .

وشنام — قيم على خزينة المال

غدور — قيم على خزينة السلاح

أما « حيلة » القصة فنشئوها أن الملك مولع بولده وهو شأن كثير من
 الآباء الشرقيين يسمى فهم المحبة الوالدية ، ويحسبها قائمة من إنالة الولد جميع
 مطالبه وعدم التعرض لصد أهوائه . وقد بدأت تظهر نتائج هذه التربية
 السيئة فى سلوك الولد وفساد أخلاقه . ولم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك إلا
 الوزير والنديم . ففعلاً فى حديث رمزى متبسط ، ذكر فيه غصنا فى حديقة
 لم يحسن تقليمه . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ، وأختمته حجتهما ، وندبها
 لتثقيف ولى عهده وتعليمه . فقاما بذلك خير قيام وظهرت نتيجة مجهودهما
 فى وقت قصير ، بتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح إلى وجهة

(١) أنظر حلية الطراز صحيفة ١٣٤ وما يليها .

الصلاح والحاجة . ولا تسئل عن سرور الملك . . . فانه عبر عنه تعبيراً
فاخراً بالطريقة التي فيها ملوك الحكايات في عطفهم على من يحسنون في سبيلهم
البلاء ، ويخدمونهم بصدق ووفاء .

وإزاء هذين الرجلين الوفيين لمولاهما ولوظيفتهما ، وللصلحة العامة
(إن جاز مثل هذا الوصف في الحكايات القديمة) نجد مثالا شنيعاً للحسد
والخيانة والدسيسة في القيمين « وشنام » ، و « غدور » ، فقد أخذهما الاستياء
من فلاح الوزير والنديم ، فدأبا ليفسدا عليهما الأمر بتملق الأمير الصغير
وإيغار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن أندية اللهو والمرح ، ويبعدان
بينه وبين والده بحجة التهذيب والتعليم ، وهما في الواقع يكيدان له لانتقاص
سطوته ، وكرامته ، وتنخيص حياته .

واستتبع ذلك جهاد صامت عنيف بين هؤلاء الأربعة ، فتارة ترجح
قرب الأمير كفة الاستقامة والاخلاص ، وتارة يستسلم لصوت الوشاية
والافتراء . وتمّ الفوز للدسائس في النهاية ، لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل
وتتوارى في تعمل التفادى والغيرة ، وكثيراً ما يظفر المحتالون والكاذبون .
فخرج الفتى على أستاذه الصالحين وتوعر خلقه ، وتفاقت شراسته . وأراد
الوزير أن يتلافى الأمر بالتى هي أحسن ، فاقترح على الملك أن يزوجه ،
فقبل الملك الاقتراح ، وأنفذ الوزير إلى إيران لمفاوضة ملك العجم في خطبة
ابنته « بوران » ، المشهورة بسداد الرأى ، وذكاء العقل وحسن الارادة .
ومضى النديم إلى الشين (الصين) لاحضار جهاز العروس وأمتعة الزواج .
وخلال الجو للدسائس قرب التلميذ المنقلب عريساً بين ليلة وضحاها ،
فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده ، وتعاون الغم والشيوخوخة على إتلاف
صحته فأشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت؟ إنه يستدعى
إليه ولده ليزوده بالنصائح . وذلك ما فعله الملك العادل . بيد أن المنية عاجلته
قبل أن يمعن في الكلام ، فقضى بين ذراعى ولده مأسوفاً عليه من هذا
الولد المسكين .

وهنا ، وقد سنحت للدساسين الفرصة التي تربصا لها زمنا طويلا ، فإنهما يقومان يتمثيل الفصل الثاني والأهم في دورهما ، فيوهمان الشعب بأن الملك مازال على قيد الحياة ، غير أنه لضعفه ومرضه عهد إلى القيمين بشئون الدولة وشؤون ولده . وينفذان الفتى إلى المجلس ويده كتاب مزور في هذا المعنى ، وهو في حزنه مشرد الفكر لا يعرف مضمون الكتاب . ومن ثم يجتهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوضان أمر القضاء عليه إلى عبدین يسيران به إلى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة ، ولكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيسكتفیان بإبعاده على أن لا يحاول العودة .

ولا يفوت الخائنين إبلاغ الوزير في إيران أن الأمير عشق صبية من بنات الإفرنج ، وجرى في أثرها ، فعلى الوزير أن يمضى للبحث عنه ، ويكتبان إلى النديم أن الأمير خرج إلى الصيد فشرده الجواد ، وانساب ذلك الفرس إلى ضيعة حرسها عبيد ، فليجدن إذن في طلبه أين . . هنا على مقربة منا ياسادق ، في السودان الذي هو ومصر جزء لا يتجزأ ، كأنعلمون .

وهاهو ذا صاحبنا الوزير يطوى البرارى والقفار وينتقل من دار إلى دار .. وهاهو ذا صاحبنا النديم يذرع شواطئ النيل في أعاليه ، ويفتش في أقاصى السودان وأدانيه ، وينقضى زمن غير قليل وجمع أقطاب القصة — بما فيهم أنا التي أقرؤها لأخصها — يعمهون في مثل تيه بنى إسرائيل .. وليس من سبيل يسلك في نتائج الأحوال ، غير اشتباك القصة الصغيرة بأختها ، وهذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات ألف ليلة وليلة ، و«كليلة ودمنة» . وإذا كنت أنا وأصحابي أشخاص الرواية نجوب السكتاب لعشر بعضنا على بعض ، فلا نفوز إلا بالتطوح والتنائى ، كم ذا سألت الله أن يأخذ بيدنا فيلم شملنا ، ويرد لهفتنا لاسيما الفتاة العروس «بوران» التي بعد أن علمت بما جرى لخطيبها المجهول طلبت الاعتزال عن الناس . وأرادوا لها أن يزفها إلى ابن أخته ليتدارك الحال ، فيحول مجرى أفكارها قبل استفحالها

في الجوى ، ولكنها أبت وهربت إلى حيث لا يعثر عليها ، لأنها على نحو ما ينشد الشيخ ، سلامة حجازى ، في الفونوغراف .

« عرفت هواكم قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا
 وكم كنت أعتاظ إذا ذكر أننا نبينا نحن (أى أنا والصالح من أهل الرواية)
 تعبت بنا الأقدار وتجد بنا النوى فتتقى على جمر الغضا ، فإذا بالغاصبين يسرحان
 في بغداد ويمرحان ولهما تضرب المدافع ، وتنشر الألوية ، وتقدم الرعايا
 فروض العبودية والإكرام . بيد أن الأيام دارت دورتها وحالت الأمور
 على أتم ما يرام ، فتلاقى بديا الأمير والنديم ، فعجلا بالذهاب إلى إيران إلى
 حيث كانت تسوق الفتى أشواقه ، لأنه مثل عروسه قد وقع الهوى في نفسه
 مكانا بعيداً ، وظل في مصائبه ، وبأسه تلازم خاطره الفتاة التي وعد بها دون
 أن يراها ، وكان للأمير والنديم في إيران رحلات عديدة غير موفقة . إلى أن
 أقبلا أخيراً على جبل شهاق ، فإذا هناك إشارة تركها لهما الوزير فيما لو
 اهتديا إليها أن يعودوا مباشرة إلى العراق . فعادا مباشرة إلى العراق ، وتلاقيا
 والوزير في زى ناسك . ولك أن تطلق هنا العنان لمخيلتك وتتصور ما يحلوك
 من سرور وحبور ، وبكاء وإغماء ، يعقبه بقظة وسلام وكلام يناسب المقام .
 وانضم إليهم العبدان اللذان أبقيا على الأمير ، وكان القيمان المختلسان قد أرادا
 الإيقاع بهما لا تكشفاه فعلتهما ، ففشلا ونجا العبدان الوفيان . وكان هذا
 التلاقي منشأ لمؤامرة طويلة ، وقد آلى كل منهم على نفسه ليصر عن الآفة
 بآفة ، ويفلن الحديد بحديد مثله . وأزرهم طيبب الملك ، ودبر لهم الحيل .
 فكان الفوز حليفه في كل مادبر . فأوفد إلى أصحابه المتآمرين عدداً من الرجال
 وحفروا نفقاً يمتد حتى المدينة ويفضى إلى خزينة الدولة . . وأبى السعد إلا أن
 يتوج مساعيمهم ويهيء لهم الأفراح والليالي الملاح ، فلم شملهم بالعروس . وإنى
 لأكفيك مؤونة الوصف لاجتماع العاشقين السعيدين حسبي أن أتمنى لك تلك
 الساعة مع من تهوى وعندما أن الأوان ليثوب كل من الحبيبين إلى رشده . جاهرت
 برغبتها في العودة إلى الوطن ، ليزفها أبوها إلى خطيبها بالأية اللاتقة بالملوك

« لا بد لي من أن أتوصل إلى بلادى بشرفى ، تقول بطلتنا الباسلة » وأدخل قلعة أبى بصياتى ثم يعثنى هو إلى هذا العزيز بسيادتى .

وكذلك كان . وعاد الأصحاب بعدئذ إلى إتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الأمير والقبض على الخائنين . وتتابعت المشاهد والحوادث بمثل سرعة الصور المتحركة . منها موكب الملك :

المدافع تدوى والطبول تدق — هيجان بغداد ، وفرحها — فوز الحق والصلاح ، واندهار الخيانة والطلاح — بحى العروس فى موكب بديع — المناداة بالممدوح خليفة وجلوسه على التخت ، أفراح — أنوار — أهانج زينات — شمس مجلوة — بدور منيرة — وفوق كل ذلك خطب وقصائد « وبات العروسان يديران كؤوس المواد السكرية ، ويتداولان أقذاح الوداد العبقرية ، وفى الغد أقيمت بالطبع حفلة « تشريفات ، لمناسبة الجلوس المجيد ، والزفاف السعيد ، فوفد المهنون ، وتليت رقاع التهانى ، ووزعت الهدايا على أرباب الدولة . والهم الملك الفقى : فانبرى يخطب فى الجموع شاعراً ناثراً ويمتدح النواب التى هذبته وعلته الصبر والحكمة . وهامك مثالا من نظمه .

واشتاقنى عزى كشوقى للمنى	مذ كنت ألقى لاعج اللوعات
قلدت سيف الصبر كى بجزازه	أسطو على محق الزمان العاتى
حتى قطعت به جبالى محنتى	وسلكت نهج الرعد طول حياتى
وأنا المقر بما جنيت وليس لى	عذر سوى أسنى على هفواتى
فلا شكرن شدائدا لو لم تسكن	ما كنت أدرى زاتى للماتى ،

هذا هو ملخص الحكاية الطويلة التى يضيق بها القارىء وتتعبه وتستويهه فى آن واحد ، والتى تتشابه فيها القصص والحكايات . وهى حكاية إذا جشمت قارئها العناء مرة ، فكم جشمت كاتبها العناء مراراً وتكراراً لما بذلته من مجهود فى تصيد الألفاظ ووضع أبحاج وافتراض الحيل وتخيل الحلول .

ومهما استهدفت هذه القصة لمراى النقد الفنى فى القصص ، وظهر لقراءها منها الإطالة المملة حيث يحس الإيجاز ، وبدا التفكك فى القول حيث ينبغى الترابط ، واستفحل التماذى فى الخيال الساذج حث لاتيجهز النظره الواقعيه ، وتكاثرت المبالغات ووثبت المفاجآت حيث لا مكان إلا للتمهيد والتطورات . واختلطت الآفاق حيث لا مبرر للاختلاط وقربت المسافات حيث تتباعد المواضيع ، واختلطت الأمور التى تنافر من الاختلاط ، وغير ذلك مما يصح أن تجرح به قصة التيمورية . أقول مهما يكن من أمر هذا التجريح فإن لها فضل سبق فى أن تكون با كورة طيبة مباركة للادب القصصى العربى الحديث ، حيث ينبغى أن يتسع له المجال فى الأدب . كما أن لها الفضل كذلك فى وضع قصة تفيض بالتوجيه الأخلاقى والكشف عن رذائل المتملقين والمتطفلين والفضوليين والمغرورين ، وأهل الحسد والبغضاء ممن تعمر بهم محيطات الأعيان ويثبات السراة ، وأهل الثروة والسلطان وسكان القصور . وقد خبرت التيمورية الكثير من شؤونهم وأحوالهم عن كسب بالمخالطة والاحتكاك . ومن ثم حفلت القصة بدروس نافعة ، وعبر وعظات مهبذة لمن يتعظ أو يعتبر من أبناء الوجهاء والمدللين والحاكمين ، فضلا عما فى نشر القصص الأخلاقية من إشادة بالمثل العليا وإشاعة لها . وهى تستوجب على أهل التفكير والأدب رعايتها بما يكتبون ويذيعون من نتائج افهامهم وثمرات أرقامهم فى هذه الحياة الدنيا التى يشتد شرها وظلامها ، لو لم تلمع فى إبحائها بوارق المثل الرفيعة ونزعات التفاؤل والآمال .

ويبدو لى شىء آخر فى هذه القصة أراه بعين الإعجاب والتقدير لهذه الأديبة . ذلك أنها تصبر الصبر الجميل وتبرع كل البراعة فى تزويد أشخاص قصتها بالقدره على ملاقاته الخيل والتدابير الماهرة بما هو أبرع فى الخيلة وأمر فى التدابير .

وهكذا دواليك يستمر الحال فى مد جبال الخيلة لمدى طويل ، ويطول تخيل الفروض التى تفرع بها الخيل بعضها بعضاً فيحسب معه القارىء ،

المستعرض لأشخاص الرواية وأطرافها البارزين ، والمتتبع لتفكيراتهم وتعبيراتهم ، أنه معهم في معمعة مؤتمر من أهل السياسة والدس والوقية ، يرسمون خططهم في هدوء ورباطة جأش وكياسة ولباقة ، يحسد هم عليها من يتخذون في حياتهم طرق الصراحة والاستقامة دون أساليب الدهاء والالتواء ، فيتعرضون بذلك إلى الهزيمة . ومن يقرأ في إمعان تلك الحيل والوسائل التي يصطنعها هؤلاء الأشخاص والأبطال في قصة نتائج الأحوال لايسعه إلا أن يتصور نفسه في مدرسة يتعلم منها كيف يصمد ، ويظاول ، إلى أن يحبط مكرراً بمسكر ، وينصر بعد المصابرة ، حيلة على حيلة ، ويرجح ، بعد المطاولة شأناً على شأن ، لكي يصل في النهاية إلى أهدافه ومقاصده .

ولا يضيرنا في شيء أن نجشم القارئ العناء أيضاً في قراءة بعض نصوص وصفحات أخرى من « نتائج الأحوال » على سبيل المثال لكي يزن تصوره للتيمورية الكاتبة ويتبين بنفسه لغتها ، ولكي يرى بعينه رسماً تخطيطياً لأشخاص قصصها أو لبعضها ولبعض ما قد تحتزنه صدورهم ، يجرى على ألسنتهم من المنازعات والأقوال وطرائق التنفيذ والأفعال .

لقد أبدعت التيمورية هذه القصة « لتسلي الناس عن أشجانهم عند تراحم الأفكار ، ولترك لها المجال لتحدثنا بأسلوبها لتقول في الفصل الأول من الرواية (١) :

« كان للملك قيمان أحدهما على خزينة المالية ، والآخر على خزينة السلاح . اسم الأول دشنام ، والثاني غدور ، وكانا يبغضان الوزير والنديم ويحسدانها على توجه الملك اليهما وعطفه عليهما . فلما تقلدا بكفالة الملك الصغير تضاعف الحقد ، وكبر الوجد ، وكانا بالحضرة السلطانية يسمعان كل ما أمر به الملك . قالت ، يعنى التيموريه (فاشتغل الوزير والنديم بتمهيد القصر لممدوح بن الملك ، وهو الملك الصغير) حتى ريباه كما يرومان في ظرف ذلك الأسبوع وكان هذان القيمان في خدمة ممدوح فلما دخل ممدوح

(١) انظر صحيفة ٩ من كتاب نتائج الأحوال لعائشة التيمورية المطبعة المصرية سنة ١٣٠٥ هـ

بعد توجه والده إلى القلعة وقد استشاط غيظا مما فعله الوزير وصار يشتكي اليهما ويبيكي فاسكتاه بالملاعبة . وألهياه بالنسكت والمداعبة ، حتى ذهب حزنه . ثم قال له إن أمل الوزير أن يبعثنا عنك فإذا بليت ببادرة مثل هذه فمن يقوم بما يسليك في غيبة أبيك ؟ فقال إن أمر الوزير ببعدكما عنى رددت قوله ولم أفارقكما أبداً . فوجدنا مسلكا للدسائس في حق الوزير والنديم بواسطة هذا الصغير الذي لم يميز خيره من شره ، فلما كان اليوم السابع أرسل الملك إلى الوزير والنديم يسألها عن كيفية مقابلة ولده له ، فأجاباه بأننا نحضر في كل يوم جمعة للحضرة العلية ، نتمتع بتلك الطلعة البهية ، وذلك بعد مرور ستة أشهر بشرط أن يكون سؤال الملك ولده مقصوراً على دروسه وعلومه ، وجميع محادثته إياه ، دائرة على البحث فيما تلقاه ورعاه ، فلما تجهز القصر ونقل إليه ممدوح وحضر المعلمون وترتب الخدم واختنق القيمان بخدمة الملك الكبير ، وعلم ممدوح بذلك دخل إلى الوزير باكياً وقال ألم تسكتف ببعد أبي حتى أبعدت عنى من كانت راحتي في خدمتهما ومؤانستهما ؟ وأملى منك أن تأمرهما بالاقامة عندي وأنا في طوعك كما تشاء . فقام الوزير إلى خلوة النديم وأعلمه بما صار . وقال اعلم يا أخي أن هذين الرجلين إن لازماه أفسداه بدسائس النفاق ، وأشر با أخلاقه وساوس المخالفة والشقاق ، فقال النديم أنصفت ولكن إذا رددنا أمره من أول وهلة فسد أمر انقياده لطوعنا ، فنبتق هذا الأمر لوقت آخر ، ونسكتف ببعد أبيه كما أشار والأيام بيننا ، فاستصوب الوزير هذا الرأي وقبل أمر ممدوح رغماً عنه ، وأبقى معه هذين القيمين . وكان ممدوح ، يميل إلى عقيل ويبغض الوزير من يوم أخذه من حجر أبيه ، فكان الوزير يدخل عليه في كل يوم صباحاً ويقوم معه إلى الصحوة لمناظرة كيفية تلقي الدروس ، ثم يتوجه بعد ذلك بإدارة أمور المملسكة إلى الحضرة السلطانية ، ويخبره بكل ما كان من أمر ممدوح في يومه وليلته . فتستروح روح الملك بذكر ولده وتقدمه في المعارف . وأما النديم فكان يلازمه بعد توجه الوزير حتى تنتهى دروسه ، ثم يبادره بالنصح في معرض المسامرة ، ويتحفه

بأحاديث تهديه إلى الرشد على سبيل المنادمة ، ولم يزل فى ملاطفته حتى ينام
 حذراً من دخول القيمين عليه فى خلوة عنهما فيغلبان على فكره بالنفاق ،
 وأسباب الشقاق وعوائد الفساق ، حتى إذا استغرق فى النوم ، توجه النديم
 إلى مولاه الكبير ، وأتحفه بما كان منه من حين خروج الوزير حتى نام ، وكان
 القيان يقومان بخفارة ممدوح إلى الصباح ويترقبان الفرصة للدسائس ، فلم
 يجدا وقتاً . قالت فكشك ممدوح فى تلقى دروسه وحسن انقياده حتى مضت
 الأشهر الستة وهو على استقامة كريمة ولم ير منه أدنى مخالفة لأمر الوزير
 والنديم ، سوى شدة ميله لدشنام وغدور . فلما حان يوم المقابلة هياه الوزير
 بأخر الملابس وأخذه هو والنديم ، وقدما به على الملك ، والقيان يقفوان
 أثرهما . فدخل على والده وسلم عليه برسوم الخلافة وأمسك من الجلوس
 حتى أمر ، فجلس جائياً على ركبته وصار الملك يسأل عن ما أخذ من العلوم
 وهو يحببه بأحسن جواب ، وأشهبى خطاب . فاهتز الملك طرباً وقال فى
 نفسه : إن كان هذا التحصيل فى نصف عام فما يكون فى العام . ثم حضر
 الطعام فتقدم ممدوح بعد جلوس الملك والوزير وجلس بأدب باهر . وجعل
 يأكل بلطف وعفاف فصار الملك يتأمل ، فى أثناء تناوله الطعام إلى ما يديه
 من الآداب حتى كاد يستفزه الطرب إلى تقبيل مالك وعقيل . ولولا عزة
 الملك بشرف السيادة ، لهم بذلك أو فعل . فلما انقضى اليوم المشهور ،
 وهموا بالانصراف ، أنعم الملك على كل منهما بخاتم من الجواهر وعلى
 ولده بجواد بلبب بجوهر ، وانشرت صدورهم بهذا الانعام ، وقرت عيونهم
 بهذا الإكرام والتبلى قلب القيمين حقدا وطاشت عقولهم حسدا ووجدنا ،
 وتحسرا عن عجزهما عن إيجاد مكيدة لهما فى أقرب وقت . فنها وصل ممدوح
 إلى قصره دخل والنشاط يلوح على ناصيته وأمر الخدم بتمهيد مبط الجواد .
 وصعد إلى قصره وما زال مع النديم فى مسامرة حتى نام الفتى برهة تخيل له
 الجواد فى نومه فاتبته مسرورا بما رآه واستوى جالساً . فنهض « دشنام » ،
 إلى الفرصة التى مكنته وصار يلاعبه ويرقص له هو وغدور وهو يضحك
 عليهما ضحكا بليغاً ، وقد مضت تلك الشهور ولم يضحك ممدوح مثل هذا الضحك

من يوم دخوله القصر الذي هو به ، فقال لهم لم تضحك في كل ليلة بهذه الملاعبة فقد جددتما لي حظاً كنت نسيته . فقالا عزيزنا نحن نفدى ساعة من انسك بأرواحنا ، إنما لم تجد وقتاً من ملازمة الوزير والنديم وإياك وإينهما إذا اطلعنا على أنسك بنا شكوانا إلى والدك فيبعدنا عنك وإن أبعدنا عنك ، زهقت أرواحنا شوقاً إليك ، وأسفاً عليك . وما زالوا يزخرقان له مثل هذا الحديث حتى داخله الاستغراب . وقال كأنهما بكرهان أنسى ، ويريدان أن تكدر نفسى ، وهما منتخبا والذى اللذان يراهما أهلاً لسكفالتى ، ومحلاً لحفظى ووقائى . فقالا دعنا يامولانا من هذا البحث وذرنا نلعب ونطرب لنجلب أنسك ونؤنس نفسك حتى تنام نوماً هنيئاً ، وتب نشطاً قوياً ، فصار يفكر فى هذا القول حتى غلب عليه النوم فهنا بعضهم بعضاً بفتح باب الأمل ؛ ثم مضت مدة ومدوح يتوجه إلى القلعة كل يوم جمعة لمقابلة والده . وكلها رأى الملك تهذيب ولده زاد فى اعتبار وزيره ونديمه . وكلها زاد فى ذلك يزداد الحقد فى قلوب ذينك المنافقين . فقال مدوح يوماً من الايام كيف العمل فى أن أختلى بكما للباسطة والمؤانسة . قالا ونحن أيضاً نلتمس هذه البرهة كمواسم الأعياد فاذا أردت ذلك فتناوم مسرعاً إذا شرع النديم فى المسامرة لتخيل أنك نمت فيذهب إلى خدمة الملك ، وعلينا أن نسليك بالملاعبة كما تريد . ففرح مدوح بهذا رأى ، وصمم على إجرائه ، فلما جن الليل وأخذ النديم فى حديثه جعل مدوح يتناوم ، بل أظهر أنه نام بالفعل . فتركه النديم وتوجه إلى خدمته . وعند ذلك قام الفتى ، وقد جددا له ملعباً ظريفاً ، ومازالا يضحكانه حتى نام مشروحاً . واستمر الفتى معهما على هذا النسق وهو يجد فى نفسه راحة وانشراحاً كما جرت عادة الجاهلين : فلما تم العام عقد الملك مجلساً لامتحان ولده ، وأحضر علماء الفنون وزعماء المعارف ، وامتنح ولده فى حضرة الجمهور فكان أول درجة من أهل الدرجة الأولى فيما تلقاه حفظاً وفهماً وسرعة إجابة فعوذه الحاضرون ، وحصنه السامعون فلما انتهى اليوم على أحسن حال أنعم الملك على المؤدبين بما يليق من الخلع والإنعام ، وعلى الوزير والنديم أيضاً بقصرين من قصور متزهاته بسكامل أئانها . وقال لهما

الملك اقبلا هديتى وإن لم تكن مكافئة لبعض حسن صنيعكما . فقاما وقبلا الأرض ، وبسطا أكف الدعاء بالرفعة والنصر لها وآمن الحاضرون . وقد ابتهجت الرعية من نباهة بمدوح لأنهم كانوا فى كدر من عدم تقدمه وتعلمه ، خوفاً على الملك أن ينتقل اليه بعد أبيه فلا يحسن الادارة ولا ينهج منهج العدل لسوء سياسته فتغلبه الأخصام على ملك أبيه . فلما قرن اليوم بحسن الختام قدم بمدوح إلى قصره وقد أتخفه الملك بقصر الدجلة والفرات بكافة ما حوله من الحدائق والرياض ، وكان الملك شاوور الوزير والنديم فى أن يعطى لولده أحد الضياع العامرة فنعاها بقولها - إن ملكه بادر بالإسراف ، وإن لم يمتلكه صار فى نفسه شىء لاسيما إن دس اليه أحد المنافقين طرفاً من الفتنة يؤول الحال إلى التناول فى الطلب ، فان بخلنا عليه جرأناه وإن جدنا له على التبذير حملناه . فاستصوب الملك هذا الرأى واكتفى باتحافه القصر المذكور ،

حسبى أن أجشم القارىء تلاوة نصوص قد لا تبلغ عشر الكتاب ليرى فيها نموذجاً مما أشرت اليه من إطالة ملة ، أو ضعف فى الأسلوب . وللقارىء أن يتلخس فى هذه النصوص ، وما قد يكون فى الكتاب كاه ، من فضل للكاتبه ، وجهد وصبر . فى أبحاث أخلاقية ، وصور إجتماعية ، وحبك فى إيراد الحيل ، مما قد يستهوى القارىء . للقراءة برغم ما يجد من سامة قد يفرضها التطويل وتطويح الأسلوب عن الذوق العصرى للكتابة الأدبية ، كما أشرت إلى ذلك فيما سلف . وإذا كانت قصة « نتائج الأحوال » تبين للقارىء البواعث التى دفعت المؤلفة لإنشائه ليكون فيه التسلية لمن يدهمهم الشجون ، وليكون منه العون على ما يريح النفوس عند الرضا بحكم الأقدار ، وليكون منه الانتفاع بمعرفة النفوس وما فيها من نزعات للشر تنقى ، ونزعات للخير يستفاد منها ، فان فيما كتبتة التيمورية فى رسالتها « مرآة التأمل فى الامور » ، وفيما كتبتة من مقالات فى الجرائد والصحف ، ما يهدى إلى ما كان لها من نزعات إصلاحية وسبقها فى ذلك لغيرها من كتابات وكاتبين .

ورسالة « مرآة التأمل » هى رسالة صغيرة تقع فى نحو الثلاثين صفحة ،

ووضعتها الكاتبة في غضون العقد الأخير من حياتها ، وفي نضج من تجاربها .
ولغة هذه الرسالة بأسلوبها السكتاني هي نفس اللغة ونفس الأسلوب المعروفان
للكاتبة في نثرها ، يعني أدب السجع المتكلف ، والكنايات ، والمحسنات
اللفظية من جناسات واستعارات وكنايات ومجازات ومبالغات وتليحات
وغير ذلك ، مما تتخفي فيه أفكار يلابسها من طريق الكتابة إبهام وغموض
وشحوب يحد من قيمة التفكير ، ويحول دون ما يمكن أن يكون له من أثر
سريع فعال في الإنتاج الاصلاحى الاجتماعى . في هذه الرسالة مايدل على أن
عائشة التيمورية كرهت من المجتمع صورة تنفر منها الفطرة السليمة ، وتأباها
الحياة الطبيعية . حين وجدت بعض الرجال تفسد طبائعهم ويسوء مسلكهم
إلى حد أنهم يتخلون عن منزلتهم فى القوامه على المرأة ، ويعطلون مركزهم
الرئيسى فى العائلة وتدير سياستها بطيشهم وسوء تصرفهم ، فتلحق الفساد
بالبوت ويتفشى فيها الخراب ، نتيجة لانحراف هؤلاء الرجال عن الطريق
السوى الفطرى وتقول الكاتبة فى ذلك مانصه (١) :

وقد أرانى من لا تراه العيون . وأمره بين الكاف والنون . سبل الهدى
والصواب . فما أمرنا بتلاوته من آيات الكتاب فينب بصريح المقال ، حقوق
الرجال على النساء والنساء على الرجال . فقال الرجال قوامون على النساء
بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . فالرجل يقوم بأمر
الزوجة مجتهدا فى حفظها وصيانتها وأداء كل ما تحتاج إليه . ثم أن الحق لم يكتف
بالحكم حتى بين السبب بقوله : بما فضل الله . يعنى بأمر لها وفرة فى العقل والدين .
ولذا جعل لهم الولاية والامامة وجعل فيهم الخلفاء والأئمة وميزهم فى الشهادة
بين الأمة

إلى أن تقول : فمن الغريب العجيب أن معشر الفتيان فى هذا الزمان
أعرضوا عن تلاوة هذه الآيات فضلا عن تدبير معانيها ولم يعباوا بشئ . من

(١) كتاب «مرآة التأمل فى الأمور» ص ٤ .

ظاها ولا خافها حتى بحيث من مدركتهم حقائق الأمور ، وشد الجهل بصائرهم بعصاة الغرور ، فغرم بالله الغرور ، حتى أن كل إنسان هم بالاقتران ، من وضع ورفيع ، وخامل ونيه ، كان كل بحثه عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لاعتن النسب والتدين والعفة والوقار .. وإذا كان الظاهر عنوان الباطن وما فى الجنان يظهر من فلتات اللسان ، فقد اتضح من حالهم وظهر من مقالهم ما كنته الأفئدة وأضمرتته النفوس من أن رغبة هؤلاء الفتيان من الاقتران ليست للصيانة والديانة ، ولا لطهارة العصمة ، وطيب العفة ، بل لطمع المنال ، وحياسة الأموال ، والتصرف فيما تمتلكه ربات الجمال ، ابتغاء مرضاة نفس دنيئة ، وذمة رديئة ، حتى إذا صار له الولاء على تلك الزوجة المطيعة ، رفيعة أم وضيفة تمتع كيف شاء وأراح أفكاره من الاتعاب والقي عن عائقه حول الأوصاب ، وقعد مستغنياً عن الجهد فى الاكتساب .

وإذا يكون الحال كذلك فى مثل تلك الصورة البغيضة التى ترسمها لنا التيمورية من المجتمع ، تقوم الزوجة بإدارة خدرها وتقاوم هذا العناء بصبرها ومن ثم انتقلت السلطة إلى الزوجات وصرن ربات التدبير وآل النفقات ، وتخلت الرجال عما لها من الزعامة التى كانت أوجبت لهم الهيبة والوقار وتلثمت شهامتهم بواقع الإدبار ، (١)

وعندما تنتقل السيطرة إلى الزوجة وعندما تلقى زوجها بالانفوذ لسبب انحرافه وسوء حاله واعتماده على مالها ، ربما يؤدى ذلك إلى شرستها وتطاولها عليه وتعكير صفوة الحياة الزوجية ، أو إلى صبر لا يحتمل من قلبها فينتهى بها إلى الأمراض والغيظ والتلف ، أو إلى اعوجاج فى سلوكها تزول به حصانتها وتتخبط أخلاقها ويفسد به طهرها .

وخلاصة القول عند التيمورية أنها تدعو المجتمع إلى الحرص على أن يكون للرجال حقهم فى الزعامة والقوامة على المرأة دون أن يفرطوا فى

(١) مرآة التأمل ص ٥

واجبهم نحوها من الرعاية والتكريم والكياسة وألا يحملوها ما يجب ألا تتحملة من اتخاذ وسائل الكسب ليبتفع به هذا الصنف من الرجال . الذين جعلوا الكلال طرفه ، والطيش خفة ، والسلب تحفة ، والجن أهني حرفة ويدعون بالصورة الظاهرة أنهم رجال . (١)

وإذا أمعنا النظر في الروح الإصلاحية التي تتضمنها رسالة التيمورية ، نجد أنها لا تقر أوضاعاً تتوزع فيها الأعمال بين الرجل والمرأة على قدم المساواة ، دون نظر إلى ما ينبغي أن يكون للرجل من حظ أو فر فيما يدر عليه المكاسب والأرباح والأموال التي ينفق منها على زوجته وعيالها ، ولكي يصونها عن الانصراف عن واجباتها الأولى في رعاية البيت واسعاده . ومهما يكن من قول للمؤلفة في مناصرة للمرأة في سبيل التعلم والفهم أو للسير بها في استكمال حريات ضن عليها المجتمع ، فإنها لا ترضى عن حالة مجتمع تنقلب فيه الأوضاع ليكون حظ الرجال في أموره وأعماله دون حظ النساء خلافاً لما ينبغي أن يكون عليه الأمر من العكس . وتمثل لنا عائشة نزعتها ورأيها في ذلك وتضرب الأمثال فتروى لنا . «أن أسداً تكاسل عن الصيد . . . أمر اللبوة أن تنوب عنه وتأتي بالفريسة بدلاً منه فانقادت لأمره ، وصارت على ما عهدته من سيرة . واستمرت مدة على هذا الحال فلما طال الشرح عليها صارت تصطاد ، وتأكل ما اشتهت من أطيب اللحوم ولذائد الأكباد . وتلقى إليه بالمشاش من فضلات ما بقي فاشتاط الأسد غيظاً ، ورأى أن ذلك إهانة لوقاره ومجلبة لعاره . فقال لها خزيت يالكاع كيف تأتيني بسقط المتاع وتجسرين على أكل الأطايب قبلي . . . فضحكت اللبوة منه وقالت . . . إني لم أنس فضلك . . . ولكن كان ذلك منذ كنت أنت أنت ، وأنا أنا . وأما الآن فتمدانعكس الحال وصرت أنا أنت ؛ وأنت أنا ، فلك ما كان لي عليك ، ولي عليك ما كان لك علي فالحق الأسد ورجع على نفسه باللوم رجوعاً (٢) . ولعل التيمورية لو مد لها في

(١) امرأة التأمل ص ٥

(٢) امرأة التأمل ص ٧

الأجل وشهدت ما يجري عليه عرف عصرنا في بلاد الغرب وبخاصة في أميركا، حيث تشجع النساء ويملي لهن في اتخاذ ضروب الأعمال التي يمارسها الرجل لكفرت بالعصر وضجت من عرفه، حين تجد منه مخالفة للفطرة السليمة تودي إلى خسر الإنسان في دنياه ومدنيته ودينه على السواء .

على أن شاعرتنا وإن تزلت وتشدت في ألا يكون للمرأة قسط يتساوى مع قسط الرجال في أعمال المجتمع، إلا أنها لا ترضى عليها في أن تطلع في العلم والعرفة بنصيب وافر وحظ عظيم تتساوى به مع الرجل لكي تتمكن من الإحسان في تربية الطفل وصالح العائلة. وكتبت في هذا المعنى مقالا طويلا لازمه، كعادتها فيما كتبت نثرا، صنوف الأبحاث والمحسنات اللفظية وما إليها من التوريات والكنايات والضموض . وقد أثبت هذا المقال في كتاب « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » للسيدة زينب فواز (١) وهذا المقال المنشور في جريدة الآداب سنة ١٣٠٦ هجرية وعنوانه « لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات »، ويتلخص في « أن ضرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين، وذلك يوجب على الرجل الشرقي أن يعنى عناية بعيدة المدى بتأديب البنات كما يفعل الغربي، ولا ينبغي أن يقصر هذا الشرقي همه على المغالاة في تزيين فتياته بالحلى والجواهر دون أن يعنى بتزيين نفوسهن وعقولهن بالآداب والمعارف، التي هي الجوهر الحقيقي لمعنى الإنسانية وبما أن المرأة أدرى بحكم طبيعتها بنشأة الأطفال فإنها لو تعلمت لعمات في استخدام علمها لإحسان تنشئة البنين وبذلك يتكون جيل صالح نافع للبلاد .

وتجأر التيمورية قائلة : « فيا رجال أوطاننا وملاك شأن زمام شأننا لم تركتموهن سدى وذهلتم عن مزايا التأمل في « مات فعل اليوم ستلقاه غدا » فمن حيث أنكم بخلتم عن أن تمدوهن بزينة الإنسانية الحقيقية ورضية

(١) الدر « المنثور في طبقات ربات الخدور » الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية سنة ١٣١٢ هجرية ص ٣٠٨ .

بتجردهن عن حليها البهية وهي بين أنامل سطوتكم أطوع من قلم، وخضوعهن لسلطتكم أشهر من نار على علم، فعلام ترفعون أكف الخيرة عند الحاجة كالضال المعنى وقد سخرتم بأمرهن وازدريتم باشتراكهن معكم في الأعمال واستحسنتم انفرادكم في كل معنى فانظروا عائد اللوم على من يعود .

فالتيمورية تلحّ في إشراك المرأة مع الرجل في زينة الانسانية من التعلم ومن المعرفة والعلم ، لأنها تدرك بالماثور عن دينها أنه فريضة على كل مسلم ومسلمة كما أن ميولها توجهت بها إلى العلم منذ الصبا المبكر . وليس من اليسير أن نستخرج من النصوص التي وردت في مقالها وفي جملة ما كتبت رأياً يضعها بين القائلات بجوب إشراك المرأة في أعمال الرجال على إطلاقها وعلى قدم المساواة . فالتيمورية إذ ترى فسح المجال للمرأة في العلم والعمل فإنها تحدد هذا المجال بما خص به الخالق كلا من شريكى الحياة في تركيبه وفي مقدرته وفي خصائصه .

الخاتمة :

وبعد ما تقدم ذكره عن شاعرة قانت عنها دمي ، الأدبية الناقدة :
« وكنت كلما دقت نمت التيمورية في ذهني ، وتفردت صورتها أمامي ، إذ لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبها ولو شبيهاً بعيداً ، (١) ووصفتها تلك الأدبية كذلك بأنها « شخصية نسائية غنية ، و « شيقة » تتيح للباحث في سيرتها وآثارها أن يعرض في سياق بحثه « موضوعات جمّة في الأخلاق والأدب والاجتماع » . أجدني الآن وقد تطوف بخيالي صورة لذلك الحى من أحياء القاهرة القديمة المسمى « درب سعادة » ، والتابع « لقسم الدرب الأحمر » . ذلك الحى الذى عفت أو كادت الآن تعفو آثاره من دار « آل تيمور » ، حيث ولدت عائشة التيمورية وترعرعت وعاشت في قصر من تلك القصور التي

(١) أنظر حلبة الطراز مطبعة دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ٣٣ ، ٣٤

كانت ملكاً لأبيها وأمثاله من سراة القوم وعائيتهم ، والتي كان الفن المعارى يبدعها وقتئذ على نسق تقع العين منه على واجهات تزخر منها النقوش العربية الفنية البديعة ، وفيها نوافذ ذات أستار خشبية محلاة بالثقوب والنقور والفتحات الهندسية السداسية الشكل ، وثمة المشربيات المصنوعة من أعواد الخشب المبروم الذى دق صنعه بين خزراته المتلاقية والمتداخلة والمتشابكة لكي تترك من خلال ذلك التشابك والتماسك والتداخل فراغا تنظر من خلاله أولئك المخدرات المستورات خلف تلك النوافذ ، والواقفات خلف تلك المشربيات لكي يبصرن من يكون بخارج الدار دون أن يراهن ، وقد بكل البصر دون أن تلتقى بلوا حظ تلك الحسان اللاتي قد تتنفس صدورهن من غرف واسعة وتبتسم في أفنية فسيحة ، وأحواش سماوية رحبة ، تتعالى منها باسقات من أشجار ونخيل تنتظم حولها ترايع الرياحين ، وأحواض الورد ، وتقاسيم الزهور العطرة الباسمة ، وأحياناً تلتف فيها الكروم على العرائش والسقائف حين تتدلى منها دوالي الحصرم ، أو الأعناب الناضجة الشهية . وقد تتراص كذلك بجوانب حوائط الحوش الرحب أرائك عربية الطراز ، ترتفع على دقيق القوائم ، وتثبت عليها مساند من الخشب المخروط المزين بأشكال رشيقة أصبعية الشكل ، مخنصرة أو مبنصرة ، أو لولبية الصورة . وقد تلتق على الأرائك قطع حمراء صغيرة ، من سجاجيد بلاد الأفغان أو بخارى ، لراحة الجالسين . وقد تنتظم إزاء هذه الأرائك مناخذ مستديرة على سوق نحيلة ، وعليها المنافض لحاجة المدخنين . وقد تنساب بين النباتات الغضة المنورة جداول من ماء رقرق ، أو فواصل من النوافير التي يتهدر من فوهاتها ، أو يخرج من ثقوبها ذلك الماء في خريره أو رنينه ، مما تنشرح له الصدور ، وتطيب به النفوس ، ويسر الناظرين .

والآن هل لى ياترى أن أتخيل مع المتخيلين قصوراً عفت آثارها ، وكان لعائشة أن تعيش فيها آمنة رغدة في حياة شرقية يلابسها الشرف ،

ويحوطها الصون والاحتشام ، ويداخلها الترفع ، لتنشدا مفاخرة فتقول :

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمى على أترابي
وبفكرة وقادة وقرينة نقادة قد كملت آدابي
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر قبلي ذوات الخدر والاحساب

أم هل أتخيل الشاعرة شابة مرحة جريئة ، تهتف للحب ، وتشدو بالغزل
فتقول :

ملك الفؤاد وقد هجر بدر المحاسن مذ ظهر
ما حيلتي في حبه إلا الخضوع لما أمر
واحسرتني في حبه واطول شجوى بالخنفر
يا قلب حسبك ما جرى أحرقت جسمي بالشرر
رام الحبيب لك الضنى لمْ ذا وأنت له مقرر
لمكن تعذيب الهوى ما للشجى عنه مفر

أم أتصور التيمورية حزينة مكتئبة مقرحة الجفون ، بعد أن اختطف
الموت مؤنسها وابتها الوحيدة « توحيدة » ، وهي عروس جميلة ذكية ،
في ريعان الشباب ، فنشدا الأم من ذوب الكبد وعميق الأسى ، قائلة :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور

طافت بشهر الصوم كاسات الردى سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيرت وجنات خد شابها التغيير
فذوت أزهير الحياة بروضها وانقدت منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم في صغر وقد ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطيب ضحى وبشر بالشفاء إن الطيب بطبه مغرور

إلى آخر ما ورد في هذه القصيدة الطويلة المؤثرة المفعمة بمعاني الأسى
والحزن العميق .

أم هل لى ياترى أن أتخيل التيمورية فى شيخوخة صقلتها السنون ،
وجلتها الحكمة ، تقول :

دعانى المشيب إلى خانه فعبجت لأملا وفاض السغب
فولى الشباب كمنفح الصبا وفرّ وقر بوادى الريب
أو تقول :

كم ذا نهىء بالأمال أنفسنا حتى كأن الفقى طول المدى باقى
فالدهر يبسم عن حقد بشأره فينا ويطوى نصالا ضمن اشفاق
فانظر ترى الناس سكرى غفلة عظمت ادارها الدهر واستغنى عن الساقى
ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته وما السعادة إلا حسن أخلاق
أو تقول مخاطبة الشيب ، داعية إياه أن يعظها ، ويذكرها بالموت ،
وما بعده :

أراك بلهتى يا شيب عظى وقل حان الرحيل غداً لعلى
فأول ما يرى جدث مهول تهيل ثراه كف أخ وحمل
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى وهم نسبي وأبنائى وأهلى
وتشتغل البنون بقسم مال أنا بسؤاله فى عظم شغل
فانت لو حدثى ولسكل عاص له رحماك من بعدى وقبلى

أم أتخيل شاعرنا وقد أصابها وهن المرض الأخير ، الذى ألم بها نحو
خمس سنوات ، أضنى منها الجسم وأقعدها عن النشاط ، فلفظت النفس
الأخير من هذه الدنيا فى ٢ مايو سنة ١٩٠٢ ، وورى جسم ساكنة القصور
فى ثرى تلك المقبرة الواقعة فى قرافة الإمام ، مع من سبقها أولحقتها من آل
تيمور أولئك الذين تعزّز بهم دولة العلم والأدب .

والشاعرة التى غردت حيننا من الدهر أطربت ثم سكنت ، وكان شأنها
فى ذلك شأن كل حى يسكن بعد حركة ، ويسكته الموت بعد البيان ، لم تترك
العيش دون أن تظفر منه بفهم دقيق ، وتقدير لقيمه وفلسفة فيه ، ألهمت

سعيها في هذه الدنيا . ولربما يكون من أحق ما يستحق القارىء في نفسه من من آثار هذه الشاعرة وذكرياتها وفلسفتها ، أنها كانت إنساناً بأخص ما في معنى الإنسان . إذ أدركت واجب السلف حيال الخلف ، وواجب الإنسان حيال الإنسان حين يجود السابقون للاحققيهم في التضحية الصادقة التي تمحصها التجارب والسنون . وأنها كانت تدرك وتؤمن بأن قضاء الله وقدره فوق كل تدبير وتقدير للإنسان ، وأن يد الله ومشيتته فوق كل مشيئة ووراء ما يتخذ من الأسباب . وإن الناس وإن اشتركوا في الكرامة البشرية فقد وزعت فيهم مختلف النوازع والمواهب والصفات ، وأن النساء مهما يكن لهن من حقوق ومطالب فإن للرجال عليهن منزلة وسلطان . وأن نزعاتها الإصلاحية في المجتمع أن تؤدي كل فصيلة من الناس ما عليها ، وأن يقدم كل فرد في المجال الحيوي نصيبه من العمل رفقاً لتوجيهات وجدانه الديني ، وأن يسير كل سيره منسجماً مع معالم الهداية الربانية . وظلت التيمورية تحوطها هالة التفاؤل والاستبشار فتقدر أن النصر للخير وأن الشر لا بد له أن يندحر ما ظل الإنسان يقطع مراحل الحياة بوحى من الخلق وهداية من الله .

ومهما يسكن من تصورنا لعائشة في أية سن كان وعلى أية حال ، فقد أبتقت من آثارها منجماً يلتقط الأديب منه تبراً ، ويجد الباحث فيه حكماً تظل لتاريخ الأدب العربي ذخيرة باقية ما بقيت لغة العرب ، وما تأثر شاعر بشعر يردده لسان ، ويمزله وجدان .

وعند الله روح عائشة لتلق رحمة وأجرأ . . .

وردة اليازجي

وفي مفسوح الذكريات الأدبية ، وفي أجوائها المنبسطة ، المتصلة بأيام قريبة أو ديار حبيبة من بلاد العروبة ، قد لا يستطيع الدارسون للشعر أو الباحثون في طليعة النهضة الفكرية والقلبية الحديثة أن يحولوا دون ذاكرتهم وخيالهم ، ودون الاتصال بأطياف هؤلاء الذين كانوا من بواكير النهضة العربية الأدبية سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، وإن الذكرى لتدعو إلى الذكرى .

وهل يذكرني مصر آل تيموردون أن يذكرني ديار الشام آل اليازجي والبستاني ، والكثيرون منهم قد تميزوا في خدمة اللغة والأدب والعلم والثقافة ؟ وهل من سبيل إلى ذكر عائشة التيمورية وهي من الشاعرات النابهات دون أن تطوف بخاطر الباحث ذكرى « وردة اليازجي » . وهي كذلك من الأدبيات الفضليات وذوات الصلة الوثيقة بالشعر والأدب . وعلى ذلك يقتضينا البر بالأدب النسائي أن نشير ، ولو إشارة مقتضبة ، إلى هذه الشاعرة الأدبية وأن نلم بشيء من شعرها ، وفي محيط ما نشم عبيره من التاريخ الأدبي العربي لمنتصف القرن التاسع عشر .

فن تكون « وردة اليازجي » ، أو من تكون بعبارة أخرى « ربة الأدب الباهر والقدر الشريف وردة بنت الفاضل الشيخ ناصيف » على حد تعبير التيمورية حين أهدت إلى الأولى نسخة من كتابها « حلية الطراز » فهدت بذلك بينها وبين اليازجية سيلا إلى التراسل وتبادل ود لم يحشم اثنتيهما سوى الإغداق في المجاملة ، وفي الثناء المتبادل المستطاب ، وفي تنميق الألفاظ المحسنة الطلية ، وفي تواصل الأسجاع السخية ، بين ذات مقام في علية مصر وبين ذات مكانة من أهل لبنان .

لقد قرأت رسالة ألفتها مي عن « وردة اليازجي » ، بعد أن اتخذت منها

محاضرة أقيمت في جمعية الشابات المسيحية في منتصف شهر مايو ١٩٢٤ أي في السنة التي توفيت في مطلعها اليازجية بمدينة الاسكندرية حيث كانت تقيم مع ولدها.

ولقد نشرت في صورة شمسية لليازجية في صدر تلك الرسالة ، وأخذت أتأمل طويلاً في تلك الصورة وكان أول ما لفتني من صور تلك الشبخنة الوقور حدة في النظره تم عن ذكاه ؛ وصرامة في الوجه تشير إلى عزيمة ، واحتشام شرقي يشع ويتجلل في ثوب أسود سابغ فضفاض لم يبد منه إلا وجهاً مستديراً ، وإن أظهره جبينها المستعلي مستطيلاً ، وجهها يزدان بفم رقيق ؛ وأنف قصير دقيق ، وخذ مسنون ، وعينين لامعتين غائرتين وكل ذلك في قوام أقرب إلى القصر منه إلى الطول وأذنى إلى أن يكون خفيفاً وفي إطار من الوقار تزدان به ربة هذه الصورة المحترمة .

ولقد ولدت اليازجية صاحبة الصورة المشار إليها بقريه «كفر شيخ» من قرى الساحل اللباني في عام ١٨٣٨ وكان هذا العام موعدميلاد شاعرة حلبيه هي «مريانا ملاش» ، وبعد ذلك بنحو عامين جاد الزمن في مصر بالتيمورية ولم يدخل بعد ذلك بعدد من أديبات وشاعرات نذكر من بينهن زينب فواز صاحبة «الرسالة الزينية» ، والدر المنشور في طبقات الخدور . وكان مولدها في صيدا سنة ١٨٦٠ . وعاشت بمصر ووصلت رابطة الأدب بينها وبين التيمورية وانفسح المجال في الشام لغير هؤلاء من المشتغلات بالأدب والشعر مثل «وردة الترك» ، و«وردة كبا» ، و«ليبيه صدقه» ، مما يدل على أن العصر كان يتمخض عن طليعة لحركة أدبية نسائية .

ووردة اليازجي هي بنت الشيخ ناصيف اليازجي وهو أديب ، ولغوى كبير ، ومن دعاة الإصلاح ، وأخواها الشيخ ابراهيم والشيخ خليل ، كلاهما عالم باللغة والشعر والأدب . وكذلك كانت بيئة اليازجية تهيء لها فيه قسماً ومكانة لعناية أبيها بها وترويضه لموهبتها . كما كان الحال في كذلك «للتيمورية» . فتمت وجه للشبه من هذه الناحية بين الاثنتين واليازجية التي نشأت بين أهل

الأدب تزوجت وهى فى نحو الثامنة والعشرين من شريك فى الحياة ذى قسط من الثقافة وفير ، ومارست فى شبابها مهنة التدريس وعينت بنظم الشعر وأخرجت طبعة أولى لديوانها حديقه الورد سنة ١٨٦٧ فى بيروت ، فى مستهل زواجها ، وأعيد طبع الديوان للمرة الثالثة فى مصر سنة ١٩١٤ . وقد انتقلت اليازجىة من لبنان فى سنة ١٨٩٩ إلى مصر لتعيش فى الاسكندرية مع ولدها الطبيب سليم شمعون وتوفيت أوائل سنة ١٩٥٤ حيث دفنت بهذه المدينة وقد بلغت من العمر نحو السابعة والثمانين .

ولست أريد فى هذا المقام الذى يوحى بالإيجاز أن أحلل شعر «وردة» ، على أننى أحيل من يريد ذلك إلى رسالة «حى» ، التى طبعت بمطبعة البلاغ بالقاهرة سنة ١٩٢٤ . وحسى أن أشير إلى ما كان بين اليازجىة وبين التيمورية من مساجلات شعرية ظريفة يصح أن نذكر منها لوردة الأبيات التالية :

يانسمة من أرض وادى النيل	وردت فأطفت بالسلام غليل
نفحت بلبنان ففاح أريجها	سحراً بأشهى من نسيم أصيل
عز اللقاء على المشوق وللمنى	عندى حديث ليس بالمملول
وعلام لأهوى علاك وما الذى	بهوى فىك ترى يقول عدولى ؟
أنت الفريدة فى النساء ، فكيف لا	أهوى حبيباً بات دون مثيل
علمتى قول النسيب ، وهجت فى	ماهاج حبُّ بثنية بجميل
شوقى لمجلسك الكريم ، وإنه	شوق الطروب إلى كؤوس شمول

ثم تشكر على ما فى الرسالة من ثناء شعرى :

ولقد أفضت على منه لآلئنا	حسدت بها جدى كرائم جليل
من كل قافية كأبكار الدمى	ترنو إلى بناظر مكحول
وافت تحيىنى فأحيت مهجة	طابت بلثم المرشف المعسول
بذلت لى الود الذى استمنحته	ففتفت يا بشرى بأكرم رسول

وفى قصيدة أخرى على كتاب « نتائج الأحوال » :

فتاة زينت جيد المعالي بدر من حلى الآداب رطب
أهيم لها على بُعد ، وماذا على الأقدار لو سمحت بقرب
على مصر السلام وساكنيها وما في مصر من ماء وترب
على ربع به قلبي مقم ومن لي أن أقيم مكان قلبي

* * *

رأيت نتائج الأحوال فيه ثملة تلوح بغير نقب
لتيمورية العصر المحلى بما نسجت يداها كل حقب
أديبة معشر شرفت أصولا وسادت بين أقلام وكتب
ولها كذلك أبيات رقيقة في التَّحَنُّان والتذكار والشوق إلى وطنها
لبنان فيها :

ياربني لبنان حيتاك الحيا وسقى تربك هتان الغمام
ياربوع الأنس يادار الصفا ياجنان الخلد ياأهنا مقام
حبذا لبنان مع غاباته حبذا تلك الصحارى والآكام

* * *

وخرير الماء في تلك الربى كئنين من محبّ مستهام
حبذا منه ربيع قد حكى معرض الأزهار يزهب بابتسام

* * *

أنت لي ياخير أرض جنّة جمعت كل سرور وسلام
حبذا أيام أنس فيك يا وطني المحبوب زالت كالمنام
طالما هيّج لي تذكرها شجنا يشعل في قلبي ضرام
أمّا أشعار اليازجية في الرثاء فهي من أطيّب الشعر وأصدقّه ، ومن هذه
الناحية قد يجمع الحزن بينها وبين التيمورية في صدق العاطفة . ولقد اتسع
مجال الرثاء لليازجية فأبنت أباهها وزوجها وأولادها وأخواتها الستة
وصديقات لها .

ومن قولها في رثاء ولدها :

أرى نار قلبي كل يوم وليلة تزيد لهيباً كلما زدت في الشكوى
لفقد أمني بل حبيبي ومهجتي وريحان روحي من غدوت به نشوى

لقد كان في عيني أبهى من الدمى وأعذب في قلبي من المن والسلوى
 أديب جميل الخلق والخلق طاهر شمائل صاف قلبه طيب النجوى
 كصدر النقا كالغنصل كالصن في النقا كزهر الربى كالبدركالرشاء الاحوى
 إلى آخر ما هنالك .

ومن قولها في والدها :

تكاثرت الأحزان في كبدى الحرى وزادت دموع البين في عيني الشكرى
 وجارت على ضعفى الليالى وأوقدت بطي فؤادى من نوائبها جمرا

◦ ◦ ◦

فقدت أبى مالى وللعيش بعده فوق من عيش غدوت به أخرى
 حياة الحزين القلب موت ، وموته حياة يلاقى عندها الراحة الكبرى
 أيا علم الشرق المبجل ، والذي أقرت له بالفضل كل الورى طرا

◦ ◦ ◦

ويا من بمسراه تيمت العلى كما يتمّ التسايف والنظم والنثرا
 لقد ملت ياركن العلوم فأوشكت لفرط الآسى أوراقه تذهب الخبرا
 وقد غصت من خمر المنون بسكرة فيها أنالم أبرح بخمر الآسى سكرى
 وفي رثاء أخيها خليل :

ألا أيها القلب الحزين ، إلى متى تقاسى خطوب الدهر منقضة تترى؟
 تراكت الأرزاء من كل جانب عليك ، فلا يوم يمر بلا ذكرى
 فهلا براك الله من جنب صخرة تمر عليك الحادثات فلا تفرى
 سلام على وجه الخليل ، وناره بطي الحشا قد أفنت القلب والصدرا

◦ ◦ ◦

على وجهه الضاحى الوسيم الذى له بقلبي رسم لا يفارقه العمرا
 وقالت في رثاء زوجها :

كلسا كاد يضمد الجرح ترمينى م بمرح مفتت الأكباد

نكبة عند نكبة عند أخرى كاتصال الأسباب بالأوتاد
وأبي الدهر أن يمن بنظم غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتي المنون إنسان عيني ورفيقي وعمدتي وعمادي
يا أليبي في شدتي ورخائي ونصيري في النائبات الشداد
كيف غادرتني بقلب جريح يتلظى في مثل جمر القتاد؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عني وغدا القلب منك مثل الجماد؟

وتلك الشاعرة التي توالى عليها الأحزان ، واقتبسنا من شعرها الآيات
المتقدمة لها نثر تناثر في الصحف والمجلات ، وتظهر فيه نزعاتها الاجتماعية التي
تتلخص في نقد التفرنج ، وفي تجريح من يستهن بلغتهن من بنات قومها ،
ومن يتخذن من المدنية ظواهرها من خدعة الأزياء ومستهتر المسالك ،
والتماهي في زيف الحريات على حساب الرزانة والاحتشام . ووفقاً لتلك
النزعات نرى أن اليازجية تشترك مع التيمورية وكذلك مع ملك حفنى
ناصر في الاعتراف بالقومية والوطنية والشرقية . وربما كانت اليازجية قدوة
لمى ورائدة لها كذلك في الاعتراف بالنزعة الشرقية وباللغة العربية .

ولا يسعنى في مقام الذكريات عن الحركة النسائية القلبية أن أغفل ذكر
المجلات التي عنت بالشؤون العائلية والاجتماعية وكانت صاحباتها ومديراتها
من النساء . فمن سنة ١٨٩٢ إلى وقتنا هذا ظهرت أكثر من أربعين مجلة بين
القاهرة والأسكندرية ونيويورك ودمشق وسان باولو ، وبيروت وزحلة
وبغداد وحلب وطرابلس وغيرها من البلاد . ومن الوفاء لمن قضين نحبهن
أن أشير إلى المرحومات لبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق التي عرفتها
وعرفت فيها سيدهة تجمع بين الأدب والحكمة وحسن المحاضرة ، والمرحومة
بلسم عبد الملك صاحبة مجلة المرأة المصرية وكانت من المجتهدات الدائبات .
ومن أوائل من أنشأت المجلات هند نوفل ولويزه جبالين والكستندر أفرينو
صاحبة مجلة أنيس الجليس رحمة الله عليهن جميعاً ، على أنني وإن أشرت إلى
رقم قياسى من مجلات لسيدات وآنسات فإنى أحسب أن مظاهر الامتياز

الحق ومظاهر القيم الفكرية الواضحة لم تكن من نصيب هذه المجموعة الصحفية ولا صاحباتها إلا في القليل وإن حق الشكر للجميع على كل حال .
ومن أراد الاستقصاء في تاريخ المجلات النسائية فليرجع إلى كتاب « الاتجاهات الأدبية في العالم الحديث » ، (١) لمؤلفه الأستاذ أنيس الخورى المقدسى أستاذ الأدب العربى فى جامعة بيروت الأمريكية .
وبعدما تقدم ذكره فى النهضة الأدبية العربية النسائية فلينتقل بنا الحديث إلى باحثة البادية « ملك حفنى ناصف » .

حياة الراحلة « باهية البارزة »

وبعد فلينتقل بنا الحديث إلى ذكريات رائدة أخرى للأدب المعاصر ، أوجت إلى « مى » صحائف من خير ما حفظه اليسان من أدب راق رقيق ، ومن أبقى ما سجله القلم من نقد بارع دقيق .

وقد عرفت « مى » نفسها شخص تلك الراحلة كما عرفت هان آثارها الفكرية . ولقد أتاحت لى الظروف أن أعرف وأرى من المتصلين عن قرب بتلك الراحلة كوالدها وإخوتها وزوجها وأما ، دون أن تواتبنى الفرص لأراها حتى أصورها تصويرا يتفق مع ماتوجه الرؤية وتلهمه المعاينة عن كسب . لسكنى استعين على ذلك بما كتبت « مى » وبما تلمسته من مصادر أخرى ، واستنتجته ، لسكى أشخص للعيون صورة مادية « لملك حفنى ناصف » التى عرفت بعد « بياحثة البادية » ، وذلك بالقدر الذى يستطيع القلم أن يقرب به لخيال القارىء . شكلا ماديا لسكاتبه مصلحة ، غيبها الثرى من نحو ستة وثلاثين عاما .

فلنتخيل إذن أننا فى سنة ١٩١٤ وأن « ملك » فى نحو الثامنة والعشرين من عمرها وأنها فى أقرب صورة لازمتها على وجه التقريب ، حتى سارت وتخطرت بها إلى الموت بعد ذلك بنحو سنوات أربع .

(١) انظر الجزء الثانى من الكتاب المذكور . منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأمريكية سنة ١٩٥٣ .

تخفى آثارها وبقاياها فى نفوس الآملين بمن تذهب بهم الأحلام إلى مرتفعات قاصية ، ولكن دون بلوغها عقبات تلو عقبات تجشم من يريد الاقتحام .

على أنى عندما أتخيل ، فى بعض الأحيان ، أن على ملامح الباحثة سحبا من الاهتمام والهموم ، فقد استيحي لى نفسى ولحاجة اللى درس أن أرجع إلى بعض معلومات زودنى بها صديق الألب «مجد اللىن حفى ناصف» شقى الباحثة ، اللى لا ىنى أن لها علىه ىدا طولى ، فى أن تجب له الفن والعلم والألب وهى شابة تقوم بتدبىر الشئون للوكر العائلى ، والقىام على أمر أخوتها بىل أمها اللى حال مرضها دون القىام بكل شئون الإىارة العائلىة والحاجات المنزلىة . علمت من مجد اللىن أن أبا الباحثة ، وهى كبرى أخوتها على الاطلاق ، قد أسماها «ملك» ىمنا باسم من زفت عروسا فى يوم مولىد الباحثة إلى المرحوم (الأمىر) حسین كامل وكانت فىما بعد «السلطانة ملك» ، وأنه نظراً لتثقل الوالى فى أرىاف مصر طوعا لمطالب عمله فى القضاء الأهلى فقد ألحق «الباحثة» بالمدرسة السنىة وفى قسمها اللىلى ، فى وقت كانت أكثر من ىلتحقن بالمىارس من بنات الفقراء ، وكان تعلم البنات حىنذاك لا ىنظر إليه بعىن الرضى . وإن فى إقدام أبىها على ذلك ما ىىل على شىاعة ألبىة ، وعلى رغبته فى أن ىكون قىوة لمن هم فى طبقتهم من الوجها ، وما ىبىن صىق فراسىتهو بعد نظره فى إىداد فئاته لمكان ممتاز بىن من ىذكرون من النابهىن والنابهات .

وحىن وصلت الباحثة فى دراسىها إلى مرحلة السنة الرابطة ، رأى وزارة التعلیم أن تجرب تكافؤ الفرص بىن البنىن والبنات فى الامىحانات العامة ، وأتاحت للىلىذات أن ىتقدمن لامىحان الشهادة الابدائىة ، وكانت «الباحثة» أوى الناجحات فى سنة ١٩٠٠ . وأنشأت الوزارة بالمدرسة السنىة قسما لإىداد المعلمات ، مىاه خمس سنوات ، تنال الطالبات فىها قسطاً وافراً من المواء العلمىة إلى جانب ما ىنلن من فنون التربىة . والىتقت «ملك» بهذا القسم . وظهر من تفوقها ما حىدا بالوزارة إلى الالىفاع بهذا التفوق ، فعىنت

لتكون معلمة ممتازة لمن رافقتهن زميلة حبيبة في التلمذة وفي أمسها القريب .
 وأقبلت الفتاة المعلمة على عملها إقبالا شديداً وهامت بمهنة التعليم هيأماً .
 وشغفت بالدعاية لتعليم البنات فكانت تطوف بأصدقاء أسرتها لتقنعهم
 بإرسال بناتهن إلى المدارس ، وكانت تفلح في إقناع من تتصل بهم وتحملهم
 على ما تريد .

وكذلك بدأ شغفها بخدمة المرأة ، وأخذ ذلك الشغف يوحى إلى نفسها
 النشيطة الذكية بمقترحات إصلاحية خصبة ، تلازم من طبعوا على دعوة
 إصلاحية منذ النشأة وسن الشباب . وتلوح نزعاتها الإصلاحية والأدبية
 المتأصلة في قصيدة نشرت لها بجريدة المؤيد في ذلك الحين ، وكانت في نحو
 الثالثة عشر من عمرها ، ومطلع هذه القصيدة :

بشرى لمصر فقد نالت أمانها وأنجح الله بالحسنى مساعيها
 وقد يسترسل الأخ مجد الدين في حديثه وذكرياته معتمداً على هدى
 ذاكرة ، نرجو ألا تشط ولا تنحرف ولا تخون ، فيقول إن الباحثة نشرت
 في الجريدة بعد زواجها اقتراحاً تدعو فيه لبناء مقبرة تخليدية وتذكارية
 للعظماء العاملين في سبيل الله والصالح العام . وحدا هذا الاقتراح بالمرحوم
 رشيد رضا إلى أن يذهب فينسب هذا المقال المتضمن للاقتراح المذكور
 إلى قلم «باحث بالحاضرة» ولعل الشيخ رشيد يقصد بذلك إلى العلامة الأديب
 حفنى ناصف أبا الباحثة إذ استكثر مثل هذا التفكير على فتاته الناشئة .

وقد تطوف بخاطر «مجد الدين» خيالات غائمة ، إذ يحدّثنا عن شقيقته
 الحبيبة في ذكريات من حياتها الزوجية ، فيسترسل في القول ذاكرة أن
 أسرته تعرفت بزواج شقيقته وبأسرته ، وتمت الخطوبة ومظاهر الزواج في نحو
 شهر من الزمان ، مع أن الباحثة المصلحة والأب الحكيم والأخ اللبق ،
 يعتقدون في أعماق نفوسهم أن قدسية الزواج وما لروابطه من الآثار كانت

أدعى للكثير من الريث الواجب والاناة الملائمة ، ولكن أثراً قويا لصداقة متينة ربطت بين حفى العلامة الأديب وعبد الكريم سلمان الفقيه ، مالت بحفنى ، وهو القاضى المحنك البصير بأمور الحياة ومالت بأفراد أسرته جميعا فتنكبوا طريق التأنى ونظروا فى الأمور بنظر الشيخ سلمان وسمعوا بأذنه ، وتوقع الجميع أن هذا الزواج سيكون مفهما بالسعادة والهناء لتوفر الصفات الحسنة المنشودة من صحة وجمال وحسب ونسب وشهامة وكرم وذكاء وعلم بالأدب وبالواجبات وأساليب اللياقات ، وما إلى ذلك من محاسن حرى بها عند توهمها أن تنال من قلب فتاة محجبة وحساسة رقيقة ، وهى أنثى تنزع بطبيعة المرأة إلى زوجية راقية تؤدى فيها إلى هذه الدنيا ثمرات من الذرارى الصالحة تملأ البيت وتولى الأمومة برا وهناء وغبطة ، وتساعد مربية تود بحكم ميولها ومهنتها لو وجدت من الأطفال ومن حسن ورائتهم عجيبة نقية تجعل منها ما يرتجى للحياة الباسمة ويروق للإنسانية السامية .

وقد يشير «مجد الدين» فى حديثه ، بخفة ولباقة ، إلى أنه قد أهمل ، فى بداية الخطبة لباحثة البادية ، أمر كان فى إهماله وقلة العناية بشأنه صدمة للفتاة بعد أن ظهر وتجلى على حقيقته . ذلك أن عبد الستار الباسل سبق أن ضم إليه زوجة أخرى من أهله وعشيرته قبل ملكه ، وأنه وإن أباح لنفسه وفقهاً للشرع تطليقها وفراقها ، فهو بحكم العادات وتقاليد المرومة كان لا يستوجب على نفسه أن يقصدها عن جوارحه وأن يعيدها عن رعايته وعطفه . وكان له منها إبنة تستحق منه الرعاية بل ومن كل من يمت إلى أبيها بصلة ، ويرى الأب لزاماً عليه أن يضم فتاته تحت جناحه وفى البيت الذى تسكنه الباحثة ، لىكى تجد هذه وتكسد فى رعايتها للفتاة ، وفضلا عن ذلك قد قست الأقدار على عبد الستار ، فأصابه فى رحلاته وأسفاره ما قد يصيب المرء من أمراض وعلل لاترطق بسلامة الشباب وتجر إلى العقم . وكان كل ذلك بعد أن رزق ببنيته التى لم تكن من فصيلته فى الرجولة الأثيرة عند كافة الناس وبخاصة عند البدو والعرب . فكان فى مجموع تلك الأمور والأحوال

ما يمهّد للكآبة والأسى ، ولما يمر بالحياة من سحب وغيوم ؟؟؟ إن «ملكاً» التي لم تتمتع من الزواج بخير زينته من البنين والخلف لعلها أبتت ملابس العرس في زوايا النسيان ولعلها كذلك قد عطلت ما تزهو به الفتاة من حلّ وحلل . ترى أكان هذا لتبسّط في طبعها أم لنزعة أمومة جريئة وأمل في الزواج لم يبلغ نتأجه ومداه ؟؟؟ .

وهنا قد يتصور مجد الدين رقة أخته وشفقتها وألمها وطيبتها وكبرياءها التي توحى بالصبر وإيثار مظاهر الرضى خشية على سمعة المتعلّبات من أن يرمين بالفشل في الزواج وحياة الزوجية . ولعل آثار ذلك كله تجتمع فتسيء سحبا من الاكتئاب تمر مروراً على جبين الباحثة ، برغم المقاومة وتكلف الرضى . ثم أن هذه الفتاة الكاتبة المتذوقة للسان العرب وأدب العرب هي «ملك حفتى ناصف» أفعبج أن تأتي أمور الزواج على عجل وأن يعقد للأديبة العربية على وجيه قبيلة الرماح عبد الستار الباسل في أيام قليلة معدودات . ولكل جديد فرحة وقد تنقضى فرحة الجديد بانقضاء الفترة الأولى . وكل شيء إلى زوال ؟؟

وعبد الستار الباسل الذي عرفته وخالطته ومات من بضع سنين ، قد يتصف ببعض من المزاي ومن الخلال التي ترفعه في نظر الناس . ولكن لعل في الناس من الصفات ما لا يقنع الراقين الحساسين برغم ما فيهم من المزاي والخلال ومن ذا الذي ترضى بحياها كلها ؟ . ولعل ظروفاً ألمت بعبد الستار واقتضتها شئون يبيته هيأت لما لا ترحب به حساسية المرأة الذكية . ولكن «عسى أن تسكرهوا شيئاً وهو خير لكم» كما جاء في الكتاب الكريم ، ورب ضارة نافعة على نحو ما يقال . فهذا الألم الذي ألم «بملك» قد يكون مصدراً فياضاً من التأثير في كتابة الباحثة ، وهي الكتابة التي تبرز فيها العاطفة والحساسية والصراحة بالتفكير امتزاجاً دقيقاً تتوافق أجزاءه لتصبح لنا منه تلك الآثار الفكرية لباحثة البادية في مقالاتها وفي محاضراتها ، وليكون لنا منه أسلوب في الكتابة تهتز في أنحائه وفي خفاياه معاني الألم والأمل والإيمان والإصلاح والمكافحة للرأى وللروح القومية والدينية .

أسلوب الباحثة :

ولكى يتصور القارئ أسلوب الباحثة الكتبانى فيما تناولته من موضوعات الحياة ، ويتبينه على خير وجه ، يحسن أن أضع أمام نظره وذوقه بعض النصوص من رسائلها وبما دونت ، وبعد ذلك أتحدث قليلا فى معنى الأسلوب ، ثم أنتقل بعد ذلك إلى النزعات التفكيرية والإصلاحية التى شغلت قلم الباحثة وهمتها فى حين مكنت للقارئ أن يتذوقوا من ثمرات القلم الواضح المنسجم فى تعبيره وفى تسلسله وسيره وخطواته المتساوية الموفقة فمن نحو أربعين عاما كتبت « حى » الى « باحثة البادية » وقبل وفاة هذه الأخيرة بنحو ثلاث سنوات مايل (١) :

إلى باحثة البادية

ترنمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنوانا لهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت فى الثناء على فضلك . غير أنى عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فأنحيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لى أنى أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة . ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم لكن سرها ما زال مترقباً بدأ تلبسه ، مستعداً لمناجاة نفس تلبسه . سنوات ثلاث ، فيها مشيت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجمجم ، منشدة أهانج النصر الكاذب وتهايل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ، ودماء حياتها تجرى أنهارا فى سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد وصددمات السياسة والاقتصاد والاطاع

(١) نشرت هذه الرسالة التى سبقت التعارف بين الكتانين وأدت إليه يومئذ فى الجريدة والمحروسة .

المتزايدة . فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيفة ياهمالها وتهاونها وقد جاش لذلك كل ما في صدر الإسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على صالح بنى عثمان .

كل ذلك ومصر ، مصر لسكآبتها وانعطافها واندفاعها . كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى . صخور التقاليد تدمى أقدامنا الجديدة ، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للس أشياء نظنها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة والسراب الجميل اللامع في حدود المستقبل غير المحدود يستدعيننا أمراً كأنه نظرة عين فتانة ، فنجري في الصحراء ولا ندرى إلى أين المصير .

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً وعائلتنا لاتزال على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلا ، وعواطفنا ما برحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعى أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرحيم . بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا أئثم بنانى على غير هدى ولم يكن ذلك إلا إجلالا لصفحات قلبها ، وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها فيامن ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها أيتها الباحثة لما تصمتين .

تتوالى الأيام ونحن فى ضلال ميين . الرجل يجاهد فى حرب الاقتصاد الدائمة . الرجل تائه فى مهامه واشغاله فإذا كتب بحث فى العموميات ، وإذا أجال قلبه فى الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النساقى لأنه يكتب بفكره ، بأنايته ، بقساوته . والمرأة تحيا بقلها ، بعواطفها بحبها . علانا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها . والمرأة بعلة جنسها أدرى ففى تستطيع معالجته . ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصور لهن الخيال المخيم بظلاله على منابت العواطف المختصة . هذا

اعتراف ساذج صادق . الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصوّرن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم يرفها من الاستفهام شيئاً .

لكن الزوجة والام التي أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة — تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامى ، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفى الشخصية المتألّمة ، شخصية المرأة وشخصية الرجل .

فيا سيدتى :

لدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها ، وتلتهب شغفاً بما لا تعرف ماهيته ، فهلينا أنت التي كنت فتاة قبل أن تكونى أما (١) كيف نرشدّها وإلى أين نوجهها .

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مهمة ورغبات حادة ، فأرشدينا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه ، وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والخنان .

قولى يا سيدتى تكلمى :

ضحى يدك البارة إلى الأيدى التي تحاول رفع هذا الجيل من هوة الخيرة والتردد . ساعدى في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك قد يفعل فى النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار . لا يهمنا أن تخفى تلك اليد النحيقة وراء جدران خدرك وأن تحببى هيتك الشرقية وراء نقابك الشعري ، مادمنا نسمع صوتك فى صرير قلبك ونعرف منك روحك العالية . فهينئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك ، وهينئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم فى قالب حياتك .

مى

(١) لم تكن الباحثة أما ولم تكن « مى » عالمة بذلك يوم وجهت هذه التحية إليها .

وكتبت باحثة البادية إلى «مى» ، ردأ على الرسالة السابقة ما يلي (١)
إلى الأناسة «مى» .

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة في الجريدة وكنت إذ ذاك بين مغالب الموت، فلم يكن في وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتي لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاء جميلاً لي في مرضى الطويل المؤلم وبلسما ملطفاً لجراحى البالغة التي قلت إنك عثرت عليها . آلامى أيتها السيدة شديدة ولكنى أنقلها بتؤدة كأتى أجر أحمال الحديد فهل تدرين يا سيدتى ما هو لى . ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، ولا أنا بمن تأسره زخارف هذه الحياة الدنيا . ويستولى عليهم غرورها فأطمع فى أكثر مما أنا فيه ، وليس لى حال سبى . أشتكىه ولكن لى قلباً يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها . وهذا علة شقائى ومبعث آلامى . إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد .

وما لى أحمل نفسى أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا العالم ولكنى كنت عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد ، وإن كان تنفيذه شاقاً ومخوفاً بالصعوبات ويكاد الأساس يسد طريق إليه .

كنت اعتزلت الكتابة لا لئضوب مادتها عندى ، ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل . ولكنى كنت مللت المناذاة بإصلاح المرأة وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلبات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وماحركتهم التى ملاؤا بها القطر صراخاً لإعنوان نهضة كاذبة .

تسألينى ياسيدتى أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذى يحسن بالفتاة نهجه وإنها لحال توجب الحيرة

(١) نشرت هذه الرسالة فى الجريدة والمحرسة .

ولا ندرى أى الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التى نقصد إليها .
 كنا نيرمى إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة ،
 وأما نافعة أبناءها ووطنها . ولكن لكل مناد بالاصلاح وجهة هو مولياها ،
 فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب وهو لاء
 قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ، ونسوا حكمة التأنى والتحفظ عند
 إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف ، إلى طور لم يعهد من قبل فتكتنفه
 المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التى تكاد تغشى الأبصار .

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينبغى العلم ، وإن إطلاق
 الحرية للمرأة أخيراً كان سبباً لفسادها ، وان اطراد تعليم المرأة وتثقيفها
 سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها فى المستقبل كما خرجت
 أختها الغربية الآن . فأى الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ .

إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهى فينا
 حتى أصبحنا ولا رأى لنا فى أنفسنا . فإذا قال لنا اختبئ حتى تدفن بالحياة
 صوتاً لكن وتديلاً ، كما يقول المتنبي فى رثاء أخت سيف الدولة :

على المدفون قبل التراب صوتاً

وكقوله فى أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضاً :

وما رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب
 وهل سمعت سلاماً لى ألم بها فقد أطلت وما سلمت عن كذب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا ، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا
 أسفرونا ، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية فى كل ما يطلب منا ولاجلنا ،
 أم هو يريد بنا شرأ ؟ لا شك أنه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قبل ،
 ولا شك أنه يخطئ ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن .

نحن لا نأنى أن نتبع رأى العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولسكننا لا يمكننا
 كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء

المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أورشدها، ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لانخاف من الهوام ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره، وإلا فكل منا حر يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك، المثنية على أدبك الجم، وعلبك الغزير.

بأهنة البادية

ثم كتبت «مى» بعد ذلك خطاباً إلى باحثة البادية على صفحة جريدة المحروسة جاء فيه :-

« ليس أعز لدينا من لطفك إلا حزمك وصراحتك وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معنك. وإنى لأقبض على شجاعتى بيدي لأعترف بأنى أحب - استغفر الله واستغفرك ياسيدى . . آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الانسانية وضلالها وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً إلى قلبك، وأن يبقى ذلك القلب كريماً لينا ينجرح لجرح الغريب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أياً كان. بالاختصار عفوك . . . عفوك . . . أتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة. أجل، هو النار التى تطهر، النار التى تحيي، النار التى تلين، النار التى تدفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعانى السليمة والميول الرفيعة والرغبات الكريمة، والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ والنهوض بالاجتماع نهضة تهز لها القلوب حمية وطرباً .

أتمنى لك ذلك، ولولاه لما وجدنا فى كتاباتك تلك الأنة العميقة التى تنبه الفكر وتلس العاطفة فى آن واحد، لا أنكر أن أنا نيقى تتكلم الآن. غير أنى قلت ما قلت مسرعة هامسة. فابتسمى له إن شئت وإلا فلا تصغى ياسيدتى ولا تسمعى، بل اسألينى عما أهمس لأجيب، أنى أحمد الله على ابلائك

وأنى أسأله أن يديمك سالمة . وما أغلى سلامتك لدينا . . . الخ . . .
وردت باحثة البادية على ماجاه فى هذا الخطاب تقول :

عزيزتى مى

لا تستغرنى ياسيدتى إني دعوتك « بيا عزيزتى » وسأدعوك باسمك على
غير معرفة شخصية سابقة . أقول شخصية واحدها لأنى أحبت كتابتك
الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة فى الفضاء وكأنها
تبحث عن مستقر لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه .

وتعرفت بك بالأمس بل وارتبطت بك من دعائك على بالعذاب
المعنوى كأتى أنا المعنوية بقول جميل :

وأول ماقاد المودة بيننا بوادى بغيض يابئين سباب
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لسكل مقال يابئين جواب

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك على سبابا وحاشا أن يكون له جواب
عندى من مثله فأتى لم أقبله إلا بالضحك والحلم الذى ركب فى عزيزتى .

لماذا « يامى » تدعين على بالعذاب المعنوى ؟ ألا إنما العذاب البدنى أخف
منه وطأة وأعنى أثراً . على أنى جربت كليهما وذقت الأمرين منهما معا .
تقولين « لأنه النار المقدسة » .

نعم لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون
بعيداً جداً بينى وبين هذا العالم غير القديس .

تقولين « إنه النار التى تطهر » حقيقة أنه تلقى وجدانى بالتطهير منذ أن
كان لى وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شىء ويتأثر لأقل شىء وهذا فيه
من الضنى والخطر ما فيه .

تقررين أنه النار التى تحبى « نعم يامى » . إنه أحيا روحى حتى أحرقتها
لأنه كان كصباح سيال كهربائى شديد لكن فتيلته ضعيفة لا تحمل .

هو « النار » التي تلين هذا ما أبديت . ولكن ألا تعتقد أن اللين قد يؤذى ولا يفيد خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفيل الحديد إلا الحديد . إنه الآنني حتى صيرني ماء . وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة يصبونه فينصب ويريقونه فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنية معوجة ملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصتيعها فيتحول برداً وآونة تحمي عليها براكينها فيخرج ملتهباً وحيناً تحبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعبه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو برى . ثم أليس هو رمز الطاعة والامثال يضعون فيه سكرًا فيحلو وبذبيون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بالجميل وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها . إنه مثل يامى يذهب ضياعاً .

وختمت حسن تعليك لعذابي بقولك « إنه النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعاني » . . . نعم يامى إني الآن على أجنحة اللهب ولسكني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني فهل ياترى ستهجنني السماء ؟ إني أشك في ذلك . إني أول ما حفظت من الشعر حفظت المراني وأولها رثاء الأندلس . وكنت في حدائتي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بروحه العالية وبنفسه الكبيرة وأظنه هو الذي دعاني في ذلك وسم آرائني رحمه الله إني ألد كثيراً بهذه العدوى .

وقد قال لي أخى مرة بعد حديث كنت أشتكى له فيه الدنيا وأهلها وأقول « لعل الله يجزيني على هذا في آخرتي بالجنة » قال متهاكماً « أنا واثق يا شقيقتي أن الجنة أيضاً لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شيء » ، أستغفر الله .

إنك يامى خالفت المألوف في التمنيات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيدى الميلاد ورأس السنة المسيحيين) قلت

« ابتسى له ، أى لدعائك » إن شئت وإلا فلا تصغى ولا تسمعى واسألينى
 عما أهمس به لأجيبك أنى أحمد الله على إبلاك وإنى أسأله أن يديك سالمة ،
 الخ . . .

لا يعزيتنى إنى أكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك أصغيت
 وسمعت وابتسمت (حسب أمرى) وتسرفنى جدا صراحتك حتى فى الدعاء على .
 أتدرين يا مى أن ذلك اليوم الذى تمنيت لى فيه العذاب كان فيه عيد
 ميلادى أيضاً وإنى تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامى الجديد بالضحك
 من تمنيتك وبصداقتى لك تبعاً لذلك التمنى المعكوس . أشكر لك يعزيتنى
 أمانيتك لى ورجباتك الصادقة وأقر لك أنى واقعة فيما رجوت لى والحمد لله
 ولكن يا «مى» لا أتمنى المزيد . إنه عذاب طاهر لا يتعدى الميل إلى السكون
 والشعور بشيء من الحزن الشعرى الجميل . ولسكنه والله المنة والشكر لا تخامره
 شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم وأخشى أن يزيد ضرام النار التى
 طلبتها لى فأحترق «يامى» ، أو أصل إلى ذلك الحد الذى لأريده لنفسى ولا
 أظنك تريدته لى .

الساعة المفقودة (١)

عجيب ياسيدتى إنك تريدن عذابى وأنا أريد هناعك أتدرين ماذا سألقىه
 عليك فيفرحك؟؟ إنى وجدت ساعتك المفقودة والنقطتها . رأيتك ترتينها
 بحمرة فحشت لأمسح دموعك لأنى أحب دائماً أن أمسح دموعه المحزون .
 تعالى إلى لتأخذها وتستغفريها من وصفك إياها بالعدو وبعدم الإحساس
 فانها أحست بشوقى لرؤيتك فأنت تقدمه لمحبيك ولتعارفنا إنها بثت إلى
 ماكنت تشكينه إليها من العواطف والآلام . عثرت على وعثرت عليها لنكنى
 قلبك شر العناء من الوحدة ولتؤكد لك إنك وجدت «الصديقة التى لاتخون»

(١) كانت مى قد فقدت أو تخيلت أنها فقدت ساعتها وكتبت فى ذلك فصلاطياً أئبته فى
 كتابها «ظلمات وأشعة» . دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢ .

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل :

عجيب جداً ياسيدتى أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذى يسمى «الرجل» . إني أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكنى أظنه — وبعض الظن إثم — أنا نياً قبل كل شيء . ورأيت أن أنا نيتيه وحدها هى أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يحبها . ويموت من أجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها وهو فى كل ذلك واسع الحيلة قوى الحججة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب أما المرأة فهى دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة وإذا كرهته كرهته علانية ولم يكن لذلك البغض من دواء . عرف ذلك أبو الطيب فقال :

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
هى صادقة مخلصة دائماً حتى وهى خاطئة . هى تحب لتفنى فى الحب ولكن
الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب هى تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن
ولكن الرجل لا يحزن إلا ليجت عن تعزية وسلوان .
المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . إنها تعلم أن حريرها الذى تقدمه
للبلأ زينة وحلية سيقبلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه .
أما الرجل فهو كالنحلة ينقل من زهرة لزهرة متروخاً وقد يطيل المكث
على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار
حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشياً . وهى تقدم للناس عسلاً منه
شفاء لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملها لغنائها وسكنها قبل كل شيء .
ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوى ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً فى
حسابه أن ما يزيد فى قوتنا يضعف من قوته هو . لعله ظن أن مملكتنا واحدة
ولذلك نظر إلينا نظرة الداعيات الثائرات . وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد
من القوة فى مملكته ونرجو منه أن يفك عنا الخناق فى مملكتنا المستقلة

التي تشد أزره ولا تفكر في إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة . إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذي يريد أن يخدمه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضربه . إننا منه وهو منا فليضرب نفساً وليقر عيناً وليعطينا ما نشاء . وإنما نحن يا مضيقتنا في بعض شئون مملكته حتى ظننا نريد منا زعته فيها . لنترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا . وأقول لك همساً « إننا لا ننتفع بدونه ولكن هو أيضاً لا ينتفع من غيرنا » .

إن المطالبات بحق الانتخاب وإن كن يطلبن حقاً إلا أنهم ظالمات الرجل وأنفسهن معاً . لماذا يرم من مشاركته في الجلوس على كرسي « البرلمان » ولا تقدم واحدة منهن صدرها للقاء كرات المدافع ونضال الفناء في الحرب الحق أحق أن يتبع .

ليهنأ الرجل بمملكته . إننا لا نهز عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين . ولكننا نهزه لنطلب منه « الدستور »

بأهمية الجارية

وأود أن أؤزر البحث في أسلوب « ملك » بشيء من مقالة لها أتخيرها من كتاب « النساءيات » إذ كتبت في « احترام الآراء وآداب الانتقاد » فقالت اللسان والقلم رسولا القلب إلى الناس ، أو هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليا من الصفات ، وإن شئت فقل هما سلك السكرباء . بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم . تنقل عنهم رسالة أخلاقه حرفاً حرفاً بغير زيادة ولا نقصان . والفضائل والردائل كامنة في الأشخاص ، لا يورى زنادها إلا الأقوال والأفعال ، فملتكلم والسكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطفانه . وإن حاول إخفاءها لأن الطبع غالب ، والتطبع سمل بال قليل الستر . إن داري شيئاً تظهر منه أشياء . والفكرة وإن جانبها لا تزال تحوم حولك وترفرق إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب فإذا قرأت كتابة شخص لم تلحظه

عينك أمسكنك بالنفوس فيها أن تحكم على أخلاقه بالإجمال . فالتسكف تعرف من كتابته بأنه لا يزال ينتقى الألفاظ الوحشية ويتقعر في أسلوب إنشائه ليدل على علمه وبراعته ، والرجل البسيط يتجنب متنافر الألفاظ ومعقد التراكيب من غير تبذل ولا ركافة في عبارته . كذلك من كرمت نفسه ترى أثر ذلك السكرم فائضاً على كلماته وفي ثنايا سطورهِ . واللثيم بالمثل تسكاد تلس لومه وضعة نفسه وأنت تقرأ أماليه على القرطاس وأظهر صفات السكاتب على الورق الحكمة والحلم والحسد والجهل ، لأن الغرائز كلها حسنة أو قبيحة أو هادئة لا يستفزها الشيء القليل ولا يهيج لا عجباً إلا إذا هيجت ، كالرائحة لا يبعثها إلا الهواء ، أو كتراب الأرض لا يثور إلا مع الرياح . أما الحسد والجهل فهما أبدأ جائشان يغلي صدر حاملها ، ويكاد يفتق من تلقاء نفسه من شدة الفوران ، كالبركان المضطرم يقذف الحمم حرماً احتواه جوفه من النيران .

وإن القارئ المتذوق للأدب المعين في نصوص ما كتبت الباحثة في رسائلها ، وفيما أحقناه من موضوعاتها ليجد عند التدقيق في تركيب الجمل ، وفي تخير الألفاظ ، وإيرادها في مواضعها مظاهر الوضوح والسهولة في الأداء والبعد عن التسكف ، وإطلاق السائغ من العبارة العربية . وإيثار الصراحة تارة في مرجح ، وتارة في تجهم وحدة ، كما أنه يحس بنبضات السرور أو الحزن ، أو الطيبة ، ويشعر بروح الفكاهة والنكسة تنابع قلمه ملك ، وتنخني أحياناً ، وأحياناً تسفر لتشيع في كتابة الباحثة حيوية ولطفاً وأنساً مع رصانة عربية واضحة . على أن أسلوب السكاتب الخاص يبدو في مزج كل هذه الأحاسيس مزجاً خاصاً به وبذوقه ، وبفته الذي لا يشاركه فيه الغير إلا بقدر . وهكذا يعرف السكاتب بأسلوبه الخاص للقارئ المتذوقين لفنه . وليس من اليسير أن تعرف الأسلوب تعريفاً جامعاً مانعاً لأن الأسلوب يحس أكثر مما يعرف فهو ذوق ، والذوق لا يحتمل قيود المنطق وتحديد المدلول إلا في تكلف لا يشبع الفكر ولا يقنع وتعدد الأساليب

بتعدد الكتاب ، وتلحقها أوصاف كثيرة ، كما تلحق الناس ضروب من الصفات . ومن الكتاب الأدباء من يلحق بخياله وقلبه وعواطفه وبيانه إلى حيث يرتفع عن الواقع المؤلف ارتفاعاً قصياً ليكشف لقارئه علماً من المعاني المستخفية فوق الواقع ووراء الواقع ، وبذلك يأخذ بقارئه إلى نشوة ولذة من سحر البيان وروعة الفن والخيال ، حتى يحس القارئ المتذوق بما لا يحس به غيره ممن لا يشعرون إلا بالواقع المحسوس ، ومن الكتاب من يوجه نظره وأسلوبه لهذا الواقع فلا يرتفع بالقلم ولا بالرموز اللفظية ، ولا بالتشبيهات والكنايات إلا بما يتأخم الواقع ويلاصق المشاهد المحسوس فيحسن التصوير وبناول الصورة لقارئه ظاهرة المعالم ، بيّنة الحدود مطابقة لمقتضى الحال ، خالية من كثرة التزيق والتنميق ، والباحثة أقرب ما تكون إلى هذا الفريق من الكتاب ، فوهبتها القلمية مهيأة لرسم ما هو كأن ثم تتعداه إلى ما يمكن أن يتحقق أو يكون قريباً من التحقق وهي حين تكتب لا تفارقها آثار الدين ونزعات الوطنية والشرقية والعروبة . والكثير مما يقبله العقل عن التقاليد مما يرضاه من القيم الاجتماعية التي تواضع الناس على تقديرها ، ولعل أبا الباحثة « حفي ناصف » كان من هذا النوع الواقعي من الأدباء الذين يميزهم أسلوبهم في داشرة الطلاوة والواقعية والوضوح ومساواة اللفظ للمعنى ، فهو بالنسبة لها قد يكون مورثاً ومدرساً وهي بالنسبة له وراثته أو دارسة . وإلا فهي موهبة خاصة بملك ، وقد يصح أن كلا من توريث وتدریس قد تآزر فكان ما كان من كاتبة الباحثة .

واننتقل الآن إلى نزعاتها وأفكارها الإصلاحية :

النزعات الإصلاحية للباحثة وتفكيرها :

لقد ضمننت الباحثة أبقى أفكارها وتوجهاتها الإصلاحية في كتاب النساءيات ، وتذكر في مقدمته :

إني فكرت في جمع مقالاتي ، وطبعها كتاباً أقدمه للأمة المصرية الكريمة

راجية أن تغفر لي زلة القلم فيه . فاني مبتدئة ، ولا يعدم المبتدئ . أغلظا .
وعسى أن تقرأه الفتيات والسيدات المصريات ، فهو مذكرة اللائي غبن منهن
بأصالة رأيهن ، وحسن تربيتهن ، عن استجداء النصيحة ومرشد للآئي
يسترشدونه . لا أدعى فيه ابتداءً ولا إبداعاً فما هو إلا سلسلة مشاهدات
وتجارب أثرت في فدوتها ليتعظ بها غيري ممن لم تعركه الحوادث . ولم يتيسر
له التجاريب ، وما قصدت إلا النفع العام والدفاع عن المرأة المصرية المهيضة
الجناح . ولعل الله يحقق هذا القصد ويشد أزرنا لما فيه إعلاء شأننا وتقوية
الفضائل في أخلاق هذه الأمة ، بحسن القيام على تربية أبنائها ، والله الهادي
إلى الطريق القويم ،

والكتاب وإن وصفته الباحثة تواضعاً بأنه يخلو من الابتداع والإبداع ،
إلا أن البديع فيه أنها كانت أول من وجه كل قواه النفسية والبيانية من
الكاتبات المختارات ، لإصلاح العائلة ، وإسعادها في نهج متزن ، وكانت
قاعدتها في تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ، ورائدها في ذلك هو الشرع
الاسلامي ، (١)

من أجل هذا سارت دعوة الباحثة في السبيل المأمونة من غير تعثر ،
ولم تلتق ما لقيه قبلها قائم أمين من أساليب المقاومة والعنت .
وكتاب الباحثة الذي أسمته «النسائيات» ، هو مجموعة من المقالات نشرت
في صحيفة الجريدة في موضوع المرأة المصرية ويحتوى على أربع وعشرين
مقالة أكثرها في موضوعات الزواج ووجوب أن تكون في الرغبة والآفة
وحسن المعاشرة حتى يسعد المنزل وتنتشر فيه روح التعاون ، ويتربى فيه
البنون تربية صالحة لتبثه مجتمع راق . فهو كتاب اجتماعي وأخلاقي لا يخلو
من نواح في فنون التربية . وإذا كانت عائشة التيمورية قد دعت من قبل
دعوة إصلاحية محدودة لرفع الغبن عن المرأة وتعليمها فإن الباحثة كانت تتجه
في دعوتها إلى إصلاح العائلة جميعها في جملتها وفي أجزائها .

(١) أحمد لطفي السيد في مقدمة الكتاب .

كتبت الباحثة رأيا في الزواج ، وفي الحجاب والسفور ، وفي البيت والمدرسة ، وفي زواج الأجنبيات ، وبما كتبه في الحجاب والسفور تلك الكلمة التي تخاطب فيها الداعي إلى السفور ، وتوجه القول إلى المرحوم عبد الحميد حمدي ، ناشدتك الله أيها الأديب . كيف تأمر الآن بالسفور ونحن إذا مشيت إحدانا في طريق لا تزال تنصب عليها عبارات الوقاحة ، فيرشقها هذا بنظرة فاجرة وذاك ينضح عليها من ماء سفالته ، حتى يتصبب عرقها حيا . فمجموع رجال مثل مجموعنا الخالي لا يصح بحال ما أن يوكل إليه أمر المرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حياته ، وبمجموع نساء كنساتنا الآن لا يفهم إلا ما يفهمه الرضيع يصبح سفورهن واختلاطن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها ثم أفندي أيها القاري . بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعلمنا ناقصاً لشباب يجتمع به ؟ أتباحثه في العلوم وهي لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لا يعتد بها ، أم تناضل في السياسة وهي لا تعلم أين انجلترا من جزائر الأرخيل ، ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار ، مثلاً أم ماذا تفعل . اللهم أنها لا تجد شيئاً تقوله إلا ما قد تستحسنه من هيئته وحسن بزمته وهناك الضلال الكبير .

→ وكان في أقوالها في أمر السفور ما أثار إلهام شوقي صديق أبيها ، فأرسل شعراً من أدق وألطف روائعه وردت عليه ملك بقصيدة من نفس الروى تملأها الرقة والظرف ، وتذكرنا بركة أبيها في أسلوبه من الشعر فكان شيطان الشعر واحد عند حفنى وملك . وكان شيطانه وشيطانها يتآزران .
وإني أتتهز هذه المناسبة التي جاء فيها ذكر الشعر لكي أضع تحت نظر الدراس بعض منظوم الباحثة ، فهو وإن قل ، شعر رافى . ولو أنه كثير لسمى بتلك الكاتبة الممتازة إلى مصاف الشاعرات الممتازات .
ولنبداً شعرها بتلك القصيدة التي نوهت فيها بما هو أليق للمرأة من الأعمال ، كما نوهت بمسألة الاختلاط بين الرجال والنساء ، وبمسألة السفور

والحجاب . والسبب في إنشاء هذه القصيدة أن الشاعر الكبير شوقي كان قد بعث إلى الجريدة بإحدى روايته الشعرية ، ورمز فيها إلى منازع الحرية وتوقان النفوس إليها ، وتناول الشعوب والأمم إلى نيلها ، وإلى جور القوى على الأعزل ، واستغلال الأقوى للأضعف . وحض على ضرورة التسلح لدفع العدوان والهوان ، والاستعانة بالأسباب ، والالتجاء لفضل الله لإنقاذ الوطن مما كان يعانيه وقت إذن من المتاعب ، ومن تضيق على الحريات وما إلى ذلك مما تحوم حوله تخيلات شاعر ملهم ، وما تناوله تلميحاته وإشاراتهِ فتصحح إذا هي اتصلت بالشئون السياسية والعامّة ، كما تصحح إذا هي اتصلت بموضوع تحرير المرأة الذي أثاره قاسم أمين ، واشتغلت به «ملك» بعد ذلك على أسلوبها مكافئة ومناضلة ، وانشغل الرأي العام به كذلك وبدأ شوقي قصيدته المشار إليها موجهاً حديثه إلى عصفوره الحبيس بالقفص والذي أطلق عليه اسم «ملك الكنار» ، وأهدى الشاعر القصيدة للكاتبة «ملك» ، وعلى ذلك أخذ المفسرون من الأدباء لتلك القصيدة الرمزية يؤولون ما جاء فيها على ما يتناسب مع مسألة المرأة ومطالبها في التحرير :
وبدأ شوقي قصيدته بالبيت الآتي :

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل
إلى أن قال :

ياليت شعري يا أسية ر شج فؤادك أم خلى
وحليف سهد أم تنا م الليل حتى ينجلى
بالرغم مني ما تعالج في النحاس المقفل
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثميناً يخل
إلى أن قال :

والقيد لو كان الجمال ن منظرها لم يحمّل

يا طير لولا أن يقو لوا جن قلت تعقل
 أسمع فرب مفصل لك لم يفدك كجممل
 صبراً لما تشقى به أو ما بدالك فافعل
 أنت ابن رأى للطيب عة فيك غير مبدل
 أبدأ مروع بالاسا ر مهدد بالمقتل
 إن طرت عن كنفى وقع ت على النور الجهل
 يا طير والأمثال تضر ب لليب الأمثل
 دنيك من عاداتها ألا تكون لأعزل
 إلى آخر ما فى القصيدة :

وردت باحثة البادية على قصيدة الشاعر مفسرة ومشيخة إلى مذهبها فى
 الإصلاح ، ووجهت الحديث إلى فتاة ، فقالت :

يا هذه لا تعذلى وإذا أبيت فقللى
 أفرطت فى لومى ولو أنصفتى لم تفعللى
 لا خير فى نجوى بغي ر روية وتعقل
 ماذا فهمت من الكنا ر ومن حديث البلبل
 حتى سخطت على المعير شة فى ظلال المنزل
 وودت أن تجوى مقا ما بالعرام فتزلى
 رب الكبار أظنه عما زعمت بمعزل
 خال الكنانة طائراً والشعر حسن تخيل
 فحفا على مشواه فى قفص النحاس المقفل
 ونهى زمان مراحه بين الربى والجداول
 والقيد ذل لويكو ن خلاخلا فى الأرجل
 وغدا يعزيه وبأ مره بحسن تجمل
 وبقول إن الحبس حر ز من تقضى الأجول

أهدى القصيدة في الجريد
 إلى أن قالت :
 دة لى هدية مفضل

مجد الفتاة مقامها في البيت لا في المعمل
 والمرء يعمل في الحق ول وعرسه في المنزل
 كم خدمة يقضى نظا م البيت إن لم تعمل
 من اللوليد يعينه في لبسه والمأكل
 ويميط عنه أذى الهوى بتلطف وتحويل
 إلى أن قالت :

لكن إذا دعت الضروة للخروج فجهل
 سيرى كسير السحب لا تأنى ولا تتعجل
 وتنكبى نهج الزحاما م وفضلى النهج الخلى
 لا تخضعى بالقول أو تبرجى أو ترفلى
 إلى أن قالت :

أما السفور فحكمه في الشرع ليس بمفضل
 ذهب الأئمة فيه يى ن محرم ومحلل
 ويجوز بالاجماع من هم عند قصد تأهل
 ليس النقاب هو الحجاب فقصرى أو طولى

إلى بقيه القصيدة التى تكشف عن مذهب الباحثة فى حرية المرأة على
 نحو من الاعتدال .

وللباحثة أشعار غير هذه القصيدة منها رد على أبيها الذى كانت تعمل له
 جراحة فى عينيه بدون تخدير فكتب لابنته ملك يقول :

ولقد ذكرتك والطيب بجاني والجسم فوق فراشه مطروح
 وجفون عيني بالملاقط فتحت وبها المباحع تغتدى وتروح

إلى غير ذلك من وصف العملية الجراحية ، فسكتبت له وهى فى السادسة عشرة من عمرها وكانت مريضة بالسعال :

من مبالغ عنى طبيبك أنه يفرى بمبضعه حشاي وأضلعى
 يخبرك صدرى بالحقيقة إذ بدا من شر طعنته السعال مشايعى
 فلئن سكت فمن ضرورات الأسمى ولئن سعلت فزفرة المتفجع
 ولئن بكيت فأئما لتذكرى عينيك تفتح بالسنان المشرع
 فاسلم أبى وانظر إلى برأفة عيني فداؤك كى أقر ومسمى

وقالت فى رثاء الشيخ محمد عبده :

ليبك العلم والاسلام ما سلها وليذرف الدمع أو فليمزجاه دماً
 إلى أن قالت :

والدين طهرته من بدعة عرضت عليه فى سالف العصر الذى انصرما
 والعلم والدين للجنسين مطلب فليس يختص جنس منهما بهما
 فنحن فى الحزن شاطرنا الرجال كما فى الاستفادة شاطرناهم قدماً
 يا حجة الدين من يبنى دعائمه للمسلمين إذا بنيانه انهدما

إلى آخر هذه المرثية .

وقالت فى الحجاب :

أفتطلبون من الفتاة سفورها غشيتموها فى الكلام بروق
 لا تتقى الفتيات كشف وجوها لكن فساد الطبع منكم تتقى
 لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم وبناتكم وتسابقوا للأليق
 أرضيتم عن كل شىء عندنا وخشيتم أمر القناع إذا بقى

إلى أن قالت :

ليس السفور مع العفاف بضائر وبدونه فرط التحجب لا يبق

وغير ذلك من الأشعار الحماسية لمناسبة إصدار قانون المطبوعات في سنة ١٩٠٩ وتقول فيه :

يا أمة نثرت منظومها الغير حتام صبر ونار الشر تستعر
 ماذا تقولون في ضمير براد بكم حتى كأنكم الأوتاد والحمر
 ستسلبون غداً أغلى نفائسكم لحرية ضاع في تحصيلها العمر
 إلى آخر ما في القصيدة .

ولنعد الآن إلى نثر الباحثة بعد حديثنا الموجز عن شعرها الذي سقناه لمناسبة له . لقد كتبت في الزواج الذي لا يسعد ولا يسايره التوفيق ما يلي :

« أليس عجباً أن نرى نساءنا وفتياتنا يتهتكن كل يوم في عرض الشوارع ويمتلأن حوانيت الباعة ويذهبن في الخلاعة كل مذهب ، فيكلمن سائق الترام ويقفن مائلات عاريات الصدور متبرجات أمام المصور ، وإذا طلب خاطب مستنير من أنى الفتاة أن يسمح له برؤيتها والتكلم معها وأبوها يراقبها عد ذلك أمراً إداً . . هذا رجل وذاك مثله ، والأول تكلمه بلا مراقبة ، وإنما بعلم وبترخيص من أهلها ، والآخر يريد أن يكلمها أيضاً ولكن مع مراقبة أبيها ، وغرضه شريف ، وهو معرفة كنهه التي سيتزوج بها ويجعلها شريكة حياته ومربية لولده . فما السبب في منح الأول ومنع الثاني؟ اللهم إن هو إلا الجهل والعادة وحب القديم حتى ولو كان مضراً . فنتيجة شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما مقدماتها الأسباب التي شرحت قبل ، وهي جهل أحد الزوجين بالآخر وزواج مختلفي الطباع متعلم وجاهلة وبالعكس ، أو غنى وفقيرة ، ومختلفي الدين والبلد ، والطمع في الغنى بغير نظر إلى الأخلاق ، والزواج القسرى ، وتأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه في أحكام الزواج والطلاق وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد ، هو عدم الحكمة (١)

وكتبت فى تعدد الزوجات والضرائر بقلم يفيض بالعاطفة والحماس
والانفعال ، وبما قالته :

إنه لإسم فظيخ تكاد أنا مى تقف بالقلم عند كتابته ، فهو عدو النساء
الألد وشيطانهن الفرد ، كم قد كسر قلباً وشوش لباً وهدم أمراً وجلب شراً .
وكم من برى ذهب ضحيته ، وسجين كان أصل بليته ، وإخوة لولاه لما تنافروا
ولا تناثروا ، ففرقهم أيدى سبا ، وأصبحوا تأكل الخزازات صدورهم ،
وبضمرون السوء بعضهم لبعض ، يثأرون ولا يثأر بنى وائل ، وكانوا لولاه
متفقين . إنه لإسم فظيخ ممتلىء وحشية وأنانية كم أخرج رجلاً وعلمه
الكذب ، فأفسد عليه خلقه وكم بذر مالا كان يعده البعض رزقه ، وكم أحفظ
قلب والد على ولد ، كم علمه الوشاية والحسد ، فاذا ما لهوت أيها الرجل
بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات ، يتساقط من مآقيها
أمثال لؤلؤ عروسك ، ولكننه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً ! ، (١)

وكتبت الباحثة فى «سن الزواج» ، وأنها بذلك سبقت غيرها من العاملين
والعاملات فى إنصاف المرأة . «على ملامة سن الزوجين يتوقف شىء كثير
من الوفاق والمحبة ، والواجب ألا تتزوج الفتاة إلا متى صارت أهلاً للزواج
كفئاً لتحمل مصاعبه ، ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة... وزواج مختلفى
السن إضعاف للنسل ، وشقاء للزوجين ، وقلب لنظام الطبيعة الدقيق ، (٢)
وبما كتبه فى الزواج بالأجنبيات ، وإن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية
الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق ، فى عصر اسماعيل
هجم علينا جيش من الشركسيات انهنزنا أمامه وخرج ظافراً منا بأحسن
رجالنا ، فلم يكن شريف أو نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من
شراء اسماعيل .

(١) النسائيات ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) » ٢٦٥ ٣٥

ثم ابتدأ رجائنا فيما بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوروبيات وليتهن من ذوات الشرف ، ولكن كان أكثرهن وإن لم يكن كلهن - من الراقصات والخادمات وأضرابهن . كل ذلك يجرى ونحن ساكنات ننظر ولا نتكلم خيفة الريب ولكن نساء ذلك العهد كن جاهلات لا يفقهن شيئاً كان ذلك خير قصاص منهن على الجهل أما وقد صار بمصر الآن من الملمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار أن تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوروبية ؟؟؟ .

ثم اليس من العار أن تشرب دائماً لما في يد غيرك وعندك أحسن منه .
ألا رب معترض يقول ن أفقد بطل الرق الآن وأن من يصاهر الترك يصاهر أكفاء . هذا صحيح ولكن الأم تغذى الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلغتها ، فإذا ما حذت التركية لوطنها نشأ متشبعاً بأميالها ويميل عن مصر ، وهو معدود من رجالها . وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطرى للاتحاد هو على ما أرى ناشئ عن تشعب أجناس أمهاتهم فابن الفرنسية يحب فرنسا ، وابن الزنجية يذكر خصب السودان ، وابن العربية يفتخر بمحتره ، وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده وهكذا أضعنا وطنيتنا المصرية من طريق المصاهرة بالأجانب .

ثم أجدني محقة إذا قلت إن النوع يحن لنوعه فإذا تكافأ الرجل والمرأة في العلم والتربية وكانا مصريين مثلاً فإن الحب بينهما يسكون ألصق وأمتن منه لو كانا مختلني الجنس والمذهب (١)

وفي هذا الفصل وأمثاله مما كتبت الباحثة نجد أن النزعة القومية متأصلة في نفسها ، وأحرصها على خدمة هذه النزعة في نفوس الوطنيين تعدها لأن تؤول تفرق الرأي بينهم ولترجعه إلى الزوج بغير المصريات ، وهذا تأويل

لا يخلو من دقة كما أن فيه الكثير من تشتت الرأى العام وتبليه قد يرجع إلى تعليقات أخرى غير ما تتخذها الباحثة من تحليل .

وقد تنتقل باحثة البادية إلى تحليل ما تنصف به النساء من النقائص وفي نظرها أن الغيرة الشديدة التي تسيطر على المصريات هي من أبرز ما يؤخذ عليهن فتقول ، عن المرأة الغيور :

« إذا ذهب زوجها لديوانه ودعاه صاحب له إلى الغداء معه فلم يؤب لمنزله إلا بعد العصر تراها تسكدر وتثور زوابع غضبها وتهمه إما بزواج جديد أو بمصاحبة غير شرعية ، تراها إذا دعى للسهر مع إخوانه فتأخر قليلا بالليل تسأله أين كنت ، ولا تصدقه إذا قال الحقيقة ..

فبدأ عدم الثقة يسبب ما تخافه المرأة . ويصير الخيال حقيقة فيلتفت الزوج إلى ما تقول امرأته ، ولا يلبث أن يتزوج أو يخالل ، لأنها علمته أن هذا الأمر مستطاع له ، وسهلتها على أذنيه وروحه بكثرة ذكرها له وشدة الضغط تحدث الانفجار ... ثم تقول الغيرة القليلة بمدوحة لأنها تدل على حب الشخص للآخر وعلى اهتمامه به فاذا رأت سيدة بعلمها غير مستقيم السيرة وتأكدت ذلك عن طريق الصدق لا من شياطينها وأعوانها وإن لم تغر عليه فانها لا إحساس لها ، والحجر أقرب للتأثير منها . وأما إذا استعملت الغيرة في غير موضعها فانها تشقى نفسها وتشقى زوجها وتشقى أهله وأهلها (١) يستطيع القارىء أن يرى في هذا المقال ما يدل على دقة تصوير الواقع وعلى جودة تفكيرها في الشؤون النفسية عندما تدرك منفعة القليل من الغيرة في حفظ الروابط بين المرء وزوجه ، وضرر الغيرة الجاححة على الحياة الزوجية وتسترسل الباحثة في النقائص التي تنسب للمصرية (في عهدها) فتحدث عن الأثرة التي تقصى بين النساء وأقارب أزواجهن ، وتحدث عما تصاب به النساء من مباراة في السفه والاسراف فتقول (٢) - « علة المباراة الحقيقية

(١) ٣٩ و ٤٠ من النسائيات

(٢) ص ٤٦ »

هى الحسد ، يأكل القلب ، ويكثر الهم ، فلا تطيق صاحبه أن ترى أجمل منها هيئة أو أغنى مظهراً ، وتهتم فى أن تكون هى المشار إليها بالبنان فى المجالس ويسكرها الطرب إذا ذكر غناها واقتدارها على اقتناء العربات الجميلة ، والخدم الكثير وبعضهن تبيع حليها أو شيئاً من أملاكها . تشتري سيارة أو لتسافر إلى أوروبا لأنها تحب السياحة ، أو تستفيد من الأسفار ، ولكن لأن غيرها فعلت ذلك ... أرى أنه لا يحمل بالسيدة العاقلة أن يستحکم منها داء التقليد لأنه يدل على صغر النفس والاحساس بصغرها ... يقول الحديث الشريف :

« الناس بخير ما تباينوا ، وهى حكمة بالغة أو هى كل نواميس العمران ولباب نظمات الاجتماع ... وعليه فلا يمكن أن يتساوى البشر ، ولا يمكن مع الأسف أن نكون كلنا غنيات ... والخلاصة أن الغنى ليس متيسراً لكل فرد فأولى أن يلزم كل حده لئلا يكون مثلنا كمثل الضفدعة التى أحبت أن تبلغ كبر الثور فاستعانت بالماء فانفجر جوفها فماتت . ولتعلم المرأة أنها وكيلة الزوج فى ماله وبيته ، والوكيل يجب أن يكون أميناً تقياً ، وأن التكالب على المباراة صفة مصغرة للنفس ، وأنى لا أزعم أن رجالنا وأبناءنا يقل فيهم الباحث ، ويندر المخترع أو لا يكاد يوجد لأننا متشبعات بحب التقليد لا تجددهممتنا بالبحث والاستنباط فيكون لهم من زوجيتنا وأمومتنا محك لأفكارهم ، أو أسوة ومثال حسن ، (١)

ولعل من يدقق فى هذا المقال يتبين له أن الباحثة تؤيد مسألة التباين الاجتماعى فى الثروة ، وأنها طريفة فى تفكيرها حين تشير إلى النساء المقلدات اللاتى يستسلمن للمحاكاة المغالية ، يرجع إليهن عقم الأمة وخلوها من المخترعين والمخترعات .

ثم تأخذ على النساء الحدة وسرعة الغضب ، فتقول : ، كل شر يكين قد

يختلفان اختلافات بسيطة ، ولكنهما لا يذيعانها ، ومن أحق بكتبان السر من شريكى الحياة ، أعنى الزوجين . والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلا من اهتمامه ، بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه ،

وبعد أن تسترسل الباحثة فى تحليل نقائص نساء عهدنا ، على نحو ما قدمت فى ذلك الموضوع ، تعود لتستأنف القول فى مساوىء الرجال ، فتحدث فيما يصيبهم من طمع ، وما يتصفون به من ظلم وما يظهر عليهم من الازدراء بالمرأة .

ومما كتبه فى الطمع (١) ، لا أعد الرجل ذا مروءة ونخوة وهو يبيع حلى امرأته ويجردها حتى فى حال عسرة ، لا يعذر الرجل على مديده لمال زوجته إلا إذا كان له من ضعفه وعدم اقتداره على العمل مبرر ، على أن هذه المسألة من التعقيد بحيث يسهل عندها ذنب الضب ، فإن بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ، ويذكر لهن الزواج إرهابا ، فأى الأمرين تختار المرأة البائسة (٢) .

« ومن أقوالها الطريفة التى تدل على روح الفكاهة فى الظرف قولها ، إزداد طمع الرجل فلك عليه حواسه فصار ينام يحلم بالمال ويقوم يشتغل له ولا عيب عليه فى ذلك وإنما الذى يعيبه أنه زادت خميرة جشعة فجمعه ذوقه واستحكم منه الطمع فى كل شىء حتى فى عروسه ، (ماذا عندها) كلبتان ألفناهما وهما أول ما يفتح به للخاطب ، وقد لا يسأل غير هذا السؤال ، فأبو العروس الذهب ، وأما الفضة ، وأخلاقها النحاس ، وسمعتها الطين ، ومعارفها العقار .

وتتابع الباحثة كتابتها فى ظلم الرجال للنساء فتستعرض الحوادث المختلفة التى يبدو لها منها سبب الظلم وتلوح بنتائج الاساءة فيتدفق البيان من قلبها حاراً شديد الوقع على المعتدين بمن لا يحسنون معاملة النساء ولا يقدررون

(٢) ص ٥٧ النسايبات

(١) ص ٥٣ النسايبات

الأمور بتقديرها الحق . ومما كتبه فيمن يفترون عن نساءهم لأنهن لم ينجبن
البنين ما يلي (١) :

أن رجلا من ذوى الرتب عاف زوجته لأن أولادها منه كلهم بنات
فطلقها واقترن بأخرى على أمل إنجاب الذكور فأتت له بأثى ثم بأثى ثم
بأخرى وهكذا أبى الله إلا أن يتم ما أراد فكأنه استبدل بنات بغيرهن
ولكنه خسر ودأمرأة صالحة كانت تحبه وغير عليه قلوب بناته الشابات
وظن أنه كسب ودأخرى وما هو إلا واهم فيما زعم .

ليت شعري إذا فرضنا أن ولادة البنات عيب كما يرى بعضنا فهل للمرأة
يد في ذلك ولماذا لا يعيب الرجل كما يعيبها . لماذا لا تعافه المرأة وتطالب إليه
أن ينفصل عنها ، وتزوج غيره لتلد ذكورا . إذا صح أن يتشبث أحد
الزوجين بهذه الخرافة صح للثاني أيضاً إذ هما في حقها وبطلانها سيان .

وتمضى الباحثة في تتبع مساوىء الرجال وازدراءهم للمرأة فتشير إلى
ما يحفل به البعض عند ولادة الصبي واستيائهم عند ولادة البنت . وتثور
ملك ، عندما تتصور أن بعض الرجال قد يشخص ازدراءه لامراته حين
لا يكشفها بألامه وأحزانه وبما ينوى تحقيقه من الأعمال كأنها غريبة عنه
وتزداد ثورة الباحثة عندما يمر بخيالها شبح من يستسهلون الطلاق فتراها تجأر
بما يلي (٢) : « أى ازدراء وعبت بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج
ساعة غضبه فتفرق بينهما ، وتشئت ملتئمها ، وأى أمل لها في مستقبل مظلم
لا تدرى متى ينهار بنيانه ، إن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا
من غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وإنما جعل لها شروطاً وقيوداً لو اتبعت
لما أن منها النساء البائسات . »

ثم تنتهى الباحثة من ثورتها وغضبها على من يزدري المرأة ، بعد تقليب
وجوه الإزدراء فتقول متوعدة ومهددة « ما جعل الله لرجل من قلبين في

(٢) ص ٦٣ من النسائيات

(١) ص ٦٠ من النسائيات

جوفه ، فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون إصلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور أما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراما لسكنا لهم كما يحبون فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون . فإن أرادوا إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون ، (١)

وبعد أن تبرز لنا « باحثة البادية ، مساوية النساء ومساوية الرجال ، وتشخص لنا في حذق ومهارة مختلف الأمراض والعلل التي تتعرض لها نفسية الرجل والمرأة تعود لنصف لنا الدواء فتوجه إلى خير الطرق للخلوص من هذه الأدوية . ومن خير الطرق التي تراها في ذلك أن لا يضيع الرجل ما يمكن أن يكون له من تأثير حسن في بيته وفي بنيه وكذلك ينبغي على المرأة أن تستغل ما منحها الله من طيب المزاي لا لسعاد البيت ومن يعيشون معها فيه . وعلى ذلك تستوجب الباحثة على الوالد المستنير اللبق أن يخاطب أولاده ليمنحهم من استنارته وعلمه وتجاربه ويضفي عليهم من فيض فضائله وميوله الرفيعة . ومن أقوال الباحثة في ذلك مايلي (٢) : « إن الأسرة الواحدة يجب أن تكون تامة الامتزاج مرتبطة بالحب الصحيح فلماذا يضعون ذلك الحب الطبيعي بقسوتهم وجفائهم ولماذا لا يبشون روحهم فيمزحو اليهم من بنات وأخوات ولماذا لا يجعلون لهم تأثيراً حسناً في أسرهم . وكما يتوارث الأولاد اللون والخلقة عن والديهم يجب أن يتوارثوا عنهم أيضاً أخلاقهم الحسنة وبمميزاتهم . وبودي لو يجتهد كل شاعر في أن يجعل أبنائه ذكوراً وأناثاً شعراء . وكل رياضي أن يعلم أسرته الرياضة وكل سياسي أن يجعل زوجته وذويه يتباهون بمبدئه حتى يتم الامتزاج المطلوب وتظهر فينا روح الحياة الطبيعية والسلام . »

وتنصح الباحثة بمقاومة التكلف بين الزوجين وترى أن السكفة بينهما مرض يجب أن يتقن لأن الزوجية تقتضى أن يسير كل من طرفها على فطرته

وبحجته حتى يتشخص الامتزاج والتقارب بين من يرتبطان برباطها الوثيق فهي ترى أن دين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع ما يريده الله لها من سكون الواحد إلى صاحبه ويشذ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسله إرسالا من غير تعقيد ولا إبهام فالسما معقودة على الأفق في مصر وهي كذلك معقودة على الأفق في اليابان وفي جريلاندا لم يضع الله لها عمد المرمر في إيطاليا ، ولا قوائم العجاج في السودان ، ولم يقرها على حوائط البلور في النمسا . تيرها الشمس نهاراً (في القطبين) والقمر ليلا وقد نثرت فيها النجوم نثراً إلا قليلا فهو منظوم ، والسكاتبه تريد أن تمهد بهذه المقدمة البليغة الخطائية إلى أن الله لم يتكلف في رسم النجوم ورسها رسماً هندسياً في أشكال منسقة ومنمقة ولم يفعل ذلك في مشاهد الطبيعة من غابات وأحراش وأنهار وبحار ومع ذلك فإن في هذا الذي لا تكلف فيه من مشاهد الطبيعة ومظاهرها ما يأخذ جماله بلب المتأمل المتفكر وعلى ذلك فيكون لمظهر البساطة الزوجية جماله ويكون لمجافة التكلف فيها كل بهجة ومسرة .

ولا يفوت الباحثة أن تسدى للسيدات جملة من النصائح التي تجملهن في أعين أزواجهن وخلفهن فتراها تطالبهن بمظاهر الابتهاج والبشاشة فتقول (١) «البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعون على قضاء الأشغال يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك يلقي شعاعه الكهربائي على من حوله فتنتعش به أرواحهم وهي جميلة في الكهل كما تجمل في الطفل إلا أنها أبهى وأشد تأثيراً في المرأة تلك التي تسيطر على القلوب ولا تدرى .

خلقت المرأة لطيفة بالفطرة والبشاشة من لوازم اللطف كما هي من المؤثرات في الجمال وإن لين صوتها ونعومة أديمها وتناسب أعضائها لتستدعي مراعاة النظر في رشاقة حركاتها وانفراط أسرة وجهها كذلك صوت المرأة

يدل على تربيتها فالمرأة المهذبة لا ترفع الصوت ولا تكاد تسمعها عن بعد إلا كالهمس . .

وقد نجد الباحثة تشتد في اللوم والتقريع وتؤاخذ السيدات اللاتي يتعودن التدخين أو يتعاطين المسكرات فتفرد فصلا من كتابها بعنوان « جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر » ، ويبدو لي أن أنقل بعضاً من ذلك الفصل الذي يفيض بلطف الأسلوب ويتجلى بين سطورها روحها الفكهة ومظرفانيتها اللاذعة حين تكتب ما يلي (١) :

« والله أكبر ما جمال المرأة المعنوى إلا في عفتها ووداعتها . والتبغ مذهب لتلك الوداعة مخل بصفاتها . صور قدماء الرومان واليونان آلهتهم برموز وتماثيل تدل عليها وكذلك يصور المعاصرون من الفرنجة كثيراً من المعاني في أشكال مجسمة تعينها . مثلوا الخنو والودي والشفقة والصبر والحب وغيرها في حجارة نحتوها وصوروا نقوشها ، ولعله لم يفهم تصوير الكسل ولو أنصفوا لصوروه امرأة تقضى وقتها بين السجارة والقهوة . وأظننا لا نجمل مثلاً حية كثيرة له .

وكما يذهب تعاطى التبغ بالجمال المعنوى كذلك يسلب الجمال الحسى . يرمى الأسنان بالصفرة ويغير اللثة والشفقتين وأظنه يغير طعم الفم أيضاً . ولو عاش الشعراء الأقدمون إلى هذا الوقت لما رأينا في أشعارهم ذكر اللؤلؤ والبرد ووميض البرق وغيرها مما كانوا يشبهون به أسنان النساء لشدة بريقها . فإذا كانت المعاصرات وخصوصاً المتمدينات منهن يزعمن أنهن أرقى من مثيلتهن الغابرات في كل شيء فقد أخطأن . وإذا كان « دارون » ، وأنصاره يدعون اطراد التحسن والارتقاء في التسلسل الذي قالوا به فقد كان يتحتم عليهم أن يستثنوا جمال النساء لأنه راجع القهقري . »

ثم تسترسل الباحثة في تحقير كل ما من شأنه أن يضعف جمال النساء وفي الحض على كل ما يقوى معه هذا الجمال فتتصحح لمن اتخذ الرياضة البدنية وتقول (١)، للرياضة أنواع شتى تستعملها النساء الغربيات ولست أشير على نسائنا باقتباسها بأنواعها فقد لا تلائم مجتمعنا فنحن الألعاب المختلفة والركض والسباحة وركوب الخيل وأقلها كلفة وأكثرها ملاءمة للشرقيات المشي إن آباءنا وأجدادنا كانوا أكثر منا مراعاة لترويض النساء من حيث لا يدرون فإن المنازل القديمة كانت كلها مبنية على الطراز التركي تحجبها أسوار عالية وداخلها الرحبات المتسعة والحدائق الغناء مما ترح فيه نساء البيت ولا رقيب عليهن ويمتنعن أنفسهن بيهيج منظر الحدائق وفوارات الماء . فمن لاذ للسمع ، وجميل للنظر ، وحلو للذوق ، ولطيف للمس ، وزكى للشم . طيور صادحة ، غزلان سارحة ، وفاكهة جنية ، وزهور شهية ، وروائح عطرية . خضرة الزمرد وشفافية البلور في النباتات والماء ، وبها الياقوت وأريج المسك في الزهر والهواء ، وسواق ناعرة تجلب النوم وتجعله هينا وبالجملة كان عيش تلك البيوت مرتبا ونساؤها كما قال شوقي:

يمرحن في مآمن مثل حمام الحرم

وباحثة البادية حين تشخص العلل الاجتماعية والنفسية ، وحين تنصح باتخاذ الوسائل للوقاية منها ودفعها بضروب من المعالجة تمد مختلف مقالاتها وفصول كتابها بما ينفع الرجال والنساء من النصيح المؤدى لخير المجتمع ، تطلق أفكارها في صراحة وتنتقد النقد المهذب التزيه المقبول الذى يؤدى إلى نتائجه دون أن يؤذى ودون أن يجرح . وهى تؤزر فصول الكتاب بخطبتين فى حزب الأمة وفى قاعة الجامعة وتردد فيهما آراءها فى إصلاح العائلة وفى التنديد بما يبدو لها من أخطاء الرجال ومن أخطاء النساء وفى إشاعة مختلف التوجيهات التى تحسب أن العمل على هديها يؤدى للنجاح إنما

(١) انظر صحيفة ٩٢ من النسائيات

تفعل ذلك بلسان حاد ، بلسان داعية ومصالحة ومؤمنة برسالتها ودعوتها .
 حيال الطرفين اللذين خلقهما الله لكي يسكن أحدهما إلى الآخر ولكي
 يتراحما ولا يتنافرا ولكي يتعاونوا ويتكاملا لإبقاء النوع البشرى وتقول
 الباحثة في ذلك : ولم يخلق الله الرجل والمرأة ليتباغضا ويتنافرا وإنما خلقهما
 الله لسكن أحدهما إلى الآخر فيعمر الكون إذ في ائتلافهما بقاؤه .
 ولو انفرد الرجال في بقعة من الأرض وانعزلت النساء إلى أخرى لانقرض
 الخبزبان وحققت عليهما كلمة الفناء ، (١) .

والباحثة حين تتحدث عن وجوب ائتلاف الرجل مع المرأة لاتفيد أن
 في هذا الائتلاف ما يبرر ضرورة لتخصيص في الأعمال بنوع من القسر
 والقهر لكل من فصيلتي الرجال والنساء وعندها أن ، مسألة اختصاص كل
 فريق بشغل مسألة إصطلاحية لا إجبار فيها ، (٢)

وبعد أن تدفع ، ملك ، حجج القائلين بوجوب توزيع الأعمال بين
 النساء والرجال ليكون لهن ما يشغلن من أمور البيت وللآخرين ما يشغلهم
 من مشاق الكفاح الحيوى نراها تعنف على من تتجه هذا الاتجاه في التدليل
 فتقول ، ولا يغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا . إننا
 لسنا محلا لاشفاقهم وإنما نحن أهلا لاحترامهم فليستبدلوا هذا بذلك والاشفاق
 لا يتأتى إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير فأى الصنفين يعتبروننا والله
 إننا لنأنف أن نكون أحد هذين ، (٢) .

وبناء على ذلك تدعو ، الباحثة ، إلى حرية التعلم للمرأة فكل ما تتعلمه
 يعمل في توسيع أفقها وأن تعلم المرأة ما تريده وتناولها مختلف المعارف
 والعلوم لا يؤدى إلى إفساد ملكاتها لأن ذلك مرده إلى سوء التربية ويجب
 على كل بصير أن يفرق بين التربية والتعليم .

(١) أنظر صحيفة ١٠٠ من النسائيات

(٢) * * ١٠٣ * *

وبحال التربية يكون أوسع وأكثره إثماراً في البيت وليس في المدارس ومعاهد العلم . ود الباحثة ، التي ترى وجوب تعميم الحرية في تعاطي الأعمال وفي مختلف دور العلم نجدها لا تبيح الحرية في لباس المرأة فنقول ، يشكو الرجال من تبرجنا في الطرقات وحق لهم لأننا خرجنا فيه عن المؤلف والجائز . نحن نزعم أننا نحتجب ولكننا ما بلغنا حجاباً ولا بلغنا سفوراً . لا أريد أن نرجع لحجاب جداتنا ذلك الذي يصح أن يسمى وأدا لا حجاباً . فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لا تسير في الطريق إلا وهي محمولة على الأعناق . ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فإنه مضر بنا . إن نصف إزارنا السفلى اليوم مرط لا يتفق مع كثة حجاب ، ولا مع معناها ، ولا مع الحكمة منه . أما نصفه العلوى فهو كالقمر كلما تقدم قصر ، (١) . ثم نجد الباحثة تأخذ في أن ترسم للنساء نوعاً من اللباس يستر الشعر والمعصمين والجسم وتترج من ذلك إلى أن تنتقد لباس الأوربيات وتبرجهن وتوسعهن في الاختلاط وتنتقد الرقص الغربي انتقاداً شديداً وعلى الجملة فهي تصد وتنهى عن الاستماتة في تقليد الغربيين وتبدو تعصبها لشرقيتها وتشدها في إسلاميتها فيما أرسلته من الخطب وتود لو يحتفظ الشرقيون ببعض تقاليدهم لتبلغ أهمهم رقياً له طابعه وله شخصياته وتنتهي من ذلك كله إلى وضع دستور للمرأة المصرية فنقول :

« بقى علينا أن نبين الطريق العملي الذي يجب أن نسير عليه ولو كان لي حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية :

المادة الأولى — تعليم البنات الدين الصحيح أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة .

المادة الثانية — تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الأولي إجبارياً في كل الطبقات .

المادة الثالثة - تعليمهن التدبير المنزلى علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والاسعافات الوقتية في الطب .

المادة الرابعة - تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر .

المادة الخامسة - إطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد
المادة السادسة - تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد في العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

المادة السابعة - إتباع طريقة شرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

المادة الثامنة - إتباع عادة نساء الأتراك في الأستانة في الحجاب والخروج .

المادة التاسعة - المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان .

المادة العاشرة - على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا .

وهذا التلخيص في مواد تتضمن جملة من اتجاهات ملك في مقالاتها وفضولها لخدمة المرأة المصرية .

وقد تقيد هذه الاتجاهات في أسلوب آخر في خطبها الثانية التي ضمنها إلى الأولى وأثبتتها في كتاب النسائيات إلا أنها في الخطبة الثانية التي وضعتها في المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية إلا أنها في الثانية تتوسع في معالجة موضوع الملابس والأزياء لتزيد تهكمها على ملابس الأوربيات وأساليبها في التفتن الذي لا يليق بالاحتشام وعندما تقارن « الباحثة » بين الغربيات والشرقيات وتعترف للأوليات بكثير من المزايا إلا أنها ترى « أن الشرقيات أسلم قلباً من الغربيات وأقل خداعاً لعدم الاختلاط بالرجال أيضاً فإن الغربية لتجوالها في الخارج تتعلم كيف ترضى هذا وذلك لتظهر فاتنة جذابة وتعيش خداعة محتالة إذ الحاجة تعلمها الاحتيال على العيش فهي تطلبه بكل الوسائل

الممكنة وهي لا شك أنشط من الشرقية وأثبت منها على العمل إلا أن هذه أكثر فناعة وأشد رضا بالقليل ، (١) ثم تأخذ على الغريبات « أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعمن أنهم يجتنبون الرذائل بمحض إرادتهم وتريتهن . ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن إتيان ما لا يرضى فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة . ألم يكن الايمان بالله وترقب ثوابه وعقابه هما المانعان لكثير من الناس عن الانتحار والكفر وإتيان المناكير والفحشاء والخيانة

الاساء ما يحكمون ، (٢)

وتقول الباحثة في خطبتها الثانية بكل وضوح وصراحة « إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الغربية إلا الضروري النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يراقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة . وإنما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب فنقتضى على ما بقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة ، (٣)

ونقول على الجملة أن خطب الباحثة سواء أكانت في دور الأحزاب أو في المؤتمر الاسلامي تتضمن كلها النزعات الاصلاحية المتفرقة في فصولها في الجرائد وتم عن محاربتها للعادات السيئة وتمسكها بالتقاليد الشرقية النافعة وخضوعها لتوجيهات دينها الاسلامي واعتزازها بمصريتها وبعروبيتها .

محنة الباعثة في مبراه الاصلاح :

ويجدر بالقارئ المتقصى لآثار « ملك ، ألا يغيب عن نظره ما كان لكتابة الباحثة من التأثير الاصلاحى لأنها لم تنأ بنفسيتها بعيدا عن بيتها

(١) انظر صحيفة ١٣٨ من النسايات

(٢) » » ١٣٩ » »

(٣) » » ١٤٢ » »

فتبينت مساوىء المحيط الذى عاشت فيه بالمعاينة ، وتاقت لاصلاحه
الاصلاح المستطاع وكانت ترسم خطوط ذلك الاصلاح وهى متسمة
بميسمها الشرقى والمصرى والاسلامى وتعزى بكثير من مقومات مصر والشرق
والإسلام مادامت تلك المقومات لاتجافى الطبع السليم فى شىء .

→ فمن أجل ذلك كله كانت صلتها وثيقة بالميدان الذى تعمل فيه ، ومن ثم
كان لصوتها صدى مسموع وكان توجيها مطاعا ومقبولا . فضلا عن
ذلك فان الباحثة تناولت تلك الناحية الحية التى يهتم بها الجميع وهى ناحية
الأسرة التى يود كل واحد أن يتمتع بما تهيمه من خير وسعادة فالأسرة ناحية
باقية ما بقيت الانسانية وإذا فسدت فسد المجتمع وإضطربت الحياة الاجتماعية
وفوق ذلك فان هذه الناحية تناولتها أقلام الكتاب والباحثين فى العهد
الذى عاشت فيه باحثة البادية فى كتابات متناقضة ومتعارضة وكان قلم
أمين قد تناول الموضوع تناولا تبدو فيه روح الثورة فوجد من المعارضين
من وجد ومن مر الانتقادات ما يدعو إلى التفكير فى كل ما يعوق المطالب
العادلة التى يأملها المصلحون لرقى الحياة الاجتماعية . . . وفى هذا الجو
الصاخب المضطرب المليء بالتجارب تناولت « ملك » نفس الموضوع ولكن
فى أسلوب معتدل استطاعت أن تقنع به المعارضين والشائرين على سواء
فكتب لدعوتها فى إصلاح الأسرة النجاح والتوفيق .

ثم كان لباحثة البادية من الصلات بالأسرة ، ومن شخصيتها الجذابة
المحبوبة ما يدينها من النفوس ويهيم لرسالتها النجاح فضلا عما اكتسبته
بنفسها من التجارب فى محيط الزوجية وما لقيته فى حياتها من صعاب
ومتاعب مما كان له الأثر الصادق فى نفسها ، فأثرت هى الأخرى بهذا الأثر
الصادق فى مجموع من قرءوها كاتبة أو سمعوها محاضرة . . .

وإذا أضيف إلى ما تقدم طبيعتها من النشاط والإقدام وحالتها من
المزاج العصبي الصريح الحساس الذى يحفزها لاتتهاز كل فرصة للتبشير
بمبادئها وإقناع من حولها بأرائها . . كل ذلك يبين لنا المدى الواسع الذى

كان لملك في ميدان الاصلاح الاجتماعى فهى تستحق على من يذكرها
ويؤرخ لها أن يضعها فى منزلة رفيعة رائدة لبقمة موفقة هيات جو البيت
المصرى لما يندد له من الهناء والسعادة .

الوفاة

وإن هذه المصلحة المتحمسة لم تبخل يوماً عن مشاركة مواطنيها
فى عواطفهم وأحاسيسهم الوطنية والسياسية فناصرت بقلها مختلف الحركات
القومية فى الدفاع عن الحريات وبخاصة حرية الصحافة وأسهمت فى الدعاية
والعمل لجمعية الهلال الأحمر المصرى فأستت جمعية بمائلة لجمعية الهلال
لمنكوبى الحرب الطرابلسية مما يشعر بما كان لهذه السكاتبة من ذكاء وهمة
ونشاط والباحثة كغيرها من الصالحين والمصلحين كان لا بد أن يدركها
الموت شابة مكتملة الحيوية .

وأعود إلى أخيها «مجد الدين» فأسأله عن وفاتها فيقول «لست من عشاق
الخرافات ولكنى أقص حكاية وقعت فى حدائة الباحثة ، ذلك أن إحدى
معلماتها الانجليزيات كانت تقرأ لها كفيها فتنبأت لها بمركز ممتاز فى العلم والأدب
وحسن الاحدوثة والأثر حتى إذا ما وصلت المعلمة إلى علامات العقد الرابع
شهقت فجأة ، ولم تشأ أن تزيد شيئاً فكأنه كان من المقدور للباحثة أن تموت
شابة . » ويقول مجد الدين «لقد كنت متبها بالعمل لتهديب ضابط تركى أسير
فى الحرب الأولى وكان المفروض أن أحبس أو يحكم على بما هو أشد ، وكانت
ملك «مریضة بالحمى» فى دار زوجها بقصر الباسل بالفيوم ، فلما علمت بمسألتي
سارعت بالحضور إلى القاهرة وركبت عدة قطارات وعربات وقاومت حتى
أفرج عنى ولكنها بعد ذلك عاودتها الحمى واشتدت عليها وهرفت ثم خفت
صوتها واختطفها الموت فى ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٨ فى الثانية والثلاثين
من العمر .

وهنا تمر على وجه «مجد الدين» سحابة من ذكريات الأسى ولكنه يتابع
حديثه ويقول :

وبعد أن ماتت أختي اجتمعت طائفة من النساء لتأيينها بالجامعة برئاسة المرحومة هدى شعراوى واجتمعت طائفة من الأدباء والمقدرين لتأيين الباحثة بعد ذلك فى القاعة التى حاضرت فيها وكان ذلك برئاسة الشاعر اسماعيل صبرى نائباً عن عدلى يكن وزير المعارف . وكان والدى متعباً وسقياً على أثر الصدمات التى أصابته عندما قبض على فلما استمع لما ألقى فى الجامعة من المراثى تأثر شديداً وعاد إلى البيت لينام فتخى فى غطائه وأخذ يبكى بكاء مرأً ويذفر زفرة الشكى واشتد عليه مرضه ومات بعد ذلك بأيام . وأثبت هنا مرثية حافظ إبراهيم التى القاها وقتئذ بالجامعة فى رثاء الباحثة ، لما تضمنه هذه القصيدة المؤثرة من صدق فى الوصف للكاتبه ولحال أيتها . قال حافظ :

رثاء باحثة البادية

حافظ إبراهيم

فألحق فى الدنيا سير	(ملك) النهى لاتبعدى
كالروض أرجه الزهر	إنى أرى لك سيرة
بن فعاش محمود الأثر	ربى أبوك الناشئ
فى الناشئات من الصغر	وسلكت أنت سيله
لة والطهارة والخفر	ريبتن على الفضيل
نزلت بها آى السور	وعلى اتباع شريعة
أحياء أنى أو ذكر	فليتكم فضل على الـ
ت ودر (حفى) إن نثر	لله درك إن نثر
فى البدوعاشت والحضر	قد كنت زوجاً طبة
روسودت أهل الوبر	سادت على أهل القصور
مرسوقة بين الأمر	غريبة فى عليها

مخدورة بين الحجر
س تخط آيات العبر
عرك الحوادث واختبر
تطهو الطعام على قدر
ط وترتضى وخز الإبر
لدها بحليتها افتخر
لا باللالى والدر
بالله يوم (المؤتمر)
دة) والمقالات الغر
عند المجلات الكبرى
خسير ربات الفكر
ل شبابها لا يغتفر
ر) ولم تغيبها الحفر
يرجى وكنزاً يدخر
ت السافرات على خطر
نة والعنفا على سفر
(ملك) يقين الضرر
ح الحزن مختلف الصور
ر نواح هاتفة الشجر
حزناً يقطعن الشعر
ح وفي المساء وفي السحر
هل غاب زيد أو حضر
م إذا تحامل أو خطر
بص فالتوى ثم انكسر

شريعة في طبعها
بيننا تراها في الطرو
وتريك حكمة نابه
فاذا بها في مطبخ
وإذا بها قعدى تخي
غرت بوالدها ووا
بالعلم حلت صدرها
انظر شمائل فكرها
واقراء محاضرة الجري
وارجع إلى ما أودعت
تعلم بأنا قد فقدنا
ذنب المنية في اغتيا
يا ليتها عاشت (لمص)
كانت مثالا صالحاً
إني رأيت الجاهلا
ورأيت فيهن الصيا
لا وازع - وقد انطوت
لا كان يومك يوم لا
علمت هاتفة القصو
وتركت أتراب الصبا
يبكين عهدك في الصبا
وتركت شيختك لا يعي
ثملا ترنحه الهمو
كالفرع هزته العوا

أو كالبنام يريد أن ينقض من وقع الخور
 قد زعزعه يد القضا . وزلزلته يد القدر
 أنا لم أذق فقد البين ولا البنات على الكبر
 لكنني لما رأيت فؤاده وقد انفطر
 ورأيت قد كاد يحرق زائريه إذا زفر
 وشهدته أني خطا خطوا تخبل أو عشر
 أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين فما أمر
 وشهدت زوجك مطرقا مستوحشاً بين السم
 كالمدلج الخيران في البيداء أخطأ القمر
 فعلمت أنك كنت عقة د هائه وقد انتثر
 صبراً أبا (ملك) فأن الباقيات لمن صبر
 وبقدر صبر المبتلى طول المصيبة والقصر
 كن أنت أنت إذا تسا . كأنت أنت إذا تسر
 يا برة بالوالدين ن أبوك بعدك لا يقر
 فسلى إهلك سلوة لأبيك فهو به أبر
 ولهنك الخدر الجدي د فذاك دار المستقر

ويحسب « مجد الدين » عندما تطوف بخياله هذه الذكريات المحزنة أنه ربما كان في مغامراته من الأسباب ما عجلت وفاة علمين بارزين من أعلام النهضة المصرية . لكن الله هو واهب الأعمار ومرجعها إليه وعليه أن يمحو بفضلله آثار الأحزان والآلام .

والباحثة التي تهادى نعشها بين الكثيرين من المشيعين والمترحمين والباكين والناظرين إليه من نوافذ الدور وشرفاتها تستقر بقاياها في مدفن بقرافة الإمام الشافعي إلى جانب قبر أبيها « حفتي ناصف » .

ولو أحسنت الدولة لثبتت علامة مميزة لهذين القبرين ، فأحدهما يضم بقية من جثمان « باحثة البادية » ، والآخر فيه بقية لجثمان « حفتي ناصف » .
 لإنهما قبران يوحيان معنى التقدير والخلود .

مى الأديبية

«مى» وتصورها للأدب وفنه . صورة الكاتبة وملاحظاتها . حياة مى ومحيطها وصفاتها النفسية . المحصول العلى والأسلوب وتقدير مى للأدب . .

أما بعد فلنتحدث عن «مى» الرائدة الأديبية والكاتبة المفكرة . فن تكون تلك الرائدة التى يتجمع حول اسمها ، جموع من الشباب ، من الدارسين المفكرين . يتجمعون حول هذا الاسم فى درس يبحث ، أو محاضرة تلقى ، أو فى حديث يذاع ، وذلك فى رضا وإقبال وغبطة وانسراح . ونسائل أنفسنا لم يكون هذا الإقبال والاهتمام وفيه يكون هذا الاغتراب والرضى من أجل شخص هو فى الجملة شبيه بكثيرين ممن اشتغلوا بالكتابة والأدب؟ وأحسب أن مرجع هذا الاهتمام والرضى إنما مرده إلى حلاوة المزيج الجامع بين عمق فى التفكير وذوق فى فن الأدب ، وهى خصائص يختص بها الله من عباده من يشاء أن يعلى بين الناس ذكرهم ويحفظ للحياة أثرهم .

وقد تلاحظ خصائص «مى» فى كلمة أو كلمتين ، هى أنها أديبية ، أو كاتبة مفكرة ، فن تكون هى «مى» ، ومن يكون هو الأديب والكتائب المفكر أما هى فهى «مارى زيادة» بنت «إلياس زيادة» ، وأما اسم «مى» الذى عرفت به فقد تحدثنا عنه وتقول (١) : لذلك حكاية طريفة : لما صدر كتابى الفرنسى قامت والدتى تحتج على وتقول لى : «ما فى أحلى من اللغة العربية» ، وهى التى اختارت لى اسم «مى» . فقد تذكرت أنها عندما كانت فى المدرسة ، عهد إليها مرة بتمثيل دور «كامى» رواية «لكورناى» ، وكان مترجم الرواية قد عرب اسم «كامى» إلى «مى» ، فكانت حلاوة هذا الاسم لاتزال على

(١) انظر جريدة المكشوف . بيروت السنة الرابعة . العدد ١٤٨ فى ١٦ من مايو ١٩٣٨

شفتيها بالرغم من مرور السنين ، وزيادة على ذلك فهو اسم منحوت من أول حرف وآخر حرف لاسمها الأصيل .

فهم مى لأدب :

وأما من يكون الأديب والكاتب المفكر . فاني لا أرغب في إجهاد نفسى لتعريف الكاتب أو الأديب ، وأميل لتحديده تحديداً مذبأباً أو تحديداً متموجاً أو تحديداً إن شئت سمه غامماً أو طليقاً . أحده على نحو ما تحدد عند « مى » نفسها عندما تسائل نفسها عما هو الشعر وتدرج من ذلك إلى مفهوم النثر والكتابة الفنية فتقول عن الشعر : « هو عاطفة ذائبة ، أو فكرة متوقدة ، أو خاطرة عميقة سكبت في قالب موزون الكلام والنغمة » وما النثر إلا شعر أفلت من أقيسة الوزن الضيقة . غير أنه لا يكون مرضياً إلا إذا خضع لنواميس الإنشاء ، بما فيها من توازن الجمل وموسيقى الألفاظ ، وسرد الأفكار بسلامة وسذاجة فالنثر إذن شعر حر ، ويتسنى لكل كاتب أن يكون شاعراً في نثره ولكل إنسان ، مهما كان عادى الميول ، ساعات قليلة أو كثيرة ، يكون فيها شاعراً . فاذا كان من أهل القلم أفضى إلى الورق بهمس سرائره ، وكشف للغرباء عن خفايا قلبه ، (١)

وإني ، بغير تعمد التعمق والتحصص ، أعقب على قولها بأن الأديب والكاتب المفكر حتى والعالم ، ممن يتجمع الناس حول شهرتهم في الأدب والتفكير والعلم ، إنهم الذين تهوهم المواهب والظروف ، وتصطفهم الأقدار ، ليتأثروا بما يلامسونه من مظاهر الحياة الباطنة والظاهرة ، وليستخرجوا منه سرا أو سحرا ، وليؤثروا في الناس وفي الحياة بما تأثروا به واستخرجوه ، وليثيروا بذلك أحاسيس وعواطف وأفكارا كامنة في القلوب ومستجنة في الأذهان . وكل ذلك يكون بأدوات لفظية وبيانية فيها طلاوة التعبير ،

(١) أنظر الصحائف « لمى » المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤ ومجلة سركيس عدد يونية ١٩١٣

وبذوق فني خاص يمتنع عن التعريف المنطقي الجامع الجامد، وتدور هذه الأدوات في نغمة صوتية لفظية تطرب السمع، ويلابسها دقة في البيان ويجلسها نور من البرهان. ثم تظل آثار هؤلاء المصطفين تعمل عملها وتنتج ثمرها في ممدود وموصول من الزمان، وفي مدى واسع من المكان، وعند هؤلاء المصطفين الكثير من اللذات الروحية، والمتاع الفكري لمن يستسيغ المتعة الفكرية المتصلة برفيع المثل وعندهم فائدة لمن ينشده الفائدة وعندهم العبرة لمن يتعظ ويعتبر.

وقد تقول د.مى، من الكتاب من هو ملخص جلسات ومدون وقائع. ومنهم كولو مبس جاء لاقتحام البحار، أو ركوب الأخطار، واكتشاف عوالم مجهولة.

ولقد تحوم د.مى، ونحوم معها كذلك حول تحديد للأدب أو استخلاص تعريف لمعناه ولآثر الأديب فيه فنجدها تقول: «ألا إن لكل كائن في هذه الحياة خفقات، ولكل نفس وثبات، كل منا يعبر عنها حسب هواه.. ليست قيمة الأثر بأهميته بقدر ما هي باخلاصه. أننا لتألم دواماً، في عالمنا هذا، ونفرح على التناوب. وفي كلا الحالين نزر. وزفرات البشر على اختلاف منازلهم تتشابه. ولا يفرق بينها إلا قالب الزفرة» (١).

لقد أطلعني زميلي وصديق توفيق الحكيم على خطاب أرسلته د.مى، إليه قبل أن تنتابها المحن والأوصاب بنحو سنتين وأثبت نص هذا الكتاب لما في ذلك من زيادة الايضاح لفهمها معنى الأديب، وتصورها للأديب القادر الكبير.

قالت د.مى، :

حضرة الأديب الكبير

لأعرب عن نوع إعجابي بشهرزادك وأعترف بأنني اقتنيت «فتيان الكهف»

(١) أنظر سطور لى . الصحائف المطبوعة السلفية بمصر ١٩٢٤ صحيفة ١١ .

(٢) أنظر مقدمة أزاهير حلم تأليف مى زيادة وترجمة جميل دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢

بغية تعقب شخصية الكاتب : تلك الشخصية البعيدة الغور المتحركة ، مع ذلك ، شفاقة في الأجواء السحرية التي تشغف بها وتبدعها . فأستولى ولو استيلاء موقوتا على العنصر الأساسى فى تلك الشخصية .

ولكننى لم أفر من هذه الناحية بشيء . ولم يزدنى كتاب «فتيان الكهف» إلا شعوراً بأن شخصية المؤلف - ككل صورة صاغها المؤلف - لا تفتأ تطارد نفسها وتبز نفسها إذا ما عثرت عليها حيناً . فما تكاد تغزو فى فنها منطقة وتنشئ صورة حتى تكون قد تجاوزت تلك المنطقة وتحولت عن تلك الصورة . وإذا بكل انتهاء يدفع بتطلعها إلى إبتداء .

أشعرنى كتابك بأن بيراندللو (مصرياً يتولد عندنا . وذلك من الشواهد على أن الحضارة الفكرية فى مصر ماضية فى التوغل إذ ليس من هو أدرى منك بأن الفرق الجوهرى (المشتمل على فروق لا تحصى) بين الحضارة والإفتقار إلى الحضارة هو أن الإفتقار إلى الحضارة غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات . بينما الحضارة فى ازدهارها تسبك كلا من شتى الشخصيات فى قالب مستقل . ونسيج من نوع خاص هى شخصيتك الجديدة الكثيرة التماص والتقالص .

جديدة ؟ بل هى قديمة أيضاً كالماء والهواء . قديمة كعناصر الفكر والشعور والفن . ويخيل إلى أحياناً أن كل صورة صغتها فى كتابيك إنما أنت التقيت بها فى بعض أعمارك السالفة فجلت بها جولة الخبير فى شغف سحيق موفور الشجن والإغراء .

بيد أنى عرفت منك بخصوصيتك مع صديقنا الدكتور طه حسين ، وخصوصاً بمبادرتك إلى مصاغاته ، أكثر مما عرفت فى كتابيك .

واسمح لى أن أذكر مبلغ سرورى باعتذارك عن قبول حفلة التكريم . لكان يسوءنى - لست أدرى لماذا - أن تصمد أنت ، لرفقة ، أدبية هى حسنة فى ذاتها وفى وقتها ولكنها أصبحت كثيرة التداول ففقدت معناها الأصيل

وأشكرك لأنك عرفتني بشخصية فنية كنت أظن أن أعواماً كثيرة ستنتقضي قبل أن بنجلى مثلها في اللغة العربية .

« مى »

وإن من يعن النظر في هذا الخطاب الذى يحوطه شيء من الإبهام ، لجهد نبذله الكاتبة في تقصى الأمور ، والغوص في النظرات ، يرى أن « مى » تقدر في الأدب الممتاز وفي الأديب القدير تحرى التوغل والتحليق الموصول لاكتشاف الأسرار والآفاق البعيدة النائية . وأنها تغتبط بتلك الحركة الدائبة . في مختلف الأجواء التى تحول دون استقرار الكاتب إلى قرار وتجعله يتملص من جو إلى جو آخر طلباً للتجديد والإبداع والحقائق وما وراءها من مجهولات وأسرار .

وإن الأديب الذى كتبت له هذا الخطاب هو مصرى عربى يشغف بما شغف به سلفه من الفراعين في تصيد أسرار النفس والروح والبحث في خفاياها ومستوراتها وأن توفيق الحكيم ، الذى يدينه وبين الكاتب الايطالى « بيراند يلو » ، شبه من جهة الولوج بالمسائل النفسية ، يحرص على أن يحمل شخصيات رواياته وفنه الأدبى على التمسك بروح التسامح والتصافى والمحبة وهى الروح التى حرص السيد المسيح على أن يبشر بها بين الناس ويفريهم على التمسك بمثلها العليا ، وهى روح تقدرها كاتبة مسيحية كى ، وهى روح قد يستمد منها « توفيق » لتطعيم أدبه ، وينتفع بها في معاملاته حين تشير « مى » إلى ما كان يدينه وبين صديقه الدكتور طه حسين من شبه خصومة أدبية كانت نهايتها إلى تسامح ومصافاة ، وأنها حين تنوه في الخطاب بمختلف الأعمار تشعرونا بتذوقها للفلسفات والديانات الهندية القديمة ولما تضمنته من شؤون الحلول ، وتقمص الأرواح ، وتلاقيها وتعارفها في مختلف الدهور .

فكأنى بالأدبية الكبيرة فى جملة ما أثبتناه لها من أقوال حول الأدب وفهمه تقدر نزعات التحليق والغلو فى الخيال ، واقتحام المجهولات وسرأثر النفوس

والتعلق بالمثل الرفيعة ، والصدق ، وجمال الأسلوب ، وتخير القالب الذى تصب فيه العبارات والالفاظ والجل الموزونة الموسيقية التى تتمتع الاذن بوقعها . كأتى بالادبىة إذن تجهل فى كل ماتقدره من النزغات ومن صفات الاسلوب والقالب معنى الادب ويتراى لها من مادة ذلك ومن خلاله صورة الادب والاديب .

وليسكن دلى ، أن تصور الادب والاديب أو تتصورهما على نحو ما تقدم ، لتفهم من معنى الكاتب والاديب ما تشاء ، إلا أنه يحسن بالقارىء الفطن أن يدرك ما فى تصورهما المتحرك المهتز فى رجرة المعنى الادب والاديب . وذلك لأنه مهما يكن من توخى الإحكام فى تحديد هذا المعنى فإن التحديد ، وإن أفاد لتيسير الدرس والتحصيل العلمى ، فقد يعوزه عنصر الذوق الشخصى والمزاج الفردى ، لكى يدرك معنى الادب إدراكاً قوياً ويستطعم استطعاماً . وذلك لأن معنى الادب يخالطه ذوق المتذوق له ويواصله فنه فى هذا التذوق . والفن والذوق كلاهما يستشعره الشخص بقلبه ووجدانه أكثر مما يقبسه العقل والمنطق المحكم المستقر المحدود .

لادى ، ولا أحد منا يتفق تماماً مع الآخرين ، عند إحساسنا بصورة أدبية أو عند تقديرنا لقطعة من الادب ، إلا على وجه الجملة والتقريب . ولكل أن يستفتى ذوقه فى التقدير وإن أفتاه الأدباء أو أساتذة الادب والمختصون فلنتذوق من أدب مى ، ولكن ليتذوق كل منا حسب مقتضيات ذوقه ووفقاً لهواه .

صورة مى :

وقبل أن أسترسل فى الحديث عن تلك السكاتبه المفكرة الادبية يطيب لى أن أصورها فى هيكلها المادى على نحو ما بقيت صورتها فى خيالى وهى فى نحو الثلاثين من العمر أصورها فى مادتها قبل أن أصورها فى معناها وأدبها . فهى فتاة ربعة بضة ، ووجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة ، وبشرتها

بيضاء من غير سوء ، وتقاسيها مديحة مشرقة ، وعيناها دعجوان واسعتان
 سبلاوان ويشع فهما بريق الذكاء ، ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضاً
 أسوداً من أول العين إلى آخرها في تقوس منسجم دون أن يقترنا أو يتقاربا
 من أعلا أنف أزلف جميل ، وفيها يزدان بشفتين رقيقتين قرمزيين لا يمتدان
 في خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلا نهاية الأنف . وهي ذات جيد مليء
 لا يعيبه قصر ، وقد يزينه عقد قاني الحمرة إن لبست ثياباً قائمة اللون
 وأسنانها بيضاء فيها فلج وفي الغالب لا تفارق الابتسامة حياها . وشعرها
 أسود فاحم لامع وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها
 وجيدها فتبدو هذه الحركات الخفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادي ينسجم
 مع البسات المتواصلة الرشيقة ، تزيدها ظرفاً وتكسبها لعوية وسحرا
حياة «مى» ومحيطها :

ولقد ولدت هذه الأدبية الكبيرة في فلسطين وفي مدينة «الناصر»
 بلد السيد المسيح ولا نعلم بالدقة تاريخ ميلادها ، ولكن من المؤكد أنه بين
 سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ م . وأبوها «الياس زيادة» لبناني ، من قرية شحتول
 من قضاء كسروان ، وأما فلسطينية الأصل . وترعرعت «مى» حتى نحو
 سن الرابعة عشرة في «الناصر» التي أتمت فيها دروسها الأولية ، وكان أبوها
 وأما يعتنقان في النصرانية مذهبين متباينين ، فالأول ماروني والثانية
 أرثوذكسية . وقد تعزو «مى» تسامحها الديني ، ومجاافتها للتعصب إلى ذلك
 التباين الذي كان بين الأب والام في مذهبها الديني .

ولما انتقلت أسرة «الياس زيادة» إلى كسروان ألحقت الطفلة ماري
 زيادة «مى» بمدرسة للراهبات الاجنبيات بعين طورة في سنة ١٨٩٩ م .
 وفي تلك المدرسة الدينية التي جادت وجدت فيها أساليب التربية والتعليم من
 هؤلاء المنقطعات للعلم والعبادة كان حظها في تعلم الفرنسية وغيرها من
 اللغات الاجنبية وفعالاً وأوفى من حظها في تعلم اللغة العربية . وعرفت «مى»

في هذا الدور من حياتها بالنشاط والمرح البريء ، ودقة الملاحظة والذكاء . وميلها للكتابة والتحرير وحسن التعبير ، وحسن الإلقاء ومع ذلك كانت ومى ، غريبة الأطوار ، فكثيراً ما كانت تندفع إلى العزلة . وتخلو بنفسها وتمعن في التفكير وفي الكتابة سواء أكان هذا الكتاب ليرون الشاعر الانجليزي أو لغيره فتقول (١) :

نحن الآن في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً . وأنا وحدي في الغابة منذ ساعتين وحدي مع بيرون شاعر العنف والعذوبة الذي يضعه الانكليزي في المرتبة الرابعة من شعرائهم مع أنه يستحق أن يكون الأول بعد شكسبير ... أكان بيرون ، يدري ، أكان يهمنه أن يدري أن فتاة لبنانية ستقضى معه أو مع ما تبقى منه ساعات الوحدة الطويلة في غابات لبنان الجميلة : ... يال هذه الأصوات الشوادي ... ما لأصوات الصيف الساطع على هذه القمم تبدو من البحر متوغلة في تيه الأثير الذي لا يدرك ولا يحدد . . . يا للساعات الحلوة التي تنقضي خالية مريثة ، وحاملة ، منعمة طليقة من قيود الاجتماع ومقتضيات العالم .. بأى شوق بأى شوق أنتظرها طول الشتاء .

يا هذه البرية ، يا هذا الخلاء في لبنان .. إني لألقى على كل صخر من صخورك ، تحت كل شجرة من أشجارك ، في كل مذهب من مذاهب أوديتك نثرات من كياني - انثر الإبتسامات والزفرات ، والأحلام ، والأغاني ، والآمال والإعجاب والتأمل . . .

وتسرح خيالها في واسع الأحلام ، ونظرها في مختلف الآفاق فن فضاء إلى سماء إلى بحر إلى شجر إلى غيوم إلى نجوم . وكثيراً ما كانت سحب الاكثاب تلامس محيا أديبتنا فتغير من إشراقه دون أن تخفى منه ملامح الوداعة والجمال .

ولكي نتبين الحالة النفسية لهذه الكاتبة في هذه المرحلة المبكرة من

عمرها يجدر بنا أن نقرأ لها بعض ما كتبه حينذاك من «يوميات عائدة» (١)
 يوم الأربعاء أول مارس: قد بدأنا شهر مارس ما أسرع مرور الزمن . .
 ان أنا شعرت بالزمن متعجلاً كل هذا التعجل في حدائتي ، فإذا عسى يكون
 عندما أتقدم أعواماً أخرى؟ وبعدهُذ ، وبعدهُذ ، عندما أمسى عجوزاً .
 عجوز ، أنا؟ أتراني أصل إلى ذلك العمر؟ وكيف يكون المرم عجوزاً؟
 كيف يشعر عندئذ وكيف يفكر؟ يخيل إلى أني سأرحل قبل ذلك ، وأن
 الموت سيحملني غضة الشباب فيطير بي إلى حيث تسبح الملائكة وتلبث
 الازهار ناضرة .

أشتاق إلى الموت في هذه الأيام . ذلك لأنني لا أفهم الحياة التي يقول
 مرشدنا الروحي « أنها مشكلة المشاكل ، ماهذه الحياة التي قال عنها المرشد
 أنها مشكلة المشاكل .. وإنما سريعة سرعة السهم المنطلق في الفضاء .

ما معنى هذه التقلبات ، وهذه الحاجات ، وهذه الانظمة المتولدة أبداً
 هنا وهناك في وفي غيري ونحن نراها شيئاً طبيعياً وإن آلمتنا وأسخطتنا . .
 انتقلت من تأمل إلى تأمل حتى انتقلت إلى فكرة الموت . كم ذا سمعت أن
 هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم فما كنت أحاول أن أفهم ،
 بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح ، غير أني اليوم انتشرت
 في نفسى فكرة الموت مع لذة الشعور بها انتشار الاثخان مع الارغن العازف
 — هذه تلك النظرة الجافية التي حملتني على البكاء وأحزنتني طول النهار .
 كيف أتخلص من شعوري؟ كيف أصير صخرة؟ حدثيني أيتها الحجارة
 العسيرة ، كيف صرت حجارة (٢)

الخميس ٣ مارس مساء : وانتشر شذى البخور في فضاء المعبد عندئذ

(١) هي «ي» نفسها وسجلت هذه اليوميات بالفرنسية في ديوانها «أزاهير حلم» المترجم بقلم

جيل جيز وطبع سنة ١٩٥٢ بدار بيروت للطباعة.

(٢) انظر صحيفة ٣٥ و ٣٧ من أزاهير حلم .

هذا يوم بهي .. الموسيقى في هذا المساء على أبداع ما عهدت . لا بد أن يكون في السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم نسمعه من هذه الأرض لذن ، ولم يخطر شيء منه على قلب بشر .

إن الموسيقى لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكي وعواظني إنها تنيلني أجنحة وتطيرني إلى عوالم لا يطرقها غيرها ، أشكرك اللهم لأنك فطرتني على حب الموسيقى والجمال .

يوم الاثنين ٢٠ مارس (١) :

و كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة ، تحب الجرى واللعب والضحك وتبتسر للهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح وكثيراً ما كانت تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة فتجلس هناك ناظرة إلى البحر البعيد ، إلى زرقته الغيم واستدارة الأفق المخيم عليها ، متمتعة بجمال الطبيعة ومتهية مظاهر روعتها جميعاً ..

... أخذت عائدة تكتب ، ولا سيما أن عيد الميلاد قد دنا وأخذت أيام العام الأخيرة تسرع نحو هوة العدم . كانت تكتب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها .. فتودع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لمن عيداً سعيداً حتى إذا مضت أخراهن انطلقت إلى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء .

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوه مكفهراً ، والدير صامتاً كتوماً ، مرمرياً كالمقابر القديمة يرضن بخفاياها . وكان لعائدة يومئذ أن تفعل ما شامت دون قانون يقيد ما فتقضى أكثر أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية .

هناك جلست طويلاً والسما تمطر رذاذاً ثم نهضت إلى البيانو ،
وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد برد البيانو ،
ثم أضافت : بل البرد في يدي ، البرد في روعي ، البرد في وحدتي وغربتي
إني جليد ولكني جليد يتعذب وأشعر بأن كل ما في هذا الدير جليدي حتى ينبض
ويتعذب ويبكي .

وألقت برأسها إلى خشب الآلة الموسيقية . على أن يدا لطيفة اجتذبتها
مداعبة شعرها وخدها . فصرخت الفتاة قائلة : أتركيني لا أريد أن يشفق
على أحد لأنني لا أطلب الشفقة ،

ومن يدقق في قراءة ما ورد في الخواطر في أزاهير حلم « وفي » يوميات
عائدة ، يتبين له أن « ميا ، كانت تود أن تعامل على غير ما تعامل سائر
التلميذات في إخضاعهن إلى النظام المدرسي ، وكانت تتمرد . في وداعة على
مراعاته في دقة يريدها المدرسون ممن لا يعملون حساباً للوهاب والنبوغ
وما قد يدعو إليه أحياناً من شذوذ أو انحراف عن وتيرة المؤلف ، وكانت
منذ السن الباكرة تفكر وتتأمل .

وفي سنة ١٩٠٤ ودعت « مي ، عينطورة حيث تيقظت فيها شاعريتها
المبكرة الغضة ، وحيث تذوقت من أجوائها نشوة الجمال والتأمل العميق ،
فغادرت لبنان وعينطورة إلى الناصرة حيث مقام الأبوين وعاشت في
تلك المدينة يعوزها أنس الاختلاط بالناس في وفرة وتنوع ، وأصبحت
في شبه وحدة تمكن لها من إرسال خيالها الخصب الزاخر إلى حيث مطامع
الخيال الخصب في بحبوحة المنى والأحلام . وتقول « مي ، في لبنان
وعينطورة التي ودعتها ما يلي (١) :

« في مشاهد لبنان الجميلة حيث الجنان المزدانة بمحاسن الطبيعة الضاحكة
والجبال المشرقة بجلالها على البحر المنبسط عند قدم هاتيك الآكام الوادعة

(١) أنظر أزاهير حلم ص ٢٢ سنة ١٩١٧

كنت أسرح الطرف بين عشية وضحاها وأنا طفلة صغيرة بمدرسة «عينطورة» فكانت توحى إلى نفسى معانى الجمال ، فتفيض بها شعراً أسطره فى أوقات الفراغ وأثناء الدروس التى كنت أشغل عنها بنظم الشعر وتدوينه وقد تجمع لها من هذه المنظومات مجموعة من الخواطر وضعتها فى لغة فرنسية نقية متينة أسمتها «أزاهير حلم» وأهدتها إلى النفس الكبيرة المعذبة المتألمة «لامرتين» ونشرتها فى مصر بعد أن وفدت إليها مع أبويها فى سنة ١٩١١ . وكان نشرها تحت إسم «إيزيس كويبا» ، وإيزيس هى زوجة أوزوريس وترمز إلى مريم العذراء وكويبا كلمة لاتينية معناها «زيادة» وهو لقب «مى» ، أى ماري زيادة وكان لديوان «أزاهير حلم» تأثيره الفعال الحسن فى المجالس الأدبية وأخذ الناس يتطلعون لمعرفة واضعه حتى اكتشفت «مى» ، وأصبحت توقع على كتابتها باسمها الحقيقى .

وقد تقول الأدبية الكبيرة فى الناصرة مسقط رأسها ومكان ذكريات طفولتها ومثوى أبويها ما يلى «إيه ياناصرة . . . كم أنا آسفة لفراقك . عندما تنقضى أيامى فى بلاد مصر البعيدة أو فى غابات لبنان تعاودنى الذكرى إليك ياناصرة ، إلى سمائك الصافية إلى جوك المسكوكب ، إلى الأمسيات العذبة ، فى ظلالك السمحاء . أودلو أنى إستطعت أن أعكس فى أعماق كيانى أديمك اللازوردى . تعاودنى الذكرى إلى كل من أحببت فى ماضى من أهل وعلان ، ثملوا من هوائك العذب ، وإلى أولئك الذين فصلتهم المسافة عنى وبقوا بالقرب منى على اتساع البعد يراودون أفكارى . . . إيه ياناصرة لن أنساك مادمت حية . . . غير أنى ويا للأسف ، سأبتعد عنك سأبتعد عن أكوام غيومك ، وعن كواكب ليلك . لن أرى بعد المنازل الدافئة التى احتفظت ببسات صباى وأمانى وأحلامى . غير أنى سأحمل ذكرى كل هذه الأشياء تافهة كانت أم عظيمة ، كأعز مالى فى الوجود (١) وإن هذه الناصرة التى أحببتها مى وترنمت بذكراها هى التى ترعرع فيها

السيد المسيح ودرجت فيها قدماه . فاعتادت نفوس المتدينين المؤمنين أن ترى فيها وفى أنحائها نورانية وأن تجد عندها موعظاً للقداسة وأن تجد فى رحابها معينا للطمأنينة والاعتباط وذلك بتأثير الإيحاء والذكريات التاريخية الخالدة .

بل هى تلك الناصرة التى شعرت فيها « مى » وهى طفلة بنشوتها الموسيقية الأولى وبالهزة الفنية المبكرة تتوجه بها النفس المهيأة لتذوق الفن والجمال سواء أكان فى انسجام الأصوات أو فى تآلف العواطف والمعانى مع الكلمات ، أو فى تناسق الألوان وتساوق الحركات ولقد تقص علينا أديبتنا خبر ذلك فتقول فى غضون حديث لها عن الشاعرة التيمورية (١) ما يلى :

« كل ذلك فى تلك البلدة بفلسطين وقد بدأ الحى متحلياً ببهجة الأعراس وبهائى لزواج ذلك الوجيه السرى . إذ ذاك يهرع أهل الحى إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة فى الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل . والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافئ ويحميهم من أهوال الظلام ، فتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان .

كنت على ذلك فى ليلة فاذا بصوت ينشد على نقر العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن جفن من السحر أم سحر من الأجنان
خال بخديك أم صنع من الديان توهت فكر الأنام فى الجفن والحالات
تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذ بل بكل قواى
الكامنة التى سينمىها المستقبل وبكل ما فى الأيام التى عشتها وسأعيشها من

(١) أنظر حلية الطراز ديوان عائشة التيمورية القاهرة مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٥٢

أمل ويأس وسعادة وشقاء ولعل استشعرت ببعض ما سأفهمه بعدئذ من
نجوم الموسيقى الشرقية .

وشاعرة هذا الموال الذي ذهب على ألسنة المنشدين على أوتار الملحنين
كانت هي عائشة التيمورية وممته «مى» ، في طفولتها المبكرة يدخل إلى
نفسها اللينة الناشئة أنغاماً وترتيلات تنهادى بينها أطياف الحب والهوى
وتتايل معها مخايل الحسن ومعاني الجمال .

إذا كنت أتريث وأتباطأ قليلاً عند ذكر الناصرة وعينطورة وذكريات
«مى» فهما، فذلك لأنى أجد عند هذين البلدين أقوى الأسس التي قامت عليها
نفسية الكاتبة بما أودعاه وأبقياه في وجدانها الغض من تأثيراتها المادية والمعنوية
وإن من يتأمل في الطابع الروحي للناصرة وكذلك في الطابع المادى لتلك
البلد التي استقبلت «مى» ، حين وفدت إلى هذه الدنيا ، وإن من يتأمل في
محيط لبنان الجميل وفي دير «عينطورة» ، البلد الذي شدت فيه «مى» ، بأصول
متينة في العرفان ، وراضت نفسها فيه على سرحات بعيدة في التفكير ، وإن
من يقدر أن في النفوس استعدادات ومواهب تحفز هاشتون البيئة لتؤتي ثمراتها
ويستحشها المحيط لتنضج نتائجها، أقول إن المتأمل والمقدر لذلك كله قد يدرك
في يسر أن الأقدار أعدت شحنة من المزايا ومختلف الصفات تتلاقى وتتخالط
وتتازج وتتفاعل ليتها منها شاعرية وكاتبية ونزعات فكرية وفلسفية طريقة
تغلغل في نفس أديبتنا الممتازة . فجو ديني مسيحي تلقفها من مكان لمكان ،
وجو مليء بالجمال الطبيعي أحاط بها من كل ناحية وجوللتحصيل العلمى المتين
يجشوها في صرامة وقوة، وجوللتدليل والاعزاز، لأنها كانت وحيدة أبويها
وكانت ذكية وبهية وأن ذوات الذكاء والبهاء طالما يكون من نصيبهن التدليل
والإعجاب . وكل ذلك يدخل في صميم تكوين الأديبة الكبيرة في حياتها .

الصفات النفسية لمى :

وإذا كان المرء قابلية للتجاوب مع الأجواء والظروف والأحوال فإذا

يا ترى تكون الصفات التى تدخلها فى ذاته هذه الاحوال والظروف المحيطة؟ وماذا فعلت يا ترى هذه الاحوال والظروف دى ، فى حياتها منذ إذ سطعت هذه الحياة إلى أن أفلت ، وغيبها الردى .

و دى ، تذكر لنفسها بعض هذه الصفات التى خلعتها عليها الاقدار والظروف ، المحيطة وأنها حقاً لم تجملها أو تتجاهلها حين كتبت فى دعابة إلى صديقتها ، جوليا طعمة دمشقية ، هذه الرسالة الطريفة إذ كانت هذه الاخيرة تطلب إلى أديبتنا صورتها .

« عزيزتى .. أصحيح أنك لم تهتد بعد إلى صورتى فيها كها - استحضرى فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندى كما يقول الشعراء أو كالمسك كما يقول متمى العامرية وضفى عليها طابعاً سديماً - فليسمح لى البلاغيون بهذا التعبير المتناقض - من وجد ، وشوق ، وذهول ، وجوع فكرى لا يكتفى ، وعطش روحى لا يرتوى ، يرافق أولئك جميعاً ، استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم - وهذا هو الغالب دوماً - واطلقتى على هذا المجموع إسم « مى » ترى من يساجلك الساعة قلبها (١) ، . وحقاً كان شعرها فاحماً فيه سواد المسك والبن . على أننا إذا اعتمدنا على ما قرأناه من آثار « مى » ، وعلى ما علمناه واستنجنناه قد نستطيع أن نصف « مى » ، بكثير من الصفات ، فنصفها من جهة المعجزيات بأنها كانت متدينة ومؤمنة وكثيراً ما ارتفع بها إيمانها إلى نزعات تصوفية نقية لا يرقى إليها إلا من تتحلى نفسه بالإيمان الراسخ الشديد ويمتلئ عقله بالعلم الواسع وبالتفكير السديد وكانت متدينة إذ تنسمت من شذى المسيحية السمحاء وعطورها منذ نشأتها الباكورة وإذا استوحت من قراءتها وتأملاتها المتدبرة ما يجدر بمثلها من ذوات الذهن الصافى والنفس المطلقة الذكية أن تنسسه وأن تدركه من المعانى الرفيعة الجليلة .

وكانت حساسة أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكى مرور سحابة

زاهية في الأفق الأزرق (١) وكانت عزيزة الجانب ، شديدة الثقة بنفسها إلى درجة بالغة من الكبرياء لكي تقول لغيرها ، أتركتني ، لا أريد أن يشفق علي أحد لأنني لا أطلب الشفقة (٢) .

وكانت معتدة بشخصيتها وبأفكارها لكي تقول : « أنا أفكر بنشر صفحات من كتاب وهل يفكر هذا التفكير إلا الراشدون (٣) » ، لا بد من نشر أفكارى . سأ نشرها في كتاب متقن الطبع (٤) . وكانت طروباً محبة للموسيقى لدرجة قاصية لكي تقول : « أنها تنيلني أجنحة وتطيرني إلى عوالم لا يطرقتها غيرها . أشكرك اللهم لأنك فطرتني على حب الموسيقى وحب الجمال (٥) » ، وكانت مزهوة بما فيها من ملاححة حتى لتسكاد أن تكفر باليوم الذي يتحول فيه نشاط الشباب وطلاقة ملاحظتها في الصبا ، وقسمات وجهها النضير البسام إلى تقبض الشيخوخة وتغضنها ووهن الهرم وقد تقول : « في ذلك كيف يكون المرء عجوزاً ؟ وكيف يشعر عندئذ ؟ وكيف يفكر ؟ (٦) » ،

وكانت قوية الإرادة تعرف الصبر والمصابرة والجلد والمقاومة لإدراك ما تريد وينم عن ذلك مثل قولها ومن ذلك كثير يجب ألا يذعرنا المستقبل . علينا أن تستعد لندراً الطوارىء وكل مقدر في الحياة ... وإنه لمن البطولة أن ننظر إليه وجهاً لوجه ولا نضطرب ... (٧)

وإنها ذات استعداد غالب للشجن ، ودأب ، وجلد وشوق ، وذهول . وذات جوع فكري لا يكتفي وعطش روحي لا يرتوى كما تقول . وقد اعترفت في يوميات عائدة بما يتمرد فيها من الكبرياء وحب الذات والغرور والنزق (٨) فإذا أضفنا إلى هذه الصفات أو الملامح النفسية بعض ما قد يضاف إليها من صباغ وعطور معنوية أخرى كصبغة الروح الشرقية ، وصبغة النزوع الإنساني والطبيعة الأثوية ، التي تبدو عليها في وضوح وجلاء ،

(١) حلية الطراز مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥٢

(٢) أزاهير حلم ٤ و ٥ و ١٨ و ٦٦ و ٤٢

(٣) أزاهير حلم ٤ ، ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٤٢

(٤) أزاهير حلم من يوميات عائدة ص ٦٦

(٥) أزاهير حلم من يوميات عائدة ص ٣٩

(٦) أزاهير حلم من يوميات عائدة

(٧) أنظر أزاهير حلم

(٨) يوميات عائدة

وسمات الظرف، وخفة الروح، وشيطنة الغمز الذى لا يدمى، والتمك الرشيق الذى لا يجرح، والدل الحى، واللعوية المسترة تارة، والمتبرجة تارة أخرى . إذا أضفنا كل ذلك إلى كل ذلك فقد تتجلى طيف دى، لمخيلة من يستطيع أن يؤلف بين هذه النزعات والصفات البشرية .

المحصل العلمى لمى

والآن لنتكلم عن المحصول العلمى لمى وثقافتها وأسلوبها .
أشرت فيما سبق إشارة عابرة إلى أن التعليم الذى أصابت منه دى ، فى مدرسة عينطورة كان جديدا وتلقته عن منقطعات ومنقطعين من أهل الدين والتقوى وفى تقديرنا أن من يتعاطون فى التعليم فى الأديرة وشعبها قد يؤثروا أكثرهم طريقة أهل العلم فى القرون الوسطى إذ يعنى بتحفيظ النصوص وانتقاء أفضل ما تنتج قرائح أشهر المفكرين والأدباء من نثر أو نظم يسجم كلاهما مع تعاليم الدين وما يهيم مدخرا نفسيا ومثالا يحتذى به التكوين الفكرى والأدبى . وفوق ذلك فإن هؤلاء المعلمين لا يتساهلون فى تجسيم تلاميذهم مشقة العمل المتوالى الموصول ، ولا يفرطون فى تجسيم أنفسهم ملاحقة تلاميذهم بالمساعدة والشرح والعون على التحصيل وعلى التشجيع فى سبيله . وفى هذا الأسلوب من التعليم ما يشعرنا بمتانة الأسس والقواعد التى قامت عليها تربية دى ، وتعليمها . ولعل الأدبية المفكرة لم تهمل الإشارة إلى ما كان من واسع العلم ، ومن الفضائل والمواهب والمجاهدة عند من تلقت عنهم أصول التربية والتعليم فتقول (١) ، كم ذا أعظت معلما فى فينهن من تثير إعجابى . ولا شك أنها جاهدت كثيرا للتغلب على نفسها لأنها ليست من تلك الطبائع الكثيفة البليدة ، بل هى بالعكس نشيطة ، حادة الذكاء ذات مواهب ممتازة غزيرة العطف ، رقيقة الشعور . منذا لا يجب نور عينها المتألق؟ ومنذا لا يجب الحلاوة فى أجفانها المسبلة؟ . وتقول كذلك (٢):
« يروعى من المرشد جزالة صوته ، وصدى ذلك الصوت المتورع فى المعبد

(١) أنظر أزاير حلم . يوميات عائدة صحيفة ٣٩

(٢) أنظر أزاير حلم يوميات عائدة صحيفة ٣٨

رهيب . و يروعنى منه علو أفكاره وشرف تعبيره . لن أصف هيئته الخارجية لأن النفس إذاهى كانت جميلة ضعفت أهمية المظاهر ولكن يروعنى منه امتيازته فى هيئته وحر كته وكلامه . وجهته هى جهة العلم والذكا . والإدراك . ونظرة الفيلسوف الذى يكتب ويرحم ويتجلد وعلى كل هيئته تغلب عاطفة الصلاح ،

إن مياء تعجب بمن يجاهد نفسه ليتحلى بطيب الصفات ، وتعجب بذوى المواهب وأصحاب الفكر العالية ، وتعجب بجهة العالم ونظرة الفيلسوف ، وإن الإعجاب الشديد يدفع إلى المحاكاة وبخاصة إذا كان المعجب طموحاً ، وإذا كان وراة استعداد موفوراً لبلوغ المطامع ، فمى ، وإن كانت تتمرد على النظام المتبع الصارم الدقيق فى مدرسة الدير إلا أنها تخضع لما يقترن به من وفرة التحصيل العلى والانكباب على القراءة فتقرأ وتقرأ كثيراً دون ملل ، وتجهد المتخير المنتقى لتقرأه فى أهم اللغات الفرنسية والانكليزية والألمانية وغيرها . فمكتبة الدير زاخرة وأكثر أهله مولى بالبحث والتحصيل ، وإنهم يجاورون العلم والتعليم ، ويؤدون لتلك الجيرة المباركة حقها ، فما أحق إذن أن يقتضى الأثر شباب المجاورات الموهوبات وما أيسر لى ، أن تكون فى طليعة المحصلات . وليس من الصواب أن نحصر دائرة الكتب التى قرأتها مى وأن نصفها فأغلب الظن أنها دائرة يتسع محيطها فى الأدب القديم والأدب الحديث ، وفى عدة من اللغات الغربية بين قديمها وحديثها وسواء أبلغت هذه اللغات التى أفقنتها السكاتبه إتقاناً خمس لغات كما يذكر العقاد (١) أو تسع لغات كما تذكر مى ، عن نفسها (٢) فإن الذى يعيننا هنا أنها قرأت كثيراً منذ النشأة الأولى وبعد هذه النشأة فى عدة من اللغات .

وإذا كان القارىء الممعن المسكثر يهضم ما يقرأ ويذكره فإن أثر ذلك الهضم وأثر ذلك الذكر ليبدو واضحاً جلياً فيما يكتبه وينشره ، وفى كل ما كتبت مى ، دليل قائم على سعة تحصيلها وإدمانها فى القراءة ووافر الاستفادة مما قرأت . على أنه مهما يكن من رغبة فى الاطلاع والتحصيل

العلمى والأدبى فإن ناحية من نواحي هذا الميدان العلمى والمعنوى يكون أكثر استهواً للشغوفين بالقراءة وبكده الافهام. ولقد تحدثنا مى، عن نفسها من تلك الناحية فتقول (١) لو سألت ثلاثمائة أرباع الشيبيتين الفرنساوية والسورية كيف تعلموا ما يعرفونه من تاريخ فرنسا، لأجابوك لأنهم قرأوا فى روايات داسكندر دوماس، وهذا كاف للدلالة على كثرة انتشار الروايات بين جميع طبقات البشر وعظيم تأثيرها فى أفكار الشيبية. ومعارفها، وأمياها وعواطفها وأخلاقيها. لا شك فى أن الفرع الروائى من شجرة الآداب مرغوب جداً ولا أظننى أجد معارضاً يعارضنى إذا قلت أنه أكثر انتشاراً من غيره كالفرع العلمى والتاريخى والجغرافى والفلسفى وغيرها. لأنه لا يتسنى إلا لأفكار الأفراد التوصل إلى سماه الفكر العظيم حيث تجول أرواح المؤلفين ومطالب المفكرين. على حين أن الجمهور بأجمعه وبدون استثناء تقريباً يفهم معانى القصص ويلذ له سماع حوادثها. فلو سرت ليلاً فى بعض الشوارع من مدن مصر وسوريا. ودخلت بعض البيوت أو القهاوى حيث يجتمع عشاق هذا الفن، لرأيت جمهوراً متجمهاً حول رجل قام فى الوسط، يقص على الحاضرين قصة الزير أو عنتر أو مجنون ليلى أو غيرها من القصص القديمة. وهذه الطريقة نفسها كانت تستعمل عند قدماء المصريين والرومان واليونان فالبايظة «هوميروس» الشهيرة ليست إلا حكاية معركة حربية جرت فى الأعصر الغابرة. فنظمها «هوميروس» بأبيات حماسية جميلة وأصبح الشعب ينشدها فى غدواته وروحانه، ويترنم بها، وعاطفة الوطنية المحميدة تهز فؤاده وتحرك فيه حب النخوة والمجد والشجاعة. ومنذ فجر القرن السادس عشر أخذت العلوم بالانتشار رويداً رويداً، وكثر عدد الكتاب والمؤلفين، وتسكثرت الروايات نظماً ونثراً من تاريخية وخيالية وانتقادية، فارتفعت الأفكار وتلطفت الشعائر وصار الروائيون يتفننون فى رواياتهم تفنناً مدهشاً ويختلفون لها الوقائع العجيبة والحوادث غير الاعتيادية، ويدخلون فى خلال فصولها بعض المبادئ السامية والحوادث التاريخية والاكتشافات العلمية

(١) ابتسامات ودموع تأليف مكس مولر معرفة مطبعة المحروسة ١٩١١

وكيفية المعاملة بين الناس ، إلى غير ذلك مما يجعل الرواية مفككة مهذبة مفيدة بوقت واحد . أما أنا فلي ولع غريب بمطالعة حياة المفكرين والشعراء الذين كتبوا حوادث حبههم بيدهم . « كفرتر ، لجوفى الألماني ، دوغرازيالا ، « ورفايل ، للامرتين ، وأثالا ، لسانوبريان ، والحياة الجديدة للشاعر الايتالياني ، داتى والعذارى على الصخور ، « لدانوتيو ، الشاعر الايتالياني العصرى ، وهلم جرا .

ذلك لأن هؤلاء الكتاب لا يدونون تذكاراتهم إلا بعد أن يجتازوا من هذه الحياة مراحل عديدة ، فيعودون يوماً إلى ماضيهم ويعلمون الأفكار التي طرأت على أنفسهم والعواطف التي أنارت أيام شببتهم أو أظلمتها كأنهم يدرسون أخلاق رجل غريب عنهم ، ويحتدون في إستجواب تأثيرات تمشت في روح غير روحهم فيخلصون في إظهار الخطأ وامتداح الصواب وهي أحسن طريقة لإفادة القارىء . إذ يترقى عقله بما يقتبسه ، فيتحاشى الخطأ ويسير في طريق الصواب .

على أن إطلاع « دى » ، لم ينحصر في دائرة الأدب أو في الفرع الروائى منه أو فيما هو أضيّق من ذلك حين تميل وتولع « بمطالعة حياة المفكرين والشعراء الذين كتبوا حوادث حبههم بيدهم » ، وهي وإن تكن قد عنيت بأفعال مؤلفات راسين وكورنابل وداتى وشكسيير وجوفى ولامارتين وهوجو وشاتوبريان ودانوتسيو وبراندللو وشيللر ويرون وشيلى وويلز وغيرهم ممن لا يحصون من كتاب الغرب فقد تدلنا كتابتها على أنها قرأت أو اطلعت على ما كتبه طائفة من كتاب العرب المتقدمين وشعرائهم كالمعري والمتنبى وموسوعات الأدب كالآغانى والعقد الفريد والكامل . وما إلى ذلك كما قرأت للأدباء المتأخرين والمعاصرين كشوقى وحافظ ومطران ومحرم والكاشف وصروف وشميل وغيرهم كما أنها طالعت سير من اشتهرت من الأدبيات وقرأت لهن وبخاصة « مدام دى سيفينتى وجورج ساند ومدام دى ستال ، وغيرهن من عربيات وشرقيات كالتيمورية واليازجية والباحثة وغيرهن

بل ويتجاوز إطلاعها حدود الأدب الصميم إلى الفلسفة وتاريخها في القديم والحديث وفي الشرق والغرب ، إلى التاريخ العام ، إلى فقه اللغات وحياتها ، إلى علوم رياضية وطبيعية وحيوية مما هيا من ذهنها دائرة للمعارف ، وجعل منه موسوعة من الموسوعات تحرص على الاحتفاظ بما فيها ، وتحسن تسميره ، وقد تنوع بما تحمل من كثرة ووفرة في المعارف ، وتزاحم الأفكار .

أسلوب «مى» وفهمها للأدب :

على أن كل مخزن في النفس من العلم والمعرفة والعواطف والإفعالات لا بد أن تخرج للناس خلاصته ونتائجه ، فيما يقال أو يدون ، أو فيما يظهر من أفعال ، وإن خروج النتائج الفكرية وظهورها عن أهل الأدب في كتاباتهم إنما يكون في أسلوب خاص يميزها هو أسلوب مى ؟

ويحق لى هنا أن أنقل صحيفة رائثة ونصاً بليغاً كتبه «مى» عن الأسلوب الكتاتفي ثم أعقب على ما كتبت ليتحدد أسلوبها في الذهن تحديداً . وهذه الصحيفة التي أنقلها من كتابها عن باحثة البادية قد نقلها قبلي المرحوم الدكتور يعقوب صروف وعلق عليها . وإني حين أثبت هذه الصحيفة وأثبت التعليق أثبت تعقيبي على ذلك قد أصل إلى تصوير واضح لأسلوب «مى» وتحديده تحديداً :

قالت مى عن الباحثة (١) « وما حاجتي إلى الكلام عن الكاتبة؟ إننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالقدرة الكتابية مكثفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرره حكمتنا الصامت ، وهو أنها كاتبة كبيرة يطلق الناس عادة إسم الكاتبة الكبير على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون إن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ، حتى ولا بالصغير ، لأنه ليس كاتباً على الإطلاق . إنه ينقصه ما يسميه الإفرنج « قماش الكاتب » أي السر الذي يقود الفكر إلى إختيار الألفاظ الصائبة ، ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة . وينقصه خصوصاً التلييب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام .

(١) مى عن باحثة البادية ومقدمة الدكتور صروف ص ز .

ماهى الكلمة؟؟؟

الكلمة التى تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والانفعال . الكلمة التى تعنى أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها . ماهى وما هو سر إنتخابها الابدعية لجميع البشر؟ والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام فما هى تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائى والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب خفاياها؟ . . كيف تنبض فى الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة السطور ، وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى ، ورنين النجاح والظفر . لماذا تهتز الألفاظ تارة كالآوتار ، وتولول طوراً كأمواج البحر العجاج ، وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطق من سحيق الذرارى ومبهم الآمال القصوى؟؟؟

قال فكتور هوجو - إن الكلمة كائن حى . وقد تكون خالقاً ، ساعة تجعل الخيلة ترى ما لا يرى ، وتنظم فى القرطاس ألقاً مفعماً بالكائنات الجميلة ، وتصيح سحراً يصير الغائب حاضراً ، والعدم وجوداً .
 إن للإفصاح عن الفكر أساليب جمّة ، ولكن لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد ، وهو الذى يتفق مع ذاته . إن أفلاطون الذى اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ، ظل ينسخ كتابه « الجمهورية » إلى عمر الثمانين ليزيده تحسّيناً وإصلاحاً . تلك لأن الكتابة التى يراها الكثيرون مسألة هيئته هى أكثر الفنون دقة وعسراً . ولا أظن اكتشاف القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب ، هذا القطب الآخر ، على الكاتب الذى عنده شىء يقوله ، لأن نفسه تفيض به وتحته على إعلانه . كلمات النفس حركات خفيفة نظيفة ، فكيف يسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكشيفة؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس ، الوثابة الكثيرة الإهواء ، فى تموجها وتجنّيبها المباحث ، من الفرح إلى الحزن ، ومن التحنان المذيب إلى النعمة البركانية؟ (وكان ميا هنا تصف نفسها ولو أنها فى صدد الحديث عن الباحثة) إن ذلك لسر تملص من القواعد والنصوص ، وترفع

عن أن تلقيه للضائر إلى الألسنة ، وهو كل مقدره الكاتب ، أو كل ضعفه وقد علق الدكتور صروف على هذه القطعة بما يفيد قدرة الابتكار الذى انصفت به د مى ، لإبراز المعانى والتشابه والاستعارات الطريفة .

ومما تقدم ذكره وظهر على هذه الصحيفة المنقولة ، قد نشترك مع الدكتور صروف فيما يعزوه للكاتبه من مقدره فى ابتكار المعانى ، ونجد أن د ميا ، وهى ترى أن فى أسلوب الكاتب صورة لنفسه ولما حوالى هذه النفس من الصفات ، قد تعيننا بما كتبت على تحديد لنفسيتها ولأسلوبها إذ وصفت نفسها وهى فى سياق الحديث عن الباحثة ووصفها لها بأنها من النفوس الوثابة الكثيرة الالهواء فى تموجها وتحنيها المباحث من الفرح إلى الحزن ، ومن التحنان المذيب ، إلى النعمة البركانية ، أو فيما قالته كاتبتنا الكبيرة عن نفسها لجوليا دمشقية من أنها (أى مى) من النفوس التى تمر عليها سحب ، من وجد وشوق وذحول وجوع فكرى لا يكتفى وعطش روحى لا يرتوى ، أو من النفوس ، ذات الخيلة الحادة النشيطة الطيارة التى تتعب صاحبها كما كان يقول عنها الراهب مرشد الدير الذى تكونت فى رحابه ثقافة الكاتبه فى نشأتها الاولى .

سواء أكان بعض تلك الصفات أو كلها أو أكثر منها يتعلق بمى أو يتصل بها اتصالاً متيناً ، أو ضعيفاً فإنه من اليسير أن يتكشف المتكشفون فى أسلوب الكاتبه ، وفى أثناء صفوه البادى الباسم ، سحياً قد يرسلها التحيص الشديد والتعمق فلا يلد هذا الأسلوب إلا لمن يدركونه من الممحصين والمتعمقين ، وإن فى الأسلوب حركة وتوثب يستشعرهما نشطاء النفوس المتوثبون المتحفزون ، وفيه ارتفاع وتسام فى الخيال يراه من يحلقون بأبصارهم وبصائرهم فى أبعداً أجواء السماوات المعنوية والخيال ، وفيه من المبتكر فى التشايبه والمعانى ما ليس بالجارى ولا بالمبدول فى ميدان الكتابة ، ولا متداول ومعروف فى عرف الكتاب ، وفيه ذوق وفن يستشعره أهل الذوق والفن وفيه شحنة من الانفعالات الأخاذة للنفس فتهمز نفس القارىء الحساس هزاً ، فهو أسلوب خاص بمى لا تقلد فيه أحداً إلا ذاتها وإن بدت فى بعضه

ملاحم الأدب الغربي من ناحية الرواقى والعاطنى . فأسلوب الكاتب المنطبع بذات نفسه يطيب ويروق لصنف معين ممن تنسجم نفوسهم مع نفسية هذا الكاتب وتتوافق نظراتهم ومعلوماتهم وذوقهم مع ذوقه ومعلوماته . ولذلك تتعدد أصناف الأساليب بتعدد الكتاب ، ويصح أن تتعدد الأوصاف لهذه الأساليب . فمن أسلوب فنخم ، لأسلوب رقيق . لأسلوب طلى لأسلوب محكم ، لأسلوب غامض ، لأسلوب عابس . لأسلوب باش ، لأسلوب مهلهل ، لأسلوب مرقع ، لأسلوب منوع الصوت والاداة ، لأسلوب وتيرى موحد ، لأسلوب رفيع ، لأسلوب وضيع ، لأسلوب غائم ، لأسلوب مشرق لأسلوب مستقيم هادى . لأسلوب ملتو معوج ، لأسلوب مركز ، لأسلوب متشعب ، لأسلوب قاطع حازم ، لأسلوب متردد متحير ، لأسلوب مظلم مبهم ، لأسلوب منير صفو ، لأسلوب منمق ، لأسلوب مصقول ، لأسلوب ناعم أملس ، لأسلوب خشن جاف ، لأسلوب طلق ، لأسلوب مقيد ، لأسلوب حافز مثير ، لأسلوب مخدر ، وقل ماشئت من الصفات التى تربط بين نتاج الكاتبين وأذواقهم وبعض صفاتهم النفسية وبين ذوق القارئين ودرجاتهم فى تقدير ما يقرأون وأن الاساليب كمنغمت الموسيقى تتعدد وتتعدد تطبيقاتها وفقاً لمختلف الآذان السامعة . على أن الكاتب الجدير بوصف الاديب لا بد أن يكون له أسلوبه الذى ينسجم مع صفة الأديب الراقى أن الأسلوب الادبى الجدير يروق لمن يدركون أرقى الانفعالات والعواطف والافكار والمعارف الانسانية السليمة الصادقة التى تكون للراقين السليمى الطبع والفطرة من البشر وإن اختلفت بهم الأزمنة والاممكنة .

فأسلوب مى فى الكتابة يدركه المتذوقون للأدب الإنسانى العالى فى أبهى وأنبث مافيه ، وأصنى مافى سلامة الفطرة الخالدة إلى مايشاء الله لها الخلود وهو من نوع الادب الذى تمتزج فيه العاطفة الصادقة بالعلم المنطقى الصحيح يجمع بين الوجدان العميق البعيد فى أغواره أحياناً إلى نور العرفان وصرامة العقل الجازم المدقق فى بنيانه والمحقق فى طوفانه . فهو وجدانى منطقى فى

الغالب وإن طغت عليه أحياناً تموجات العاطفة وحركات الوجدان . وهو كثيراً ما تناسب فيه موسيقى الالفاظ وترنيمها حين يجتمع بعضها إلى بعض وفي وفاق مع المعاني فيرتب مجموع جرسها تنغيم ترتاح له الاذن الحساسة للنفحات . ولقد يسكون من السكتاب من لا يبيحون لأقلامهم أن ترسم ألفاظاً لا تستسيغها أسماعهم ، فهم يكتبون بالقلم وبالاذن في وقت واحد ، إن صح هذا التعبير . وقد تسكون كاتبنا من هذا الفريق حين تعنى باتقاء لفظ لحسن وقعته في سمعها . على أن ميا وإن كانت تعنى بموسيقية الالفاظ عناية بالغة وتقدر ما في الصناعة اللفظية من أدب وجمال إلا أنها تقول : (١) « ولكن تلك الصناعة اللفظية وجه من الوجوه العديدة في الادب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فيزة الادب في أن يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة . فلا يكون بعد إلا أدباً . ، ومن ذلك يتبين أن كاتبنا الادبية تقدر في الادب جمال اللفظ المتلبس بغزير العلم ، وبدقة المعاني مع تهيئة ذلك وتقديمه للناس بطريقة فنية وذوقية خاصة وتقول في نفس الخطبة : « إننا معشر الشرقيين عربون في الادب وإن أدياننا عمدت إلى اللهجة الادبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . وأن أجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على أن اللغات السامية حماسية غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ، ميكانيكية . فنحن نعتز بذلك لأن اللغة الادبية هي لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارىء الاضافى ، (٢) .

وشخصية الإنسان في نظرهم ، تتكون من عوامل التاريخ والإختيار والذكر واللغة والفن وبخاصة الأدب . والأدب عندها ، هو من أهم المومات للشخصية . وربما كان الأصح أن أقول انه حجر الزاوية في تكوين الذاتية

(١) جريدة المكشوف بيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لى بالجامعة الأميركية .

(٢) جريدة المكشوف بيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لى بالجامعة الأميركية .

الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية ، فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شئون وأحوال ، في حين أن الذاتية هي ما نظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشئون وفي جميع الأحوال ، (١) ويبدو لي أن مدلول الأدب ومعناه لم يتحدد في ذهن «مى» ، تحديداً تاماً واضحاً . فهي تحسه وتأنس به وتمتع بملاحمه وتذكره في أشتات من القول أكثر مما تركز فيه حديثها تركيزاً وأكثر مما تلم بأطرافه المترامية الممدودة في دائرة معينة ، وفي جهة محدودة وأكثر مما تمين معالمه أو تبدى صورته للغير في ألوان بينة زاهية خالية من الغيوم . وأحسب أن تحديد الأدب قد ينتهي عندها إلى تلك الحالة التي تتكون عليها النفس الرشيدة حين يتكون لها مفهوم الحياة ، أو بعبارة أخرى فهم الإنسان لهذه الدنيا وفلسفته وشعوره حيال أمورها المتنوعة المتشعبة ونظراته في قيمة هذه الأمور وتقديرها ومن ثم قد يتناول هذا الإنسان شئون العيش ويسعى فيه سعياً وفقاً لما تلميه هذه الفلسفة، ولما توحيه هذه النظرة، ولما يوجه إليه هذا التقدير . وعندئذ يتذوق الإنسان هذه الحياة ويتعاطاها على نمط في راق يتصل بأهداف رفيعة ، ومثل عليا ترضاها وتسلم بها الإنسانية السليمة المتعالية ، أو ربما يتعاطاها هذا الإنسان على نمط خسيس مبتذل وفقاً لما يلميه عليه أدبه الخسيس المبتذل وما يتصل به هذا الأدب من أهداف وضيعة خاصة ثم تقول «مى» ، نحن في حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أماننا صحيفة الأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . فلماضى ينبثق إنبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتب الأديب ذخائر الماضي فكذلك هو يطلع على شئون الحاضر ، متصلاً بكبار الحوادث التي تهز قومه في النعمة وفي النعمة ، في السخط وفي الرضى . وإذ يرى الحوادث داخلية في دور الغليان والشعوب فواردة صاحبة كالحلم في فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق

(١) جريدة المكشوف بيروت السنة الرابعة ١٩٣٨ من خطبة لمى بالجامعة الأميركية .

والانشراح عندئذ تتم في داخله عملية عجيبة ولا العمليات الكيميائية - يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل ، فينقل إلينا منها ما ينقل ، جاعلاً لكل شيء أهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث ، والشعوب ، ينبعث لنا الهزيع الفتان فيلفتنا إلى أن في طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن في أرواحنا إمكانات توسع أمامنا أفق الحياة ، وترى دمي ، أن للأديب من نفسه قوة تسوقه إلى الأمام ، وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته في المناعة ، وعن سر قدرته في الابداع ، وذلك السر الدفين المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير ، والاحساس والتكوين لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها .

وسرعان ما يتصل الحاضر المستقبل في فن الأديب ، جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته فيشب حاملاً معه الفكرة التي تنيل الحياة قيمة في تذوق الجمال الحى ، والأدنى ، وفي ممارسة الجمال تأملاً وسعيًا وجهاداً ، رافعاً يديه مشعل الحب العتيد للوطن ، وللرجاء وللتقدم وللشهادة والبطولة ورضاء غريزة الحرية . . وتدرج دمي ، في رسالة الأديب فتقول :

رسالة الأديب تعلمنا أن لكل قطر من الاقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسكبها في قلبها وتدمغها بطابعها الخاص . . رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميسكانية أدوات نستعيدنا ونستخدمها لا أدوات استخدمنا وتستعبدنا . . رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التي ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشد احتياجاً منا في الماضي إلى ثقافة أدبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وأن هذه الحضارة الآلية المتنقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل تععم بها وتشقى ، دون أن يكون لنا يد فيها ، تدعم أما الثقافة الادبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً وساعة فساعة مدى الحياة . رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربي على تعدد أقطاره وحدة واحدة

تدخل مـكاناً فسيحاً في القارتين الآسيوية والإفريقية ويستطيع أن يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للاديب فنا مغرباً ينيلنا الثقافة والقائد بيننا نحن نرتفع في بحبوحة من اللذة والمتعة ، في جو مغمط أخاذ هو في الواقع جو الحياة .. رسالة الاديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا الادبية الممتازة عن سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية . إذ بها لا يغيرها تقاس مواهبنا ويسبر غور طبيعتنا . وهي التي تثبت وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا .. رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التي تجذبنا من كل صوب لتركزنا في شخصيتنا الآبية .. رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شيء ونستفيد من كل شيء باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ؛ نازعين إلى الجمال الحسى الأني حيال كل دمامة خلقية مساجلين النفوس والعناصر ؛ مناجين المنظور وغير المنظور لنجعل من حياة متناثرة متداعية ؛ حياة متناسقة متماسكة . أي شيء لا تعلمنا رسالة الأديب؟؟ ولقد هيأت همى ، الخطبة المشار إليها ؛ وضميتها خلاصة أفكارها في رسالة الأديب وفي شئون أخرى ، في غضون إبلاها من الحالة العصبية التي نزلت بها وقبل وفاتها بنحو ثلاث سنوات أو أربعة فكانت الأفكار التي وزعتها في قولها وقتئذ تامة النضج مكتملة باكتمال السن ، وعظيم التحصيل ووفرة التجارب . فأنت ترى أن في نظرة هذه الكاتبة للأدب وللأديب ما يدل على تعليق أهمية كبرى على أنها العاطفة العميقة الحساسة المتأثرة بكل شيء ؛ وعلى التأثر الصادق المتعاغل في شعور الكاتبة ، وعلى اللفظ الجميل الأنيق الذي يعبر عما في نفس الأديب وعلى العلم الواسع المتين والمنطق السليم ، وعلى الذوق الذي ، لا يقع تحت التعريف والفن المتصل بهذا الذوق وعلى النزوع إلى الجمال في المحسوسات وفي الأفعال ، وذلك كله يدخل في

مفهوم الادب الذى يستمد منه الافراد غذاء لنفوسهم ، وتستمد منه الشعوب ما تطمح إليه من المسكنة والتقدير .

وإن الادب الذى أشاعته «مى» حين يشمل جميع هذه العناصر المتقدمة الذكر يكون أدباً ، كما أشرت لذلك ، له أسلوبه وفنه وترنيمه ونغمته الخاصة فهو أدب لا يداخله التقليد إلا همساً ، وسمته الواضحة ذوق وفن وتفكير وعلم غزير . وكل أولئك يتلاقى فى نفس الكاتبة ، يمتزج بعضه ببعض بنسب تقدرها مواهبها تقديراً ليجعل من أديها مزيجاً ذا طعم خاص ، وذا طابع معين يتشخص به أدب مى .

وهذا الطابع أو الاسلوب ، أو القالب الذى له شكله الخاص المميز هو ما يصور لنا طرافة الأدب مهما يكن لون الموضوعات التى تصب فيه وحالاتها من جريان وابتدال . وإن فى جمال القالب وما يشيع فيه من سر التأثير لنانج من تجاوب الانفعالات والعواطف المتوقدة ، والتوجيهات الروحية والنفسية الصادقة الحية المرتفعة ، إن فى ذلك كله ، سر الادب وخاصة الاديب . وذلك ما فهمته «مى» ، وذلك ما يفهمه الكثيرون من الاديباء وأهل الذوق والفن .

ويطيب لى هنا أن أقول لا أمين الريحاني بعض ما كتبه فى سنة ١٩٣٨ حول «مى» فى هذا الصدد حين قال (١) .

«من أطيب ذكريات الفريكة زيارة الأنسة «مى» ، منذ نحو خمس وعشرين سنة . هبطت إلينا من ضهور الشوير مع والديها ، رحمهما الله ، حيث كانوا يصطافون . كانت الأنسة «مى» يومئذ فتاة دون العشرين من سنها على ما أظن . ولا أزال أتصورها فى ثوبها الابيض وقبعتها القوراء المزدانة بالزهور ، وفى ابتسامها الساحر ، وروحها الزاخر بالنور ، نور الحماسة والكياسة والطموح . فتاة شرقية لبنانية العين مصرقة باللهجة العربية اللسان والروح . هبطت إلينا من عل وهى يومئذ تدنو من باب الحياة الادبية بخطوات ثابتة ، وقلب مفعم بالأمال والاحلام تريد دخول البيت لتملأه من النور الذى أحملتها مشعاله يد الهية .

(١) جريدة المكشوف بيروت ١٩٣٨ العدد ١٤٨

وكننت أنا يومئذ قد دخلت البيت وأضرمت فيه ناراً تدفئ وتذير ،
وتزعج كذلك الابصار . فيها شرر وفيها دخان . أى نعم . كان قد ظهر
الجزءان الأول والثاني من الريحانيات وفي الأول مقال في وادى الفريكة .



قد أشرت إلى الجزئين الأول والثاني من الريحانيات ، وإلى نار أضرمتها
تخلل نورها الشرر والدخان . وبكلمة صريحة بسيطة أقول . كنت يومئذ
اتهم بالكفر والإلحاد وكان الأب «لويس شيخو اليسوعي» يبذل جهده
ليردني إلى حظيرة الايمان ، ليردني إليها حياً أو ميتاً لله من هذا الكافر الريحاني .
وكان كل ليلة . بعد صلواته ، يشحذ سكينته ، رحمه الله ، ويروح متبعي
في جريدة الآباء المحترمين ومجلتهم في البشير والمشرق . . . وفي هذه الضجة
من حياة الناسك ، ناسك وادى الفريكة ، كان الناس ، إلا نفرأ من المختارين
يتمتعون عن زيارة الوادى . لذلك أسجل بالفخر والإعجاب اسم الآنسة
مى . فاهمها ولا روعها ما كان يقوله الأب «شيخو» ، وما كان يقصده . فقد
كانت حتى في تلك الأيام ربة نفسها ، مستقلة في فكرها ، وفي أميالها ،
ومرامى أدبها . ولا همها ولا روعها أن في الريحانيات ألو انان من الأدب حرام
سياسة ودينياً واجتماعاً .

ما خشيت على نفسها ، ولا على عقيدتها ، من الألوان الحرام
والسكاكين المشحودة . ومن غريب أمرها في هذا الاستقلال الفكرى
والعصمة الروحية أنها كانت الصديقة الحميمة للدكتور الفيلسوف شبلى شمبيل
وهي المعجبة بنبوغه وبأدبه ، وببنالة عقله . وكانت كذلك الولية الصافية
للدكتور العالم يعقوب صروف ، وهي المسكبرة لعلمه ، المحترمة لأدبه المعجبة
كل الإعجاب بسمو أخلاقه ومن المعلوم أن للدكتورين الفاضلين رحمهما
الله ، نزعات كان يسميها الأب شيخو وأمثاله من هناترة الإيمان نزعات
كفرية هائلة هي أشد من نزعتى أنا وأفضع .

ومع ذلك فقد بقيت الآنسة مى ، في طهارتها بعيدة عن هذه النزعات في

من تجلهم كل الاجلال . لا وربك ما تأثرت بشيء منها .

والنشوء والارتقاء - داروين - بنجر - الاقراض السديمي - التكون
الذاتي - الحلول المطلق العدمية .. أرجوكم يا أسيادى الأساتذة أن تأذنوا
لى فى درسها على مهل .. وإن الله ليهدى من يشاء ويضل من يشاء .

ولقد استمرت مى، فى ضلالها ، أو فى هديها كما تشاء أنت . فلا أنا
ولا الدكتور صروف ، ولا الدكتور شميل استطاع أن يغير عقيدتها
الموروثة . أن يدخل على إيمانها شيئاً من الاضطراب ما استطعنا أن نفسده
الفتاة بالافتراضات السديمية . ولك أن تقول أنه لم يلصق بها شيء من هذه
العلوم . وما « علق » عليها شيء منها !

ولقد حافظت الأنسة مى على درة الإيمان التى تتعهدا بالصقل
والتنظيف على الدوام الكنيسة الرسولية الكاثوليكية المقدسة . وقد
حظيت بمقابلة رئيس الكنيسة الأكبر ، قداسة البابا ، ست مرات والأعجب
من ذلك أنها ظلت إلى قبل محتتها بستة أشهر تحترم آباء الكنيسة وتجزل لهم
العطاء - قداسات من أجل والديها .

إنى أذكر هذه الحقيقة البارزة فى حياتها لأردفها بحقيقة أخرى . وهى
أن الأنسة مى على ما قاسته فى الستين الاخيرتين من العذاب الروحى ،
والألم الروحى والجسدى ، ومن الحزن الذى يولده الاضطهاد ، والجور
والخساسة ، والجبن فى الناس لم تفقد إيمانها بالله ، ولم تفقد إيمانها بالحياة
وبالمبدأ الإلهى الذى ينير الحياة فى أجمل مظاهرها ويجعلها فى أحطها وأظلمها
شيئاً يرثى له ولا ينبذ .

هذه هى الحقيقة الكبرى فى حياة الأدبية النابغة تثبت . فوق ما قدمت
أنها منذ نشأتها مستقلة حرة فى تفكيرها تستشف مواطن الإلهام حيثما
وجدتها ، وتستوحى الحياة فى مظاهرها الكلية والجزئية وتطالع وتدرس
وتفكر دون أن تقتدى بأحد من تقدمها أو عاصرها من الأدباء .

وإن لإيمان «مى» الأعلى ، إيمانها بالله وبأكوانه ومخلوقاته ، لهذا الإيمان رواسى لا تهزها أنواء الحياة ولا تدركها عوادى الشك والقنوط . وأحب أن أزيد على ذلك كلمة فى أسلوب «مى» الأسلوب الذى تتخذه للتعبير عن أفكارها وعقائدها . فما لا ريب فيه أن لها فى الإنشاء أسلوباً خاصاً بها - بمزاجها ، بعصبها ، بذوقها ، باتجاهاتها ؛ وبشئى العوامل النفسية ، والذهنية ، والروحية . فتراها فيه الأدبية المحدثه والأدبية المحققة والأدبية المرشدة والأدبية اللاهية . فيتفرق النور خلال هذه المزايا الشخصية ويكسبها فى كل مظاهرها شيئاً باهراً ساحراً . هو باهر السحر فى نقاوته وأغيامه فى هدأته واضطرابه فى نغمته وحنانه فى سخريته وتهكمه . إنه ليندر فى كتابنا اليوم نساء ورجالا من تتجلى هذه المحاسن كلها فى أسلوبهم فانك لتقرأ «مى» ، وإن كانت تردد المؤلف من القول المبتذل من الأفكار ذلك لأنها حتى فى ما قد يكون من مألوف أو مبتذل فى أديها تكسبه بأسلوبها المزية الفنية التى ترفعه إلى مستوى المبتكر من الأديب ، والجدير السديد منه وهكذا اتجه الريحانى فيما كتب عن «مى» إلى إبراز ما فى أسلوبها من مزية متصل بذوقها ومزاجها وعلما وشئى نوازعها النفسية ، بل هى على الجملة مزية الموهبة لكاتبة أدبية ولاديها طابعه الخاص .

ومما هو جدير بالملاحظة فى أسلوب «مى» أنها كانت شديدة الحرص على تخير اللفظ الأنيق المصقول الذى يحسن وقعه على سمعها وترتاح أذنها لجرسه وموسيقاه ومن الأمثلة على ذلك وهى متعددة فى نواحي ما كتبت ، ما أجده فى كتابها « ظلمات وأشعة » حينما كتبت عن طائر حبيس قضى بعنوان دمعته على المغرد الصغير فقالت (١) « ما أسرع ما تتمزق أثواب الورد ، وما أتعب القلوب الشديدة التأثر . يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتشقق بوطنه جلايديها ، وتنتثر وريقاتها كذلك ملامسة الأثم النفس المنفردة ليشير منها الأثجان ، ويستقطر من محارها العبرات .

(١) ظلمات وأشعة . دار بيروت للطباعة ١٩٥٢

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر .

أما أنا فلا هذه العطايا تغرينى ولا تلك المواهب تستهوينى شئ . واحد تام الجمال فى تقديرى وهو ما يشترك فى تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب . شئ . واحد ينبه إعجابى وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا وهو زهرة نادرة المثال ، شمس الذكاء والمعرفة تحيىها ، ومياه العواطف العذبة تروىها . ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح فى ثنياته طائر صغير نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة فى عينيه ثم سقطت عليه يد البشر فضيقت دائرة فضائه وسجنته فى قفص كان عشه فى حياته ونعشه فى مماته .

طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً . غرد لسكآبى فأطربها ، ناجى وحشتى فأنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ونادم وحدتى ففلاها أحياناً .. إلى أن قالت والآن أنظر إلى القفص .. لقد صمت الطائر المغنى ، وجد الشعاع المحيى ، فلا ترى فى القفص إلا قليلاً من الشمس المائتة .. مات الصغير الغريد ، مات صغير حشاشتى .. مات عند بزوغ الفجر ، وقبل انقضاء الربيع . ولا يبقى فى خاطرى إلا الأثر من ذلك اللحن المتواضع البديع . شعاع ذهبى أطل حيناً واختفى فى كبد الآفاق ، ابتسامة لطف أشرقت ، وما لبثت أن توارت فى أخفية الظلام .. نعمة حب تموجت ساعة ثم تلاشت فى هاوية السكينة ، صديق صغير غرد فأطربنى ، وسكن فى جوارى فأنسى .. هذه قيثارتى فقدت أحد أوتارها فناجت بلابل أنغامها فما أتعس القلوب الشديدة التأثير .. وما أمر الجرح الصغير الذى يفتح جراحات كبيرات .

ومما فيه طابع الأسلوب الجميل المتأنق ما كتبتة دى ، عن نهر الصفا (١) إذ تقول : هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحولت الورود إلى أشعة سحرية .

(١) أنظر ظلمات وأشعة

هنا اغتسل قوس قزح ، فترك في الماء من ألوانه ألحاناً فضية .
 ومن دماء الأحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمديّة .
 هنا بعث الأفق بأسراره إلى الأرض مع خيوط من الأثير ذهبية .
 هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام
 وتلاشت اليقظة بالنام ، هنا ماجت حمام الشعر ، وغنت أطيّار الأنعام . هنا
 لثمت النسيم شوق وهيام ، ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام .
 وما كتبه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن في أسلوب مى وصدق فيه وأحسن
 ما يلى :

لم يكن أسلوب «مى» الطريف الجديد إلا بدعة في الأساليب العربية فلا
 تجد فيه نثر الجاهلية وسجع كهانها . ولا تصادف فيه أثرًا من طريقة عبد الحميد
 الكاتب وتلاميذه ، ولا ترى فيه طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ومن
 كان بينهما ، ولا تجد فيه ركافة كالتى شاعت في العصر التركي ولا ترى فيه
 تطرف السوريين في أمريكا وإباحتهم التى يعتبرها المحافظون من اللغويين
 تهجماً على قداسة اللغة العربية . نعم لا نرى في أسلوب مى واحداً من هؤلاء
 ولكنك تراهم فيه جميعاً .

أما أسلوبها حين تتقابل بحثاً أديباً أو موضوعاً اجتماعياً فقد كان في غاية
 من السلاسة والسهولة والوضوح فالفكرة عندها واضحة ظاهرة لا تصيدها
 من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها
 ولا إبهام واللفظ عندها سائغ حلو الوقع على الأذان ، فإذا قرأتها لا تمسك
 نفسك من الإعجاب بها والافتناع بمذهبها وفي عبارات «مى» حين تكتب
 أو حين تخطب موسيقى تستسيغها الأسماع ، إلى أن قال : ولكن ميا كانت
 تحرى اختيار بعض ألفاظ قليلة الاستعمال لتخلع عليها الحياة من جديد
 ولتديرها على الألسنة والأقلام عوداً على بدء . وجهادها في ذلك معروف
 مشكور . وقد تعدل عن لفظة مألوفة أو صيغة من الاسم والفعل معروفة

إلى لفظة أخرى وصيغة ثانية أقل دوراناً على الألسنة وشيوعاً على الأفلام أو أكثر إمعاناً في العامية .

فهي تقول الرياح تعتول بدل تعول . وتقول حولك الأقوياء يتسكحون بدلا من يكافون .. وكان لها غرام باستعمال صيغ المبالغة من اسم الفاعل ، واملها بذلك تقصد إلى التهويل والمبالغة والتأثير في نفس سامعها أو قارئها . فالجرماني عندها «مبطاش» لا باطش ، واللاهث والهاثف عندها لهاث وهتاف بصيغة فعال للمبالغة وتقول عن نفسها « أنا التي ترائى طروبة طيارة ، بدلا من طائرة .

كما أغرمت باستعمال صيغة أفعل دلالة على الوصف لاعلى التفضيل ولعل هذه الصيغة كانت تقع من نفسها موقعا حسنا فقد آثرتها وأدارتها على كلامها فهي تقول « يتركه جثة في قبضة الموت الأغير والصبح ، الأ نور ، والنادى ، الأسى ، .

ويشير الأستاذ عبد الغنى حسن إلى عناية « مى » بوضع ألفاظ عربية لمصطلحات أوروبية فيقول « ودليلنا على ذلك أنها بعد سنة ١٩٢٣ أخذت تضع المصطلح العربي الجديد وبعد قوسين بعده تضع اللفظ الإفرنجي فتقول تساق الألحان ، هارموني ، والنغم « ميلودي ، وأحيانا كانت تضع اللفظ الإفرنجي مكتوباً بحروف عربية ثم تضع بعده المصطلح العربي فتقول . الشعر الليريسكي أو الغنائي ، والشعر « الديدان كيسيكي ، أو الشعر التهذيبي « والدراماتيسكي ، أى المفجع « والأيسكي ، أى القصص الحماسي .

وأشار الأستاذ عبد الغنى إلى الأسلوب التهكمى عند مى فقال :

« رأيت مى ، انتشار كلمة فلان ومدامته فغمزت مستعملها بقولها لا يخفى على ذوى المدامات وغيرهم — وسمعت رجلا عربيا يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه وأن بعض حروف الحلق فيها كالخاء والحاء يمزق الحلق ويثقل على السمع فعز ذلك الانسلاخ البغيض على «مى» وكتبت مقالا عنوانه « تكلموا

لغتك ، وظلت تلذع هذا العربي بسخريتها العفيفة قائلة أنه من الطراز الحديث المكرر ثلاثاً ، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين .

وظفق حضرته يتكلم الفرنسية جاعلاً الرء منها غيناغنا (١)

ويطيب لي لمناسبة الأسلوب أن أذكر الرأي الذي أثبتته الأستاذ عبد الغنى حسن للمرحوم المازنى حين سئل عن أسلوب مى فقال أسلوب مى سليم نقى فقد أشرت إلى قلة عقلى لما تلقيت كتابيها . ذلك أنى أكره الأسلوب العاطفى أو الوجدانى وقد نسيت وأنا أقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة وأنها لا تكون مخلصه لنفسها وطبيعتها إلا إذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها . وقد كانت مى امرأة صادقة الانوثه غير طائشها ومخلصه لجنسها وطبيعته أعظم إخلاص . وأحسب أنى قد بينت كيف كنت قليل العقل (٢)

أما المرحوم الدكتور يعقوب صروف فإنه استشهد ببعض ما كتبتة «مى» عن أسلوب باحثة البادية فى الكتاب القيم الذى أخرجه أديبتنا الكبيرة عن الباحثة مما يدل على إكباره لى وتقديره البالغ لكتابتها إذ يقول (٣)

فإثباتها (والضمير يعود على مى) الصمت للحكم والعمق لليل ، والنضان للحياة ، والأنين للشكوى ، والرنين للظفر ، والولولة للألفاظ ، والتموج للنفس ، وقولها أن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكتاب الكبير ولا بالصغير ، وأنه قد يكون بين سطور الكتاب لب خفى ينشر بينها أشباح النور والظلام وأن البعض يستطيعون أن يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاء وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائى وأنه لا يصلح للكتاب الواحد إلا أسلوب واحد يتفق مع ذاتيته ثم قولها «إن من يحاول الوصول إلى هذا الأسلوب محاولة يهوى

(٢،١) أنظر كتاب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن حياة مى مطبعة المتنظف والمنظم

بالقاهرة ١٩٤٢ .

أنظر مقدمة كتاب باحثة البادية لى بقلم يعقوب صروف

فى دركات التصنع والتكلف وتتعثر قدماءه وقلبه بذيول الزوائد والحواشى
الحاضرة بين المتداولات كالحلوى على أطباق حلوانى العيد، أو يداهمه مرض
الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقى بأنه حكم عليه بسف التبن، كل ذلك
من المعانى التى تكاد تكون مبتكرة فى العربية وقد أيدتها بأقوال أعظم شاعر
فرنسى وأكبر فيلسوف يونانى .

حسبى هذا الشاهد من فصولها للدلالة على بلاغتها فى التعبير عما فى نفسها
وعلى ابتكارها المعانى وإفراغها فى قوالب جديدة، واستعارات أنيقة .

وقد يحدثننا فؤاد حبيش فى جريدة المكشوف عن اليقظة الذهنية التى
كانت لى حتى فى غضون محتها وأيام مرضها وعن تخيرها للعبارة الموافقة
لتضعها فى مواضعها، وعن تحسسها لنغمة الألفاظ وجرسها فيقول (١)

بين يدي الآن مسودة محاضرة مى (٢) «رسالة الأديب إلى الحياة العربية،
مكتوبة بالخير وعليها بعض التصحيح بالقلم الرصاص . قالت مى «فرب زفرة
حزن أو صيحة نهوض وجدت صداها، فإذا بالقلم الرصاص قد ضرب على
كلمة نهوض، واستبدالها بكلمة استبسال . والفرق بين الكلمتين من حيث
المعنى الذى أراده الكاتبة ظاهر لا يحتاج إلى شرح . وكتبت مى عبارة .
أما الأشجار ذات الحيوية المنبعا فالأعاصير : (وكأنها رأأت أن لفظه المنبعا
لا تؤدى المعنى المطلوب، أو أنها لا تطابق كلمة (الحيوية) فاختارت لفظه
(العصية) وأمثال هذا التدقيق فى الاختيار كثير . ورغبت إلى مى أن تصحح
(بروفة) محاضرتها بنفسها، فحملت (البروفة) إليها فإذا هى تحسك أذنها
الموسيقية فى كثير من الجمل فتقلبها رأساً على عقب، وتقدم كلمة هنا، وتؤخر
كلمة هناك . جاء فى محاضرتها قولها ولنا من اتساع اللغة ومرورتها ما يمكننا
من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضى مولانا سيديويه من

(١) أنظر جريدة المكشوف العدد ١٤٨ فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٨ ببيروت

(٢) محاضرة القيت ببيروت ١٩٣٨ م

من الناحية الواحدة ، وترضى الواقع والذوق من الناحية الأخرى . .)
فدفرت أذهانهم قرب الناحيتين فقدمت عبارة (الناحية الواحدة) على عبارة
مولانا سيويوه وأبعدت بين الناحيتين بنسبة موسيقية عادلة .

وورد ذكر الكتب المقدسة الثلاثة فاستوقفتنى عندها وقالت بعد تفكير
قليل ألا ترى الأفضل أن نستعمل هنا عبارة (الكتب الدينية) فيكون
أقرب من الواقع ، فقد لا يؤمن هذا بقداسة كتاب ذلك ؟ ومهما يكن من
تنوع فيما كتب الكتاتيون من نقاد الأدب عن أسلوب « مى » ، فإن أظهر
ما يتميز به يدور حول الذوق الفنى ، والتأنق فى تخير اللفظ المصقول والعبارة
المصقولة المنعومة ومزج ضروب من الأساليب بعضها ببعض مع وضوح
عصية للغة العربية وسريان العاطفية والروح الأنثوية بين السطور مع
ملاسة ذلك بطيوف الشجن ، ومع بروز الطرافة فى الكثير من التشبيهات
والاستعارات .

الطريقة التفكيرية :

وكما أن لمى أسلوباً فى كتابتها وإنشائها لتدوين ما تجيش به نفسها من
النوازع وما يمر بخاطرها من الأفكار فإن لها إتجاهاً وسبيلاً فى التفكير
يرجع أكثره إلى ضرب من المثالية المتطلعة إلى الخير والمحبة ، والذوافة للفن
والتوافة للجمال . وتلك المثالية التى أعزوها لمى هى مثالية تحوم حول شئون
الناس ومشكلاتهم النفسية والاجتماعية وهى مثالية لاتمعن فى البعد عن الواقع
ولا تطوح بنفسها فى أجواء الخياليات وأبعاد الأنثريات كما يرى العقاد فيما
ذكره فى حديثه عن مى مع الأستاذ عبد الغنى حسن . وأديبتنا الكبيرة مع
مثاليتها المعتدلة تحب أن تصف ما ترى وتؤثر أن تعبر عما تشعر به وذلك
ما كان يراه المرحوم أنطون الجميل حين تحدث عنها كذلك مع الأستاذ عبد الغنى
حسن على أن ميا وإن كانت فى نظر العقاد والجميل لا ترتاح للإمعان فى
أجواء الخياليات ، وتؤثر أن تدنو من الواقع إلا أنها كانت تتحاشى المسف

والبغيض من هذا الواقع فتعلو عن الخاسى وعن الدنى والمريب نحو ماهو جميل ورفيع ومحبوب. ولذلك فاني أميل إلى أن أعزو لأدب «مى» صفة المذهب المثالي ومنازعه وإن صح كذلك أن تنسب لها الواقعية. على أنه مهما يكن من صلة للذهبين بقلها الخصيب فإن رذاذ الدموع وسحب الرأفة والمحبة ترف وتحلق كثيراً على ما دونته هذه الكاتبة وفي الحق أن ميّا كما ذكر خليل تقي الدين: قد خلدت عن الناس صوراً عذبة ناعمة تسكاد تظفر ألوانها وموسيقاها وأنغامها إلى عيني القارىء وأذنيه وحواسه جميعاً. (١)

ولو أردنا أن نتبين مرجع هذه المثالية المتصلة بمعنى المحبة وما إليها من تراحم وإحسان لوجدنا أن همساً خفياً تتكون عناصره من وراثة متأصلة لما يسمى بالروح الشرقية وهي روح تلابسها الغيرية وتستمد كذلك من نزعات التسامح والمحبة التي توحىها مسيحية سمحاء دانت لها مى وكذلك من استعداد عاطفي عام للأثوية ومن استعداد مرهف خاص بهذه الأدبية لكل ما يمت للخير وللجميل. أقول أن من ذلك كله تكونت العناصر التي كان لها تأثيرها وهمسها الخفي الدافع لجميع قوى الكاتبة وأسلوبها التفكيرى لكي تتوجه بقلها في شؤون المجتمع وفي أحوال النفس البشرية فكثيراً ما يتألق المعنى الإنساني العام فيما ترسله «مى» من وحي جنانها وقلها. وطالما تتلمس المناسبات والأسباب في سياق ما تكتب إلى تعزيز القيم المعنوية العليا وتمجيد الفضائل ودحض الرذائل، والحض على المعروف والنهي عن منكر، وإيثار كل حسن بما لقلها من تأثير وطلاوة لتجيبه للقارىء. وبما فيه من قوة لكي تبرز دمامة القبيح وبشاعته وتبغيضه وتحقيره عند الناس. وشأن «مى» في ذلك هو شأن المثاليين الذين يبشرون بما ينبغي أن يكون وينفرون من كل ما هو مذموم، ولا تخلو كتبها عند موآتاة الفرص من غمز للمظالم وإجلال للبركات والحسنات. وأقدر أن روح المسيحية وإلهامها نفوس من

(١) مى. من كلمة لحايل تقي الدين في العدد ١٤٨ من المكشوف بيروت ١٩٣٨

يؤمن بها صادقا، في التعلق بمبدأ التضحية والاستمانة بالآلام لخير البشرية في سبيل تسويد معنى المحبة ونشرها بين الناس، أقدر أن في تلك الروح ما هيا لمى دعوتها المتكررة في تقدير الشدائد والمحن والآلام وفضلها في تطهير النفوس وإصلاحها وتنقيتها وتجنبها مآثم الخطايا ومزالق الزلات . وأما بعد الإشارة إلى التحصيل العلى لمى وأسلوبها في الكتابة وفي التفكير فننتقل إلى نواحي فلسفتها العامة والاجتماعية .

فلسفة مى العامرة والاجتماعية

وسبحان من يهيم النفوس لما يهيمها ويودعها متنوع الشواغل والمشاكل ويستدرجها إلى مختلف الجهات وإلى متباين الأهداف ، بما يدفعها لاستنفاد جهودها في سبيل ما يهيمها ، واستغراق الوفير من حيوياتها ونشاطها فيما يشغلها وعلى ذلك فمن الناس من يأسره المال فيلبيه عما عداه ومنهم من يهيمه الجاه ولا يرضيه سواه ومنهم من تستنفد طاقته الشهوات والاماني الرفيعة ومنهم من يصرف جهوده للرغبات الوضيعة ، ومنهم من يهيم بالإصلاح والتعمير ومنهم من ينزع إلى الإفساد والتدمير ، ومنهم من يشغف بمعرفة العلل البعيدة القاصية ومنهم من لا يمتد نظره إلى الأسباب القريبة الدانية ، ومنهم من هو كالأنعام أو أضل يستكفي من الحياة بأن يتغذى وينمو ويقضى حين ينتهى العمر ، ولا مناص من انقضائه ، فلا يعنى بههدف يرمى إليه ، ولا يتجشم التفكير في حل مسألة أو فهم معضلة .

وهكذا تتعدد المقاصد بتعدد ما يشغل الناس أو بما يجوز أن يسمى بتعدد فلسفاتهم التي يرتبون عليها مسالكهم ومساعدهم وآدابهم ونظراتهم في هذه الحياة ، والتي يترتب كذلك على أقدارها وقيمها أقدار الناس وقيمتهم في هذه الحياة وفي مراتب الوجود الاجتماعي فيكون منهم من يذكر ويشكر ، ويكون منهم من ينسى وينكر ، ويكون فيهم من يذم ويلام وسبحان من له التصريف في شؤون الخلق وله

الدوام . وإذا كان في وفرة القراءة والتحصيل الفكري والأدب والكتابة لتصوير النفوس وإظهار ألوان من الحياة الاجتماعية ما يبدو أنه استأثر بنفس « مى » ، واستغرق لها فإن وراء الكتابة والأدب والتحصيل تستجن نزعة فلسفية أخاذة بملكات الكتابة ، قوية السيطرة عليها ، ملحة على عقلها إلحاحاً شديداً .

والنزعات الفلسفية التي طالما تطوح بالفكر في بيداء المجاهيل عندما يعرض الإنسان لمسائل ما وراء الوجود المحسوس ، ولمواضيع ما بعد الطبيعة حين يتطلع إلى معرفة سر الحياة ، أو كنه العلة الأولى ، أو فهم حقيقة النفس ، أو إدراك الغاية من الوجود أو غير ذلك من أمثال تلك الموضوعات العويصة التي شغلت البشرية منذ الأزل ، وستظل تشغلها على الدوام أبداً دون أن يصل الناس فيها إلى حلول ، ودون أن يظفروا منها إلا بهذا الإرهاق المصنى المخصب للنفوس والجدير بالعقل الإنساني وبعضته وجبروته ورقبه ، أقول أن هذه النزعات الفلسفية قد احتلت من نفس كاتبنا مكاناً واسعاً رحباً . وقلما يخلو منتوج قلم هذه الكاتبة مما يشعر القارىء بأن «ميا» تريد أن تحوم حول ما حوم وما يحوم حوله الفلاسفة في التطلع إلى كشف الأستار والطموح إلى بلوغ العلل البعيدة والغايات القاصية . وإنها لترجع من وراء ذلك حقاً بلا طائل ، وبما لا يشقى النفس ، كما رجع ويرجع غيرها من الغابرين واللاحقين . على أن ما ترجع به بعد تحويمها الفلسفي من الافتراضات والتخمينات وأشباه الحلول كثيراً ما تلازمه ثروة قيمة من التفكيرات والتعبيرات والاستفهامات والإشارات التي تثير في نفس من يقرأ لمى تلك الرغبة الرفيعة العليا بالبحث والدرس والتحقيق ، والكاتب الذي يستطيع بكتابته أن يهيء جواً معنويًا وتفكيرياً ينتشى به قارئه ويرغب فيه وينعم به ويطيب به نفساً إنما هو الكاتب الحق وأدبه إنما هو الأدب الذي يطول الانتفاع به ، أو يبقى إلى مدى مديد . وقد يقال نحو ذلك في أدب مى فهو

أدب له قيمته ووزنه لأنه يستمد مجراه من معان إنسانية كريمة ومن قيم رفيعة هي من صميم ما يشغل البشر وهي من أشد ما تأثرت به نفسية «مى» ، وتستطيع بذلك أن تؤثر به . وفي رأيها أن «الأدب هو فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً . . . والشرط الجوهرى للكاتب الأدبى هو أن يكون ذا إحساس قوى يتأثر بجميع الحوادث فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الأدبى وكيف يؤثر من لا يكون متأثراً ، (١) وعلى ذلك فيصح على أدب «مى» فى جملته أن يكون من تلك الآداب المقروءة الطويلة الأجل التى تهز أوتاراً فى قلوب القارئين .

ولا أريد أن أجشم نفسى كثيراً فى تتبع النزعات الفلاسفية وإحصاء التنبضات التفكيرية العميقة ، التى تبدو هنا وهناك بين الصفحات التى ديجتها براعة الأدبية العربية على أننى أثبت بعض النصوص للتدليل على ذلك وعلى سبيل المثال ، فهى تقول فى محاضرة ألقىت بالجامعة المصرية فى سنة ١٩٢١ وعنوانها غاية الحياة ، ما يلى :

أيتها السيدات موضوعنا اليوم « غاية الحياة » ، ولا أعرف كلمة خطيرة كهذه وأكثر تفلتاً من حدود التعريف . إن لفظة الحياة فى معناها التام تشمل الكون بأسره بما يرى وما لا يرى . وهى ذلك التيار الخفى النافذ فى كل شىء ، المحيط بكل كائن ، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ما ألقى فى روعنا أنه من روح الله . كأننا نحسب الحياة نسمة نور وانعاش منطلقة من صدر تلك القوة الكبرى التى نسبح جميعاً فى بحار وجودها ونسبها الله

فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأتى لنا تعيين غايتها : من ذا الذى يجرؤ على تعيين غاية الفلك فى دورته ، والنجوم فى سيرها ، والمذنبات فى تكوينها ، والشموس فى تشعبها واحتراقها والنيازك فى تساقطها فى الأرض حجاراً سوداء؟ من ذا الذى استشف من البحار غاية المد والجزر ، ومن القمر غاية الاكتمال والانتفاض ، ومن النوع البشرى غاية مدنياته وأديانه وأنظمتها

(١) أنظر سوانح فتاة لى ص ٤٣ . مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩٢٢ .

وكل ما يتقلب عليه من الأطوار؟ كيف تتحرى غاية الربيع بحلولة بعد الشتاء فيتبعه الصيف المتلظى الذى لا يلبث أن يزول أمام الخريف الحزين؟ وما غاية الغصين فى تمايله وتجرده وإيراقه، وغاية البذور فى النمو والانتاج والذبول؟ نحن نعرف بعض الاسباب الطبيعية فى الخليقة وما يترتب عليها من النتائج وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء؟ لغز رائع لا يحله الإنسان مهما ارتقى علماً وفضلاً وإخلاصاً: والإنسان الذى هو جزء من هذا الوجود غير المدرك، أكثر ما يستعمل كلمة «الحياة» ليعنى كمية أيامه على الأرض ومجموع أعماله وكمية أيام كائنات أحاطت به وقد امتاز عنها جميعاً بما أوتى من إدراك وإرادة وحرية ..

ولسكن للإنسان وحده قوة التمييز والمقارنة والاستنتاج والإبداع فى أتم أنواعها الممكنة .. له وحده أن يتصرف بالموجودات التى يفعلها ويعالجها ويستخدمها لحاجته. وهى تعنو له صاغرة لأنها لا تعقله وتبقى دونه مهارة ومقاومة وإن جمحت يوماً وفتسكت به ساعة غضب عنجهى فتلك طوارىء عاديات كالصواعق والفيضان والظوفان والأوبئة التى لا تدوم غير وقت ما. ولسرعان ما يهب لمقاتلتها واختراع ما يمكنه منها ويقيه شرها ولئن خنعت الموجودات إلى النظام السكلى الذى يسيرها قهر أفعاشت عيشتها الصخرية العشبية البهيمية وأدت وظيفتها المعينة جاهلة صاغرة فإن الإنسان وفى ذلك ميزته ونخره - لا يكتفى بتلك العيشة الابتدائية العنصرية ولا يعيشها مرغماً بل سعيداً مدبراً مختاراً. وهو فوق ذلك يخلق لنفسه غايات قومية وسياسية وفكرية وقامية جمّة، تتسابق إلى تحقيق غاية قصوى يوجه نحوها مجهوداته، ويجمع أعماله فى شبه قناة حيوية تنتهى إلى تلك الغاية البعيدة تلك الغاية المحبوبة التى يخالها تناديه وقد اتخذها كعبة آماله:

عنده هذه الكلمة «كعبة الآمال» المرادفة لموضوعنا (غاية الحياة) يقف الكل ويزفر زفرة حارة إذ يتساءل (ما غايتى من الحياة؟ أأعرفها أنا

وهل تشعر أو تبالي بوجودي؟ ما هي يا ترى أثروة أبتغي حشدتها؟ أجاه أم قدرة أم حال أنعم فيها بجميع أسباب الهناء، وأتذوق خلالها لذائذ الفوز والسيطرة؟ أم هي علم لا أفناً أذهب في غوره ليكشف لعافلتى حجب الحياة وأسرارها؟ أم هي إرهاف ملسكاتى الذهنية والنفسية إرهافاً يرفعني فوق أقراني ويجعلني موضوع إعجابهم؟ أم هي تقوى تدنيني من خالقي وتطمئن بها نفسي؟ أم هي شخص أيقظ في حياة الوجدان العجيبة وتمثلت لي في ذاته صفات الألوهية المعبودة حتى صرت أستهين لأجله بكل عزيز وأجازف بكل مكنون؟ وأين أنا الآن من ضالتي الممشودة؟ ماذا أكسبني جهاد الأعوام الغابرات، وإلى أين أوصلي ذلك الجهاد الطويل؟ ماذا جنيت من السكد والتجلد والرجاء وبعد دموع أرسلتها وأخرى أمسكتها، وزفرات أطلقتها وأخرى كتمتها، أراض أنا عن نفسي وعن غيري أم أنا كما خطوت خطوة إلى الأمام تقهقرت إلى الوراء خطوتين؟ أم أن ما كان يبدو لي حقيقة محسوسة إنما هو خداع فتان كلما جريت نحوه ملتمساً ودنوت منه مستعظفاً ارتد وتباعد كما يرتد وتباعد السراب في الصحراء وعدت أنا إلى عذاب محتوم واصطبار جميل؟ غايي من الحياة السعادة فهل أنا سعيدة؟

وهنا يقف كل فترة أخرى ويزفر زفرة جديدة سعيداً كأن أم شقيماً لأنه لا بد لكل قلب من فراغ لا يملأ، ومن حاجة لا تسد، ولأن النفس البشرية تشبه بركة الماء مهما راققت صفحتها وتلاها سطحها حركها قليلاً تنعكر وتكفهر بما ركذ في أعماقها من الأوحال. وفي أعماق كل نفس آلام ثاوية وتذكارات جاثمة، وجراح صديدة اندمل بعضها على فساد يكفي أن تلمسها يد أو إشارة لتمضها الأوجاع فتعمد إلى الاستغاثة والائنين.

إن السعادة غاية الجميع، أما السبيل إليها فمختلف باختلاف الطبائع. حرما الناس طويلاً فازداد شوقهم واحتشدت في قلوبهم الكظوم والضغائن حتى لسكان الانسانية تتحرك اليوم فوق بركان نائر. ففي كل مكان حروب

وتقاتل على المنافع . ومن الغريب أن النقيضين ، أى يقظة الوطنية ، وانتشار الاشتراكية يسيران جنباً إلى جنب ، والأمم جميعاً على وجل واضطراب تنتظر من وقت إلى آخر تغير الأحوال ووقوع ما كان يرجى أو ما لم يكن يرجى .

بيد أن الحياة العامة لا تأخذ من حياة الفرد سوى ساعات معدودات وفى أشد حالاته تمسماً تظل حياته الداخلية على ما هى تقريباً . يظل له عوزة الذى لا يملؤه الغنى العام تظل له آلامه الجسمية والروحية يتجرع مرارتها ويحتمل من وخزها ما لا يخدره التهليل العام . ترى ما هو تأثير تلك الأفراح الوطنية الجميلة فى العليل اليأس وفى المعدم الذى ليس لديه ما يسد رمق صغاره ، وفى القلب الذى حوى جمرة تأكل سويدامه ، وفى الصدر الذى اكتظت فيه الغموم ؟ تلك لمحات ابتهاج تسطع ثم تترك القلب أكثر وحدة وسواداً ، والعليل أكثر أسفاً على أيامه المتتابعة كالأظلال السعادة هى الغاية وما السعادة فى حقيقتها ، وعلى تنوع صورها فى الأذهان سوى تطور متتابع نحو حالة تستوفى عندها جميع القوى وسائل النمو والانبساط والظهور كاملة وافية بأقل ما يمكن من المقاومة واللام ، هذا إذا تعذر الخلاص منهما على الإطلاق ، وهل من تطور ونمو بلا عمل ؟؟ لا جمود فى الخليفة حيث كل مخلوق حتى ولو اختفى وراء مظاهر الموت يؤدى وظيفته ويتم ما وجد لتتميمه . وكذلك كل خلية من خلايا الجسم تعمل لتؤدى وظيفتها . غير أن ذلك العمل الآلى ليس ليغنى الفرد المفكر المريد الذى لا تكفه الغاية العامة فى الكون ، إنما هو يعمل عملاً خاصاً إضافياً يتفق مع غايته المختارة تتمرن عليه بمجهوداته ويمارس به قواه . تلك السعادة التى يحلم بها لا بد أن يسعى إليها سعياً خصوصياً حثيثاً أريباً فى تخنيه وتشعبه وتنوعه ؟ ومع ذلك ليست كل قيمة العمل فى أنه موصل إلى الغاية المقصودة ولكن قيمته المعنوية الكبرى فى كونه آلة الاستقلال الفردى .

وخالق الاحتياج إلى الاعتماد على النفس .

وما هو الاعتماد على النفس إن لم يكن مكيف الذاتية الحرة التي تدرك أهمية احتياج الآخرين إليها وتدرك كونها مخلوقة على صورة الله ومثاله . لأن الله وهو المبدع الأعظم ، خلق الإنسان وأودعه قوى الإدراك والاختيار والابتكار التي لا تظهر إلا في العمل . فهذا العمل الذي يخلقه الإنسان ويتقنه يصبح إلهاً صغيراً . بالعمل يكبر في عيني نفسه وتسجم حرله هالة الكرامة المعززة عناصرها من داخله المنتشعب ثقة بكفاءته وأقدامه . بالعمل يرفع رأسه الذي أحناه الطلب والاستجداء ، وينظر إلى الناس كأشباه لا هم فوقه ولا هم تحته بل هم إخوان يعملون في سبلهم المختلفة . وينظر إلى الحياة متفرساً في ملاحظها بلا وجل لأنه تعلم في مدرسة الإعتماد على النفس أن المصائب والمحن والمعاكسات الداخلية والخارجية تعجز عن النيل من قواه الجوهرية ، وأن تلك الرزايا إنما هي عناصر اختبار ، له أن يستخرج منها دروساً قيمة ، ومعلومات جديدة ، تزيده قوة ونبلًا . ليس النبيل من ورث نسباً ومالاً فاستخف بالناس والأشياء اتكالا على وراثته بل النبيل من خلق نفسه ، وما زال بها كل يوم يمجدها بعمله ليخلف للمستقبل ثمرة جهوداته . النبيل من لا ينتظر «الظروف» ، «الحظ» ، «والبخت» تلك الكلمات التي يتملح بها الذليل الخامل ، بل ينتهز الفرص ليجعلها صفحات جليلة في كتاب عمره . وما الأيام والساعات سوى فرص ثمينة للغاية يستخرج منها العجائب وحسبي هذا القدر من محاضرة مي في غاية الحياة لا يبين أن هذه الكتابة حومت حول التفسير في معنى السكون ومبدعه ، وحول الغايات من مختلف الظواهر الطبيعية ، وحول البشرية وما يتميز به الإنسان وحول متنوع مقاصده وقيمتها ، وحول نزوعه إلى السعادة وماهيتها ، وحول معاني أخرى فيها من الدقة والعمق ما في المعاني المتقدمة . ثم تمضي المحاضرة في موضوعها لتحصره في موضوع المرأة وما يصح أن يكون لها من الغايات ولا استرسل فيما ذهب إليه من ذلك إذ لذلك موضع خاص وحديث آخر .

على أن النزعات الفلسفية التي نجدها بلا تكلف وبلا تجشم فى جزء من محاضرة لى قد نجد أشباهاً لها فى أكثر من محاضرة وأكثر من مقالة، وأكثر من كتاب لهذه الكاتبة المفكرة . وحسبك أن تقلب حينما اتفق كتاباً من كتبها ككتاب (سوانح فتاة) لتجد فيه مثل هذه الجملة ؟ وكل ما يحيط بنا فى الحياة سر ولغز لكن حواسنا المثقلة بأحمال المادة تجيب عنا الأنوار فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندرك لها حقيقة إلا بقدر ما تتفق مع أطماعنا وشواغلنا ، (١) أو لعلك تجد فى نفس الكتاب ما يدلك على أن للكاتبة أوقاناً تود فيها لو أنها اختلت بنفسها فى حضن من أحضان الطبيعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر ، معرضة عن كل شىء . ناسية كل شىء ، مكثفة بمناجاة الأصدف والحصى والذرات حولى وبإلقاء هذا السؤال على الكون الصامت لماذا أوجدتني أيها الكون وماذا تريد منى ، (٢) وفى حين تجد مى بتأثير من عواطفها وميوها الفلسفية تتوق للاسترسال فى هذه النزعات والتحويمات الروحية والفكرية السامية نجد أن عقولها الجبار المرتوى من مختلف ينابيع العلم يأخذ بزمام قلبها أحياناً ليرده عن الاندفاع فى هذه البيداء الفلسفية المحيرة فتدرف ما تقدم من القول بهذه العبارة « أويقات سجلت فى كتاب الحياة أتمنى رجوعها لحظة وبأسف لانقضائها قلبى ونكن فكرى ليس ليشتتها لأننا فى عالم نشوء وارتقاء . ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهناك جزء آخر يبقى متعلقاً فى أطلال الماضى . تانقاً إلى المستقبل المجهول لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء ، وقد نجد (مى) تتعدى مسائل الفلسفة العامة وما وراء المحسوس إلى النظر فى شئون النفس البشرية ومستغلقاتها فى سياق حديث لها عن عردة الملك قسطنطين ملك اليونان والأسرة المالكة إلى وطنها على أثر وفاة ولده الملك اسكندر ونتيجة لهذه الوفاة نجد أدبنا تثبت فى مقالها ما يلى : ألم يمر فى مخيلة (قسطنطين) خيال

(١) سوانح فتاة صحيفة ٧٥ . مطبعة الهلال القاهرة ١٩٢٢

(٢) سوانح فتاة صحيفة ٦٩ . مطبعة الهلال القاهرة ١٩٢٢

الموت وولده على فراش المرض؟ ومن يدري؟ ألم يتحرك في قرارة نفسه شيء يشبه الخوف أو التمني؟ لا لا أريد استطراد التحليل وسواء أكان هذا الوهم ممكناً أو مستحيلاً في قلب والد أو والدة فإن النفس البشرية تبقى دواماً هي هي في ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها. ولئن كانت العواطف الأبوية قوية في الغالب فلكم ضحى من ولد لغاية شخصية، أو لأجل قريب بل لأجل غريب إذا أحسن ذلك الغريب لمس الموضوع الحساس من حب الذات أو علل طمعاً من أطماع النفس أو مناها بإحدى رغائبها.

لمحة مرغبة في قلب الإنسان. فلنحولن النظر إلى ما هو أقل ادلهما ما، وقد نجد كأنبتنا في ساعة من ساعات تشاؤمها وأحزانها تحوم حول فلسفة الموت والحياة فتقول (١) ألا إنما قيمة الحياة في رهبة الموت الذي هو جزء منها - وإذا أدرنا البصر في أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة والأجسام المشوهة والأعضاء البتراء، ورأينا ذوى العاهات الأخلاقية الذين يزلون في المجتمع المصائب والأوصاب ويظلون عالة عليه طول حياتهم إذا رأينا ذلك أدر كنا صورة الموت وعرفنا فيه محسناً كريماً.

ثم أى اسم غير اسمه يخفف من حزن الحزين، وأى خيال غير خياله يلطف من يأس اليأس؟

وقس على ما تقدم فقد تجد في كل ما كتبت «مى» ما يشير إلى منازعها في الفلسفة العامة وأمور النفس والآن فلا تنقل إلى فلسفتها الاجتماعية.

فلسفة «مى» ونظراتها الاجتماعية العامة:

يستطيع الباحث أن يتلقت النظرات الاجتماعية «لمى»، من شتى مقالاتها ومحاضراتها ومختلف ما دونت من الفصول لكن كتابها «المساواة» الذى بسطت فيه رأيها في هذا المعنى، وعالجت فيه أسباب التمايز، هو المرجع الأول المعين

(١) سوانح فتاه صفحة ١٠٤. مطبعة الهلال القاهرة ١٩٤٦

لمن أراد أن يبحث في فلسفة «مي» الاجتماعية وفي المسائل البارزة في حياة المجتمع . ففي التمهيد لهذا الكتاب ترسم لنا الكاتبة صوراً لضروب شتى من التمايز بين الناس ، وتشير عندئذ إلى شكايه الشاكين وليس جميع هؤلاء ليسلمون بأن شكايتهم تعارض نظم الطبيعة بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان مشيرين إلى الشمس تسكب النور والحرارة على الأشرار والصالحين . ويستشهدون بالهواء يسدى الحياة إلى الحيوان والإنسان ولا يكون على الجماد ضئيلاً . ويدلون إلى الأرض تعشش في حضنها المعادن وتكلاً المرعى لكل ذى نسمة يرتعى . ويومنون إلى منبسطات البحار تضم مختلف السمك والوحش المائى من كل فصيلة ، وحجم ولون . ويذكرون للحد يحوى الموتى قاطبة على نمط واحد ليدفع بهم إلى الانحلال فريسة وإلى التحول مادة . فإذا أجزلت الطبيعة الهبات ودعت جميع بنينا إلى امتصاص ثديها المدرار فأنى للكبرياء أن تخلق التمايز والتفاضل ؛ وتجعل بين البشر فروقا وسدوداً فنشل عضواً لتقوى عضواً ، وتحرم قوماً لتمتع قوماً ؟

هم يتساملون عما حلل هذا الجور المرهق ، ويصيحون بقوة انفعالاتهم واحتياجاتهم : المساواة ! إنما نطلب المساواة ، (١)

إلى أن تقول : ومشكلة «المساواة» هي الآن أم المشاكل واسمها يطن من كل صوب . وإنما مع الحرية والإخاء لتتهز نفسى ؛ وقد لمستها منذ أن كان لى نفس تتحرك . غير أنى وصلت إلى نقطة أود عندها تحليل كل شعور وكل تأثير : ما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا ما أرغب في استجلائه في الفصول الآتية دون اندفاع ولا تحيز ، بل بإخلاص من شكلت من جميع قواها النفسية والإدراكية محكمة ومخلفين ، يستعرضون خلاصة ماتقوله الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يرونه صادقاً عادلاً (٢)

(١) أنظر كتاب المساواة بقلم مي : مكتبة الهلال . القاهرة صحيفة ٢ ، ٣

(٢) أنظر كتاب المساواة لمي صحيفة ٦

وقد يبين بحث «مى» فى المساواة أن الناس «لا يفقهون معناها تماماً ويزعمون أنها مشاركة الغنى بغناه، والوجيه بوجاهته . والمنعم بنعمته . وحسبهم أنها تخفى عنهم شبح غد غدار لا يضمن لهم ولذويهم الغذاء . أو يرون فيها انفراجاً معتدلاً لضيقهم ، (١)

ولكى تصل الكتابة إلى ما تقصد إليه من إدراك المساواة وتحليلها تحليلاً علمياً وعادلاً أخذت فى معالجة هذه الفصول الآتية : الطبقات الاجتماعية ، والارستقراطية ، والعبودية والرق ، والديمقراطية ، والاشتراكية السليمة ، والاشتراكية الثورية ، والفوضوية ، والعدمية وختمت الكتاب بحوار كان يضطرم بين أشخاص يتناقشون بمنزل والذى مى ، وهم السيدة جليمة معلمة «مى» فى الماضى ، وهى سيدة فطنة معتدلة الرأى ومى - تلميذة السيدة جليمة وكاتبة مقالات المساواة ، وبلانش وأنتوانت - فئاتان على أحدث طرز ريفيتا «مى» فى المدرسة تتكلمان الفرنسية دواماً ، وعونى - نجل السيدة جليمة اشتراكى متحمس وذوق قلب مخلص نبيل .

وعارف - أديب عرف الناس وتألم فأدت به المعرفة إلى شىء من الجمود ولكنه يخفى وراء مظاهر القسوة والتهكم طبيعة حارة صادقة خيرة والأستاذ سامى - عالم فيلسوف .

وسعيد بك - من الوجاه ورئيس جمعية خيرية ، وزكى أفندى - من المتأدبين لا فكر له أوله فكر يحجبه اعتناق كل رأى غابر وامتداح جميع الناس على السواء .

وكتاب المساواة الذى نشير هنا إليه ظهر فى أسلوب «كان فى غاية السلاسة والسهولة والوضوح . فالفكرة عندها واضحة ظاهرة لا تنصيدها من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها ولا إبهام ، واللفظ عندها سائح خلو الوقع على الأذان (٢)

(١) أظركتاب المساواة لمى ص ٥

(٢) أظركتاب حياة مى لمحمد عبد الفتى حسن . مطبعة المقتطف والمنظم القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٢

وفوق ذلك فإن العلم الغزير بالتاريخ وبمسائل الحياة الاجتماعية يلابس هذا الأسلوب الذى حق عليه وصف الأستاذ عبد الغنى ، وينطبق هذا الوصف على أكثر ما كتبت «مى» فى النواحي الاجتماعية والعلمية .

وفى الفصل الأول الذى خصصته أديتنا لبحث الطبقات الاجتماعية نراها تستدرج قارئها إلى الغابر من السنين فتحدثه عن فلسفة الهند القديمة وكتبها المقدسة التى هى مستودع الحقيقة الخالدة عند أهل هذه الكتب والتى تقرر أن البشر ، وإن كانوا أبناء إله واحد ، ومن أصل واحد ، وعجنت أجسامهم من طينة واحدة ، هم فى الوقت نفسه أسرى للتنوع وبذلك فرض عليهم أن يكونوا طوائف . وتبدو فيهم صنوف الكفآت ، بماشاة لحاجة قسمة العمل بين الأفراد والمجاميع ؛ ومسايرة لقضاء الاقدار بالتعدد والكثرة والفرق .

وفى هذا الفصل تشير «مى» إلى دور تكوين الشعوب «بانتشارها قبائل يتقارب منها الجوار بتقارب الاصل ، ولكل قبيلة وسائلها الحيوية فى موارد موطنها الطبيعية التى هى بدورها ربت فى أعضاء القبيلة ذكاء ومهارة موافقين لاستخدامها فاصطنعوا لأنفسهم تلك الأدوات الفخارية . واخترعوا القوس والنشاب وآلات حرث الأرض وطريقة فلاحتها ، واكتشفوا النار ووسيلة أضرارها . وكانوا يشتركون فى استعمال هذه الأدوات والآلات لانها ملك الجميع الذى كان يعمل له كل فرد تحت مراقبة زعماء أكفاء ويضمن له مقابل تعبها السكن والقوت والكساء فى حالتها الأولى . فينجلى من هذا أن الاشتراكية سبقت كل نظام آخر فى حياة البشر . ومع أن هذه الاشتراكية مشوبة بخلل كثير إلا أنها حسنة بالنظر إلى زمنها ، ولانها أول خطوة فى عالم النظام والتدريب (١)

ومن عالم النظام والتدريب تدرج الناس إلى تقسيم الاعمال وتوزيعها ، وإلى ترويض مختلف المواهب والتفوق فى مختلف الميادين الحيوية من زراعة

أو صناعية . ومن ثم يأتي التوسع في الاستيلاء والغارات على الحدود ومن ثم ينتهي الأمر إلى انتخاب زعماء حرييين يهثون أسباب الدفاع لرد غارات المغير . ومن ثم يرتفع هؤلاء الزعماء إلى درجات السيادة . ومن ثم ينشأ الرق من نتائج الحروب ومع ذلك كله تنساق الناس إلى الطمع في التفوق والتعالى وسرعان ما يعتزون على عماد ذلك التفوق والتعالى في تكوين الملكية وتقوية رؤوس الأموال وتنميتها بالاعتماد على المهارة والذكاء والامتياز . وكان ذلك الفصل الأول من تاريخ الاقتصاد البشرى الدائر كله حول ذلك المحور الرهيب الذي يدعى الملك (١) وهذا الملك سبب بدوره إلى العراك المالى الاجتماعى الطويل الذى ترتبت عليه حروب ومذاهب اجتماعية عديدة وفوارق في الطبقات . وتقرر دعى، أن النوع البشرى وإن امتاز عن الطبيعة المحسوسة بطبيعته الإدراكية والإحساسية فهو يظل مربوطاً بها بحسبه واحتياجاته المادية ، خاضعاً لجميع نظمها وفي ميوله ميول وحشها : فهذا قرد ، وذاك ثعلب ، وذلك عقرب ، والآخر ثعبان . وأما التنوع بين الطبقات ، وبين الأفراد ، وبين مظاهر الطبيعة فأصلى ولولاه لما كانت الخليقة، (٢) .

ومما لا مفر منه أن الوجود يسير مرغماً في تحرك موصول وإذن لا بد من تنوع الصور ، وتعدد الطبقات ؛ فلو لا التنوع والتعدد ، ما كانت المدنية ، ولا كان الوجود الحسى . ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم وإرهاف القوى ، والتسابق إلى الأولوية لكنى لنقبلها محاولين عبورها بما أوتينا من عزم وكفاءة ، والفوز للأصلح دواماً ، (٣)

وفي الفصل الثانى من كتاب المساواة يأتى موضوع الأرستقراطية فتشير فيه الكتابة إلى نشأة الأسر الملوكية ، وإلى ما بين أهل الملوكية وبين أهل

(١) أنظر ص ١٤ من كتاب المساواة لى

(٢) أنظر ص ١٨ من كتاب المساواة لى

(٣) أنظر ص ٢٠ من كتاب المساواة لى

الدين من تضامن لتبادل المنفعة، وتشير كذلك إلى ما كان للنظم الدستورية من فضل فى الحد من سلطة الملوك ولكن على رغم ذلك فإن فى الجماعات والأفراد من لا يزال يتهيب مظاهر الأبهة التى قد تمت إلى مظاهر الملوكية بسبب أو بأسباب . وتدرج الكتابة من ثم إلى التحدث والنظر فى الألقاب سواء أكان ذلك فى الشرق أو الغرب، وتضرب الأمثال للتدليل وللإيضاح معتمدة على ما يثبتها الواقع إلى أن تبين حاجة النظام الملكى إلى النظام الارستقراطى وإن أشارت إلى أن الارستقراطية قد تستطيع أن توجد وتنمو وحدها بدون أن تكون فى حاجة إلى الملوكية . وفى هذا البحث الطريف الذى يدل على استقلال فكرى ، واطلاع تاريخى واسع ، وانتفاع بدقة موفورة فى المشاهدة والواقعية ، تقرر دى، أن « الارستقراطية ضرورية لمنفعة الأمة ، إنها ضرورية للاحتفاظ بصفات هى جزء من ثروة الأمة ، لأن لكل طبقة قوة حيوية أتمنت عليها، (١) »

وتدرج الكتابة فى تعزيز قيمة الارستقراطية مع اعترافها أيضاً بما يصح أن يكون للهبات الإلهية والافضال الربانية من أثر ظاهر فى من لاصلة لهم بالارستقراطية . وفى غضون تأييد الكتابة لنظم الارستقراطية نقرأ لها ما يلى « أظن أن ذكر نظام الطبيعة ، بعد هذه المرافعة الطويلة فى تأييد الارستقراطية يشفع بى لدى السادة الديمقراطيين ويفرج من عبوسهم فى النظر إلى . لا أقول أن الإشراف أو التفاضل ضرورى فى الطبيعة فحسب ، بل أقول أنه من الطبيعة ولا يمكن حذفه لأنه ، كالاتخفاض ، جزء من أجزاء الوجود . لاشه نلاش ضده ، وبملاشاة الضدين يمحى كل شىء . . . والذين يطلبون المساواة مستشهدين بالشمس تسكب نورها على الصالحين والطلحين ، وبالماء تسبح فيه جميع الأسماك على الإطلاق ينسون أن الأسماك من طبيعتها التنوع حجماً وصفة . »

(١) أنظر ص ٣٢ من كتاب المساواة لى

. . . . وينسون أن العبرة ليست بالنور الذي ترسله الشمس بل بالغاية المتنافرة التي يرمى إليها هذا وذاك ، وبكيفية الاستفادة من النور والظلام لبلوغها . فكما أن سطح الأرض ينبسط هنا مروجاً وسهولاً ، ويهبط هنا منحدرات ويتشامخ هنالك جبالا وقمماً ، كذلك للطبيعة البشرية سهول وأودية وقم (١) ،

وحين تتجه «مى» إلى تأييد الارستقراطية أو بعبارة أخرى إلى تعزيز النزعة الكابرية ومعناها في نفس الإنسان فإنها لا تنظر إلى ذلك المعنى من زاوية جزئية ضيقة بل تتجه إليه من وجه كلي فسيح ، وهو أن الارستقراطية التي احتكرها ذوو الألقاب لبيئتهم ليست إلا جزءاً من الارستقراطية التامة المتشكلة من ارستقراطية الفضل (وهي التي يعينها أرسطو وشيشرون) وارستقراطية الحسب ، وارستقراطية العقار ، وارستقراطية المال وارستقراطية النبوغ، (٢)

وخلاصة القول عند الكاتبة في الفصل الغني الدقيق الذي كتبه في الارستقراطية أن ظاهرة الارستقراطية ستظل في أية صورة من صورها ما ظلت الطبيعة ، وأن التفوق سيبقى ما بقى البشر .

ثم تحدثنا «مى» في الفصل الثالث من كتاب المساواة عن العبودية والرق وهي وفقاً لعادتها كأديبة مفكرة تتقدم لبحث موضوعها المحدد بنظرة إلى منهج الطبيعة في تنظيمها للأمور ، حين تضع النقيض بجوار ما يناقضه ، فتجعل الأكمة قريبة من البحر الزاخر ، وخضرة الخنازل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار ، وعلى ذلك تكون الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحب والجمال والفخار . وعلى أن في كفتها الأخرى ما يعادل الأولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط كأنها مرغمة على حفظ النظام في توازنها ، إذا هي أسرفت في نقطة تعقبت الإسراف

(١) أنظر ص ٣٧ من كتاب المساواة السابق الذكر

(٢) أنظر ص ٣٨ من كتاب المساواة لمى

بالاقتصاد فى ما يحاذيها . فحيث يمتد الرخا تنتشر التعاسة ، (١) وبعد ذلك التمهيد تنتقل إلى كتاب مانو الذى يحتوى على شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدينة الآريين منذ نشأتها فتذكر ما قيل فيه عن أصل العبودية ثم تشير إلى ما ذهب إليه سبنسر فى ذلك الموضوع ثم تربط بين ذلك وبين موضوع تقسيم الأعمال وتوزيعها بين الناس وما كان يناط بالعبيد من أعمال فى مختلف البلاد الشرقية قديماً ؛ وما كان لليهود من حقوق وواجبات فى العبودية حين كان يمتلك بعضهم البعض الآخر ، وحين اتصلت بتاريخهم قيود للعبودية والرق . ثم تتحدث عن تواريخ العبودية عند الفينيقيين واليونان ، وأهل أسبرطة وعند الرومانيين ، إلى أن حل دور التحرير بتأثير الفلاسفة فأخذ العبيد فى تعاطى أنواع التجارة ويسرت لهم المناصب السياسية ثم تنتقل إلى مطلع القرون الوسطى وكيف تكيّفت العبودية حينئذ تكييفاً خاصاً فشاع الرق الذى لازم الإقطاع فى أنحاء أوروبا . ثم كان لثورة الأرقام والشعوب أثر واضح فى إلغاء ضروب العبودية وفى تدعيم قواعد التحرير إلى أن قضت الثورة الفرنسية على الإسترقاق الذى ظل يتلاشى فى مختلف البلاد والدول على أنه قبل أن يتلاشى بتأثير التقدم وبجهاد من الدول والحكومات التى جاهدت فى سبيل إلغائه كأنجلترا وأمريكا فإن الأديان السماوية لم تقف مغلوطة الأيدي دون تخفيف قسوة العبودية فالمسيحية رأفت بالخالطين والمساكين وأدخلت الجميع فى بنوة الله وقربتهم من غفرانه . والإسلام أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وهياً له ضرباً من العزة والكرامة الأدمية وحض على الاعتاق حصاً كريماً .

على أن الكاتبة ، التى رسمت فى هذا الفصل من كتابها خريطة تخطيطية متقنة لتاريخ العبودية ، ترى أن هذه العبودية ما زالت تلاحق الإنسانية والمدنية وتتغلغل فيها ولكن على صور أخرى فترى استعباداً من طرق الفقر والعوز ومن طرق الضعف العلمى والخلقى والاقتصادى ومن طرق الاطماع

(١) انظر ص ٤٣ . من كتاب المساواة السابق الذكر

الاستعمارية ، ومن طرق التقاليد السخيفة وما إلى ذلك مما يدعوها إلى أن تقرر بأن العبودية ما زالت دائمة وإن تغيرت صورها وللناس أن يقولوا « السلاسل والقيود أقل رموز العبودية هولاء القيود في دماننا وأهلنا وأوطاننا . القيود في رغباننا وحاجاتنا . القيود في بشرتنا ... وإذا محيت من العبودية صورة رسمت أخرى لأن أصل العبودية باق على كره الدهور نحن العبودية الدائمة . نحن أودية الحياة المجوفة عند أقدم الرواسي .. ومن عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض . . . ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً . » (١)

ثم تنتقل الكاتبة إلى الفصل الرابع من كتابها وتحلل فيه معنى الديمقراطية وتقرر في مستهل هذا الفصل مظهر المصارعة المطردة بين كل العناصر الكونية وأن الإنسان نظراً لتميزه بالغريزة الاجتماعية والعقل فإنه يطبع مصارعيه بما تميز به من نزعة تفكيرية واجتماعية . ولم يهتد زعماء الإصلاح الاجتماعي في النوع البشري إلى أنظمة سياسية غير التي ذكرها أرسطو وهي الملكية أو حكومة الفرد ، والأرستقراطية أو حكومة الأماثل ، والديمقراطية أو حكومة الشعب . وتقرر الكاتبة أن أكثر المدنيات ترعرع ونما وتوارى كذلك في ظل الملكيات ، وتفرض مختلف الفروض في تعليل ذلك ، وتستشهد بما يسجل التاريخ من مدينة مصر والحضارة الكلدانية والآشورية وتاريخ اليهود في عهد داود وسليمان ، وما أحدثه الفينيقيون من صناعة وتجارة ، وما كان للفرس من توفيق عند اقتباس مختلف الحضارات وصنها ومزجها في قالبهم وطابعهم ، وما كان في الشرق الأقصى من اختراعات وابتكارات ، إلى أن تلاً نور الكرامة الإنسانية في اليونان وأشرق فيها فجر الديمقراطية التي هيأت للأفراد أن يعرفوا حقوقهم وواجباتهم إلى أن أضاء هذا النور ظلمات القرون الوسطى ، وظهر في العصور الحديثة ليبدى للفرد كرامته وأهليته . وقويت الآراء القائلة بالمساواة بفضل رجال الثورة

(١) أنظر ص ٦٤ من كتاب المساواة بقلم « د »

الفرنسية وفلاسفتها ، إلى أن امتدت جذوة هذه الثورة وتناولت نيرانها
نواحي الأرض حتى لم يبق في أنحاء العالم ملكية مطلقة ، إلا القليل المستضعف .
وساد مطلب الديمقراطية التي هي حكم الشعب بالشعب ، وأصبح أشد
المحركات لهذا المطلب ، وأقوى البواعث له في العصر الحديث يبدو في وفرة
الاختراعات الآلية والاكتشافات العلمية ، وتعميم المعرفة وسهولة التعليم
المقرب بين مختلف الطبقات . وأخذت الديمقراطية المنتصرة تقيم دعوتها
على دعامين أساسيتين أولاهما أ كثرية العدد التي يستمد منها القانون قوته ،
وثانيتها تقريب الفروق الاجتماعية . على أن الكتابة بعد أن تبصر القارىء
بتغلغل خطوات المعنى الديمقراطي ، وبمميزاته في مختلف العصور ، تعود
لتسائل نفسها عما إذا كان الفرد الذي هو محور الديمقراطية قد حصل على
السعادة المنشودة ، وهل تأتي لمجموعة الناس ما يطلبونه من الهناء حقاً في
ظل نزعاتهم الديمقراطية التي تقرر أن الفرد للمجموع وأن المجموع للفرد ؟
وعند هذا السؤال تقول «مى» يخيل لنا أن أقرب الأمم إلى الديمقراطية
هي الأمة الأمريكية لقلة ما وراءها من التقاليد فهل حالت المساواة دون
ما يقابل بين البيض السود من ازدراء واحتقار؟ هل حالت الحرية والمساواة
دون هدر الدماء والتشنيع والتفاضل . إن تلك القدر الهائلة التي تغلغ فيها
جميع عناصر الدنيا ما زال يؤبه فيه لفروق الجنسية والثروة والذكاء والعلم
والتربية . ما زال يؤبه لتلك الفروق بالفعل ، وإن لغيت بالقول بل ما زالت
الانتقادات تملأ صحفهم ، وتعدد الأحزاب يقسم مجالسهم ، وقرب ثروتهم
القارونية ، نرى العوز الأقصى والحرمان الوجيع ، (١) واستشهاداً يمثل
ذلك في الواقع تقول الكتابة « أين المساواة التي تدعون ،

وبعد ما تقدم من الفصول الملخصة تلخيصاً دقيقاً والمحصنة تمحيصاً
يقوم على سعة في العلم ودقة في الفهم تطالعنا «مى» بفصول تحلل فيها
وتستعرض مذاهب الاشتراكية السلمية ، والاشتراكية الثورية ،

(١) أنظر ص ٩٠ من كتاب المساواة لى

والفوضوية ، والعدمية ، ثم تضيف في النهاية فصلاً يقوم على المناقشة والحوار بين عدة أشخاص في منزل « دى » ، التي كان لها في هذا النقاش نصيب وتمثل في هؤلاء الأشخاص صفات من العلم ، والفلسفة ، والعظة ، والاعتدال في الرأي ، وزعات من الاشتراكية ، والأدب والخير ، والافتتان بمظاهر الحياة المدنية الحديثة ، وما إلى ذلك مما يظهر صورة من الحياة في نفوس الناس على اختلاف مشاربهم . وتختتم الكتاب برسالة إلى الكاتبة من أحد أفراد هذه المجموعة التي تنشر في نقاشها مختلف النزعات والآراء ، وتلوح في دائرة حوارها مختلف الأفكار .

أما ما ذكرته عن مختلف المذاهب الاجتماعية المتقدمة الذكر فقد كانت « دى » ، على عاداتها تبسط الآراء فيها بسطاً تاريخياً مركزاً واضحاً بريئاً من التحيز فتربط بين فلسفة « هيجل » ، الألماني وبين مذاهب الاشتراكيين ، وتأخذ في شرح المادية الاشتراكية التي أقام عليها «ماركس» مؤسسها مذهبه ، وتبين ما ذهب إليه واضع المذهب في صلة الحياة المادية والاقتصادية بمسلك الإنسان ومعنوياته وكيف يرجع الرقي المعنوي إلى الأصول المادية ، وكيف كان «ماركس» يأمل في غلبة الاشتراكية في المستقبل على الأنظمة الأخرى . وتتحدث الكاتبة عن الوسائل التي يمكن أن تسودها الاشتراكية ، وتشير إلى تاريخها العام في الغرب ، كما تشير إلى مختلف المحاولات لإدخالها في مصر ، وإلى ما يذكر من علاقة النزعات اليهودية بتمويل الاشتراكية والعمل على تسويدها سواء كانت هذه الاشتراكية سلمية أو ثورية وتنتهي « دى » ، من بحثها الخصب في موضوع الاشتراكية إلى إنكار كل محاولة للقول بالمساواة وتقول في ذلك « أنرى المساواة في سبك المسجد والطين في قالب واحد؟ وهل الإنصاف في تجريد الغني ليعطى المعدم؟ وهل الحرية في توحيد العقل الكبير والقلب النليل مع الفكر السخيف والنفس الزحافة ، (١) وإذا كانت « دى » ، لا تترجم بالاشتراكية حيناً تتخذ باعتدال لتحسين أمور الناس بتعاونهم وتشاركتهم

(١) أظن من ١١٩ من كتاب المساواة لمى

فى حسن الإنتاج والتوزيع فإنها تقاوم كل نزعة يزعم فيها الزاعمون بإمكان التحقق لمذهب المساواة وعندها ، أن الغد للاشتركية بلا ريب ، ولكنها ستغلب على أمرها بعد أن تنيل الاجتماع ما تستطيع أن تأتي به من التعديل . الغد للاشتركية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية فى تميم وعودها . الغد للاشتركية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمساواة الجديدة ستنهض فئة فتعلو وتطفو على الطبقات الأخرى ؛ طبقة أرستقراطية المستقبل التى ستخلقها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل المحتم اليوم ، والأمس ، وفى الغد . الغد للاشتركية ولكن الفردية ستظل منتصبة قربها على الدوام . الغد للاشتركية ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب الاشتراكية التى هى مذهب إنسانى فى ذلك خاضعة لطبيعة الانسان تملأها الحسنة والسيئات ويستحيل فيها الكمال - إلا إذا بقى لها ذلك الكمال مثلا أعلا تتبعه ويظل هاربا أمامها إلى منتهى الدهور ، (٢)

ثم كتبت «مى» فصلا عن الفوضوية وعمما يلزمها من الاتجاه لتقويض الملكية الفردية وبتأخذ كل الأسباب الوحشية لذلك التقويض ، وباستخدام كل الوسائل لاستقلال الفرد استقلالاً يتلاشى المجموع حياله ، ويالغاء كل قانون على الاطلاق ، أخلاقياً كان ، أم اجتماعياً ، أم سياسياً وتنتهى من بحثها فى تاريخ النزعة الفوضوية فى مختلف الجماعات فى الشرق وفى الغرب قديماً وحديثاً ومقارنتها بغيرها من المذاهب وأقوال العلماء النفسين فيها وما يتصل بها من أمراض نفسية إلى أن تقول : إن الفوضوية مذهب محزن مروع ، وهو على حدائثة نشأته ذو تاريخ مضرج بالدماء ، (١)

ثم تسكلم «مى» عن العدمية فى الفصل الثامن والعدمية كما تقول إسم قديم كان وما زال يطلق على المذاهب الفلسفية القائلة بأن لا شىء موجود ولا شىء . يمكن أن يعلم وتحدث عن تاريخ هذا المذهب ونشأته وأطواره وما فيه من

(١) أنظر كتاب المساواة إلى ص ١٣٩

(٢) أنظر ص ١٢٣ من كتاب المساواة لمى

المغالاة الشديدة في إثبات الفردية وإنكار الشرائع والقيود، وما فيه كذلك من مقاومة للماضي ولما يتخلف عنه من اصطلاحات وتقاليد قد تعطل نمو التقدم، وما قد يجود به التطور من الرقي، فيصاب المجتمع بأمراض من وراء هذا الجمود والتعطل وينتصر القديم على الحديث، وتفوز النزعات الجماعية على النزعات الفردية، وعلى حريات الممتازين القادرين على الإصلاح ولهذا يستوجب القائلون بمذهب العدمية إطلاق العنان للحريات إطلاقاً لا حد له. لأن الحرية ضرورية لكل رقى وعلى كل فرد أن ينشد حريته وينهض بما توحيه إليه بمزيد النشاط، وليكن بعد ذلك ما يكون وما يقدر القدر لنتائج حريته وأعماله حين تختلط كلها بمجاميع الحريات والأعمال في المجتمع. وتسترسل «دى» في شرح نظرية «لفروف» الروسي في العدمية وما فيها من نواحي الخصال لمجتمع المال وما فيها من خطر، وما فيها من اتصال وانسجام مع ما قامى شعب روسيا من عنت، وما يطمح إليه من صلاح، وما فيها من ثورات ومقاومات للضغط الحكومى مسابرة لتأثيرات «باكونين» وأمثاله ممن أعدوا روسيا لثورتها وانقلابها «الذى لم تستجل منه بعد العوامل الكثيرة المشتبكة»، كما تقول الكاتبة. وتحدث «دى» في مقالها في العدمية عما في الطبيعة؛ بوجه عام، من التناقض وعما في جبلة الانسان من نزعات تختلف يمضى فيها كل حسبما يقدر له ويسير في سبيله ويسر له تيسيراً. وعند «دى» أن الأساس في نزعات الإنسان هي الأناية التي لم تلتطفها التعاليم الدينية والتهذيبية إلا في قشورها دون اللب. وتنتهى مقالها بتقرير السيطرة لوهمين كبيرين على الوجود، أولهما أن الإنسان يحسب نفسه حراً في حين أنه عبد، وثانيهما اعتقاد الإنسان بأن الخير في فطرة البشر في حين أن الفطرة بنيت على النقيض. وتنتهى «دى» كتاب المساواة بذلك الحوار الذى أشرت إليه سابقاً والذى تحدث فيه المناقشات والآراء والنزعات المتناقضة، وتدخل الكاتبة نفسها في الحوار لتقرر أنها فشلت في معالجة بحثها في المساواة برغم إخلاصها في تمحيص هذا الموضوع (١)

(١) أنظر ص ١٦٥ من كتاب المساواة

« إنى بتوغلى فى البحث ، تحدفونى أبدأ تلك الرغبة الحارة ، كنت أزداد شعوراً بأن ما أتلبسه من الخطوط الرئيسية والعلمية والاجتماعية لن يوصلنى إلى شىء سوى تلقى رسائل التعنيف والتقريع من حضرات القراء الذين يريد كل منهم أن أذهب مذهبه وأخذ برأيه . حسبتنى مقبلة على موضوع لى أن أعالجه على ما أريد فإذا بالموضوع يعالجنى قاذفاً بى من تيار إلى تيار ، ومن حيرة إلى حيرة ، ومن لجة إلى لجة . وهاأنذا أردد سؤالاً ألقىته على نفسى مراراً خلال هذا البحث : أين أنا الآن ؟ أين أنا ؟» (١)

والكاتبة المكيئة البليغة حين تسمع المناقشات المختلفة ممن يريد الاشتراكية ويزعم تحقيق المساواة ، وحين تسمعها ممن يقول باستحالتها ولا يرى فى الوجود إلا التفاوت ، وطرق المباراة ، والتفوق التى كانت وستظل دواماً الحاث الأعظم ؛ وحين تسمعها من محاور يذهب إلى أن ضلال الناس فى هذه الدنيا إنما هو فى توهمهم إدراك السعادة فى حين أن طبيعة الدنيا والحياة تدعوها لتغيير النظم وتبديلها ، وأن ذلك تدور الأحقاب تدور الأنظمة والبقاء للذى لا يموت ولا يتغير ، أقول أن «ميا ، حين تسمع مثل هذا الحوار والنقاش فى مجموعة من ذوى الآراء والنزعات المختلفة وتشرك نفسها فى غماره ؛ تخلو بنفسها لتقول ، هاأنذا وحدى أيها الليل فعلبنى ما يجب أن اعلم . هاأنذا مستعدة أيتها الحياة ، فسيربنى حيث يجب أن أسير» (٢) .

وبهذا الصوت الوديع الهادىء المشرق تبدو «مى ، وفى علمها الواسع وتفكيرها الفلسفى ، شاككة حائرة أمام أسرار الوجود وعند صوت الحياة التى كلما توغل الباحث فى شئونها مستقصياً ومتعمقاً يرى أمامه الفسيح من الجهولات . ويزداد تيباً فى بيداء المستورات ، ولا يستطيع أن يقول خيراً مما يقوله باحث مخلص مكين : سبحانك ربى زدنى علماً .

وتلك الكاتبة المفكرة التى تبحث فى معنى المساواة وتضع لنا فيها رسالة

(١) أنظر ص ١٦٤ و١٦٥ من كتاب المساواة .

(٢) « د د د ٢٠٦ د د د »

قيمة يتجلى فيها الأدب والعلم ، وسعة العرفان ، والتبحر في التاريخ والاجتماع تعود من جولتها النشيطة اليقظة ، ومن ميدان بحثها الممتع المشبع لتشعرنا أنها مؤمنة بأن الغلبة النهائية إنما تكون للخير والجمال والأصلح برغم ما تراه في الحياة من الجوانب المتناقضة إذ يكون بجانب الصلاح طلاح ؛ وبجانب الحسن قبح ، وبجانب الصحة سقم . وأنها برغم ما تراه من ذلك تستوجب العمل والجد والدعوة لتغيير كثير من الأنظمة والعادات لأن التطور نزعة والتغيير والتبديل سنة من سنن الوجود .

وكان «ميا» تود أن تترجم عما تجيش به نفسها في مثل تلك الكلمات التي جاءت على لسان أحد المتناقشين في متداولها حين يقول (١) « أن الأرض لترتج تحت أقدامنا والهوام يحمل إلينا ما قد يكون لهيباً ودخاناً لحريق سحيق فانظم الاجتماعية تتطور ككل شيء حيوى - كما قلت في مقالاتك - وكما هو الواقع فلتنظر إذن ما هو كائن لأنى أرى الإنسانية الآن كالأفعى تغير ثوبها ، أراها كالجو يتعاقب فيه السكون والزوابع ، الصفاء والغيوم ، النجوم والأمطار . كفانا أن نرقب سير الحوادث متكئين على نفوسنا ، محدقين في وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين لتبين الصلاح والحقيقة . ونحن أبدأ كالأرض أمنا التي تقبل البذور الصالحة ثم ترسلها غلة وخيرا ، وإذا هوت عليها الأشجار اليابسة تجمدت في حضنها مادة للنار واللهيب . ولنكن أبدأ مطلقين هذا الهتاف الجامع بين الإخلاص والخيرة ، بين الزفير والابتهاال، هاأنذا وحدى أيها الليل ، فعلى ما يجب أن أعلم . هاأنذا مستعد ، أيها الحياة ، فسيربنى حيث يجب أن أسير . »

ومهما يكن فيما قدمت من تلخيص لكتاب المساواة فإنه يبين للباحث بعض المعالم الرئيسية لفلسفة سى الاجتماعية وبعض نظراتها في أمور الحياة وعلى من يريد المزيد أن يتلص ذلك من مجموعة مقالاتها وكتبها التي تناولت

(١) أنظر ص ٢٠٥ و٢٠٦ من كتاب المساواة .

ضروباً من التأملات والفكر وأشتاتا من الشؤون التي تشغل الناس في أمور العيش .

وحسبي من هذه النظرة العاجلة أن تبدو «مي» للقارىء في صورة الفيلسوفة التي تخشع لأسرار الوجود لكي تقول (١) «أين الحكم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض؟ وأتم أيها الموتى أطيأراً كنتم أم بشراً ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار وراء حجب الردى؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلي السرمدى الكامن في ضمير الوجود؟»

على أن «ميا» الفيلسوفة الحساسة الخاشعة لأسرار الوجود تقدر قوة العلم ونور العرفان تقديراً كبيراً كما تقدر توزيع الأعمال والميول والاختصاصات وتوزيعها في سبيل الرقى العام .

ولها أشتات بليغة من القول في هذا الصدد يجدها القارىء منثورة في مختلف فصولها ومقالاتها ويحدو بها ذلك إلى الاستبشار والتفاؤل في تقدم البشرية ورقى الشرق ومع ذلك فان لمي نزعات تصوفية تعترف بحكم الأقدار وتصاريفها، وبمنح المواهب، وبحكمة التوجيهات الإلهية ولولا خشية التطويل لأثبتنا لها الكثير من النصوص الدالة .

فلسفة «مي» الفنية، والانسانية والسياسية؛ في مسألة المرأة:

من المناسب بعد ذكر حديثي عن نظرات «مي» وفلسفتها الاجتماعية أن أشير إلى شيء من فلسفتها الفنية والسياسية ونظرتها للمرأة . أما فلسفتها الفنية فتبدو عندما تعالج موضوعات الموسيقى والأدب والشعر والتصوير وحسبي أن أقتبس! من أحاديثها في ذلك قولها (٢) «قالت صحف الأمس أن إدارة هذا المعهد (معهد الموسيقى) ضمت إلى أعضائها حضرة الأب كولا نجت وغيره من الملحنين بهذا الفن إماماً نظرياً أو عملياً . وذلك عين الصواب إذ لا شيء

(١) أنظر ظلمات واسعة . دار بيروت للنشر سنة ١٩٥٢ ص ٣٣

(٢) أنظر بين الجزر والمد بقلم مطبعة الهلال . مصر سنة ١٩٢٤ ص ١٢١ و ١٢٢

يفيد موسيقانا والولوعين بدرسها مثل احتكاكهم بالموسيقى الغربية والاطلاع على أفكار فناني الأفرنج وأسلوب تمرينهم العقلي واليدوي والاقْتباس عنهم .

يعبرنا الغربيون أن ليس في الموسيقى الشرقية أفكار ولا وصف ولا تصوير ولا تصور ، ولا أوبرا . سبحان الله ! وما حاجتنا . أتري ، نحن ذوى الأعصاب الطروبة الذين يشجينا شدو القصب ، وتهدد النهر ، ونوح الحمام ، ما حاجتنا إلى اشتباك الألحان وضوضائها ؟ نحن نتمنى لموسيقانا أن تظل شرقية محضة ، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة عن خفايا القلب الشرقي وحنينه ولوعته ، وتلمس نفوسنا بترجييعها البسيط فتتهدى فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخينة .

أن الموسيقى الغربية رغم كونها «علمية» في طورها الحاضر تحدث مختلف التأثيرات على شرط أن يكون السامع عليماً بها أو فاهماً ببدايته أنغامها . وإلا كانت جلبة وضجيجاً لا يناله منهما غير الصداع الأليم .

على أن أكثر الشرقيين يفهمون موسيقى بلادهم بلا درس ولا استعداد لأن مقاطع ألحانها ساذجة متشابهة . باستثناء المتفرنجين الذين يدعون أن الموسيقى العربية لا معنى لها .

وسبب هذا الحكم في الغالب هو تمكنهم من التوقيع — سواء كان ما يوقعون من جيد الموسيقى الأفرنجية أم من رديتها — على البيانو . مع أن تقدير الموسيقى الغربية لا يؤدي إلى إنكار الشرقية . وأصدق برهان على ذلك أن جماعة من كبار الموسيقيين الأفرنج حاولوا اقتباس الألحان الشرقية وإدخال شيء منها في ما يؤلفون . منهم «كميل سان سانس» الذي ألف لحناً مزوجاً من جملة ألحان مصرية باسم «تذكارات الاسماعيليه» فضلاً عن قطعه الفارسية الكثيرة .

و حين تسترسل دى ، في حديثها عن الفن الموسيقى يتبين لقارىء هذا

الحديث أو سامعه أن الكتابة المفكرة تحرص الحرص كله على أن تستبقى ما فى الموسيقى الشرقيه من خير وجمال ، وأن تصل بين ذلك وبين محاسن الفن الغربى الموسيقى . والكتابة الكبيرة تراها دائماً ذات نزعات موفقة بين الحسن من خصائص الشعوب ويميزات الأجناس والأجيال لتستفيد الإنسانية بما فى مختلف الشعوب من مزايا وهبات وخصائص .

وموقف «مى» من اللغة والأدب والشعر العربى والتصوير ومختلف الفنون الجميلة هو نفس موقفها من الفن الموسيقى ، موقف من يقتبس الطيب حيث يجد . إنها ترى «أن اللغة العربية الآن فى بدء نهضة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الناطقين بها . ومن أهم دلائل هذه النهضة سيرها الحديث . وهى تتناول شتى المسائل بلغة جليلة تطرح التطويل والتعقيد يوماً فيوماً دون أن تفقد شيئاً من متانتها وروحها» (١) . تريد «مى» أن توفق بين متانة اللغة العربية وروحها وبين تخلصها من التطويل والتعقيد يوماً فيوماً تمشياً مع حاجة العصر ونزعاته فى السرعة والإيجاز وما جاد به من مخترعات وأحاسيس ومبتكرات وصور . والكتابة قد تعزز نزعاتها فى نهضة اللغة العربية وقابليتها لما يوجد به الزمن الحديث من أساليب التحسين بأقوال للعقاد جاءت فيما دونه فى صحيفة البلاغ فى موضوع «القديم والجديد» حين يقول «أننا فى عصر لم تسعد اللغة العربية بعصر أسعد منه فى دولة من دولها الغابرة» «عصرنا هذا هو أقوم العصور وأحقها بالتوقير والتبجيل لأنه وعى من الأزمنة التى درجت قبالة ما لم تعه الأزمنة الماضية، وبلغت أعمه من تجارب الحياة ما لم تبلغه الأمم الخالية» . وكاتبتنا الكبيرة التى تذهب إلى التوفيق بين الاحتفاظ فى اللغة وبين الاقتباس تذهب كذلك إلى نفس هذا المذهب فى الأدب . وقد تعزز هذا النزوع بما يقول العقاد أيضاً فى مقدمته لديوان المازنى «لقد تبوأ منابر الأدب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضى ونقلتهم التربية والمطالعة أجيالاً بعد جيلهم . فهم يشعرون شعور الشرقى ويتمثلون العالم كما يتمثله الغربى»

وإن النزعة الإنسانية، التي تهيم أديبتنا لتقدير مختلف الأجناس والشعوب، وتوزيع بعض عواطفها من المحبة بين مختلف الأجيال والبقاع لما تجده عندها من مستطاب ومرغوب فيه، لم تضعف منها شريقتها القوية المستعرة، ولم تبيع قوميتها، ولم تؤثر في وطنيتها بشئ من الرخاوة أو الهزال. فلقد ظلت دى، طول حياتها شريفة وعربية وتهتم بمواطنها في مصر وفي ديار الشام وإن شريقتها المتيقظة قد تترجم بما يلي (١).

«أيها الشرق . . الكبير، يا شرقى الرهيب الرؤوف . . يا شرق الطرب والحيا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم . . . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة . . . ورغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية . . أى قوة هذه التي تشد وثاقي إليك، لماذا أهوى من لغتك الشدو الشجي النواح والنبهة السريعة الحادة، والهتاف الأني الحار؟ ماذا تلمس في هذه اللغة العربية التي تنرهما شعوبك في مجاهل القفار، وعلى الجبال والهضاب، وعلى سواحلك وأنهارك وجدائك ووراء القطعان في مروجك، وقرب أنين نواعيرك . . أية وديعة لها عندي حتى تثير لهجاتها في البكاء الحنون كبكاء اللقاء بعد فراق طويل. طويتك الواسعة الخفية تستهويني أيها الشرق وتأسرنى أنا الذرة الصغيرة بين ملايين الملايين من ذراتك . . ألا نظرة إلى هذه السماء المخيمة عليك بهاء العسجد واللجين والارجوان! إنها الجوال الوحيد الذى أظل الرسل وما رضيت النبوات أن تنزل في غير هوائه، إنك أيها الشرق اصطفت لتكون أرض الأبطال ومنشأ الجبارة» .

والكاتبة تقول على نحو تقدم في تمجيد العروبة وفي تمجيد وطنها مصر والشام وتحيته (٢).

(١) انظر كتاب بين الجزر والمد بقلم «مى» مطبعة الهلال سنة ١٩٢٤ ص ٦ و ٧ و ٨ من مقالة البيقظة
(٢) انظر بين الجزر والمد نفس المصدر في مقالة حياة اللثة وموتها من ص ٩ النخ
وانظر كتاب ظلمات وأشعة طبعة بيروت ١٩٥٢ ص ١٠٤، ١٠٥
وانظر كتاب كلمات وإشارات بقلم «مى» مطبعة الهلال القاهرة سنة ١٩٢٢ مقالة الشاعر البعلبكي ص ٢٢ وغير ذلك من خطب ومقالات.

التزعات السياسية

لم تكن هي وهي الأدبية المفكرة لتحول بين نفسها وبين ما يدور في محيطها الاجتماعي من التفكير في المشكلات السياسية العامة التي تشغل العقول وتدور بالخواطر في زمن معين أو في محيط من محيطات الناس. ويمكن القول بأنها اشتركت بأرائها مع الناس في هذه الناحية الفسيحة من نواحي السياسة القومية العامة دون أن تتصل بالسياسات الحزبية أو بتوجيهاتها الخاصة الضيقة، وللتدليل على ذلك: أثبت لها نصوصا في آرائها السياسية العالية عندما استفتتها مجلة الهلال وألقت عليها سؤالين أولهما عما إذا كانت نهضة الأقطار العربية تقوم على أساس يضمن لها البقاء.. والثاني عن إمكان التضامن بين هذه الأقطار والعوامل الفعالة في ذلك. وللقارىء بعض من نصوص أجوبتها في ذلك حين تقول: (١) ديتعذر إطلاق حكم شامل على جميع الأقطار العربية ونحن بعيدون عنها لانعرف من أحوالها سوى ما تشرحه لنا صحفها وكتبها فضلا عن الأنباء التلغرافية والأخبار السياسية، بيد أنه يمكنني أن أتكلم عن مصر وسوريا ويظهر أن أحوال البلدان الأخرى تتفق مع أحوالها مع الاختلاف المحتوم الملاصق بكل قطر.

لكلمة نهضة التي نستعملها معنيان اثنان: أحدهما تجديد الأمة في مجموع أحوالها بعامل أو عوامل استفزتها وتغلبت على العوامل الأخرى: كانهضة الأدبية الفنية في أوروبا في القرن الخامس عشر والنهضة العلمية والآلية في أوروبا وأمريكا في القرن المنصرم وفي هذا القرن العشرين.

أما المعنى الآخر فهو الانتباه لوجوب أحداث التغيير والشعور بإبتداء وقوع ذلك التغيير، فالتجدد هنا هو التيقظ والرغبة في الأخذ بما أخذ به آخرون فوسع عندهم مجال الحياة فاستفادوا به وخسروا، وتنعموا وتوجهوا.

(١) انظر بين الجزر والمد مطبعة الهلال مصر سنة ١٩٢٤. من ١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٠

هو تحفز ومباشرة جميعا ، وهذا المعنى من النهضة يتطابق والحالة في مصر وسوريا ، بما يتضمنه من قلق واضطراب ، واندفاع ورعونة صيبانية ، وإخلاص وارتباك ، ونشاط وخطأ وإصابة . يمثل هذا تبدأ دواما النهضات الحقيقية بهذا الاسم : إذ لا طفرة في الحياة ولا بد لكل نضوج أن يستكمل وقته ونظامه

والنهوض يحتاج إلى «دافع» يسوق ويستحث ويحدو . والدافع موجود . إن الحضارة العالمية الكبرى تنتقل من شعب إلى شعب خلال الدهر بحركة متموجة : تعلق موجتها في أمة فتجلى مواهب تلك الأمة وتأتي بأقصى ما في إمكانها ثم تهبط الموجة انتسكون من جديد عند شعب آخر بينما تأثر بارفعها سائر الشعوب بدرجات متفاوتة .

وكذلك الشرق العربي بعد جهاد تسعة قرون أدى فيها خدما جليلة إلى العالم ، وكان بازدهار مدنيته وانتشارها وصلة بين الماضي والحاضر — عاد فهجع ثلاثة قرون شأن من ينام بعد مجهود كبير ليسترد قواه .

وعندما استيقظ وجد نفسه وقد أحاطت به أحوال جديدة تقتضي أساليب جديدة ممن يود مجاراة الآخرين حراً لا عبداً . فنهض الشرق يطالب بكل ما تسوغه الحياة لبنها . ولئن بدت هذه الحركة مشاولة من جهة ، كيفية من الجهة الأخرى ، تفتقر إلى الدراية العامة والنظام والتنسيق فهاذا الاضطراب إلا طبيعي يلزم الخطوات الأولى في جميع دوائر النشاط الإنساني وسيأتي الزمن والمران والاختبار بالحنكة المطلوبة والانتظام في مختلف الجوانب .

وأكرر أن الدافع ، موجود في جميع أقطار الشرق بشكل الاحتلال الأجنبي . وهو طبعاً سائر من عنف إلى عنف يثير في الأذهان التيقظ لمعنى الحرية بل لدوى إسمها وحده دون إدراك معناها . ولاقبل لاحد في هذه الأيام إلى مقاومة هذا الصدى الرنان المتفشى في النفوس . .

ثم تتكلم الكاتبة في تضامن الأقطار العربية وتآلفها فتقول : (١) «دين هذه الأقطار منذ الآن تآلف ضمنى منشأه ذلك الدافع المكون من طلب الحياة الجديدة ومن كره الاستعمار والرغبة في دفع سيطرة المستعمرين عن مرافق البلاد وشؤونها . فالهزة التي تضرب اليوم في الشرق هزة سياسية . وغريمتها هي أوروبا القوية وولية الأمر في الاختراع والصناعة والاقتصاد والمواصلات والحرب ونحوها . وبديهي أن أوروبا لا تريد هذا التضامن ، لأنه يناهضها ليسلها ما هي في جد الاحتياج إليه .

إن ما دفع بأوروبا إلى الهجرة والاستعمار في بادىء الأمر ليس الطمع بل هو الباعث الاقتصادي المتلخص في « فقر البيئة بتزايد عدد سكانها ، . فمضت تستغل موارد الثروة الغافل عنها أهلها فإذا بالسفن تعود إلى البلاد الأوروبية طاخة بالمواد الغذائية والمواد الغفل التي أنشأت تدير بها ربحي الصناعة ثم توزع الانتاج على الآفاق فتجني أرباحه . وما زال الغرب وهو أكبر دار للمعامل والمصانع يحتاج إلى أن تمده الأقطار بنقصه من الثمرات والأقوات والمواد الغفل ليصنع ويربح ويحيا على ما اعتاد أن يحيا بعد انتشار الاستعمار . فالغرب بالتفريق عن الأقطار الشرقية إنما يدافع عن ثروته وحياته . فالشرق المتيقظ يطلب كذلك ثروته وحياته . وسيتابع الصراع بين الفريقين .

وعلى أي فقد انقضت للمستعمرين أيام الهدوء والهناء وإذا كان لا بد من التموين وتبادل الانتاج بين الشعوب فيتحتم أن يختلف نوعه وطريقته بعد الآن . إن العالم كله في عذاب واضطراب والشرق والغرب سواء بسواء والمؤتمرات الواحد والعشرون منذ الصلح مهزلة جعل العالم أشد شعوراً بضرورة « تصفية كبرى محسوسة ، تعدل فيها المصالح وتراعى الحقوق وتنظم المطالب بلا تحفظات ومداورات . والمستقبل وحده يعلم متى تتم تلك التصفية وهل هي تجيء عن طريق الحرب أم السلم .

(١) نفس المصدر . نهضة الشرق العربي . رد «مى» على استفتاء الهلال .

أما الترابط بين أقطار الشرق العربى فيظل تعاطفاً أدبياً حتى ولو جلا عنه الغرب ، إذ صار الناس اليوم يطمحون إلى القوميات ويرغبون شديداً فى الاستقلال ضمن حدود وطنية طبيعية . هذا إلا إذا جاءتنا الأيام ببعض مبالغاتها . فكثيراً ما تأتى الأيام بما ليس فى الحسبان . وأيا كان المستقبل فاللغة العربية خير وسيلة لهذا التعاطف الأدبى والتفاهم المعنوى بين أبناء الشرق .

وتستطرد الكاتبة فى الخطوط الرئيسية لسياستها العامة فى مدى اقتباس عناصر المدنية الغربية وهى بمن يرى ذلك لاعتقادها أن المدنية ليست شرقية ولا غربية ولكنها إنسانية . على أن «ميا» مع قولها بالاقتباس ترى أن « فى الأقطار العربية شخصية الماضى الذى لا بد أن تتسكىء على بعضه دون أن يعارضنا فى اكتساب ما يعود علينا بالحياة والحربة . عندنا عادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفيها . ليتغن بها الشعراء ، ولينشدها المنشدون ، ولينح عليها محبو الندب والنواح . ولكن مهماز الحياة وراءنا . واقتباس المحتوم لا يغض من كرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد فشعرها وفلسفتها وفنونها وآلهياتها وأديانها وتذكاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح . أما الحياة المدنية منها ، الحياة المحسوسة ، فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية . وإلا فالغلبة والاستعباد . ولئن تحتم حمل القيود ، فقيود يضعها المرء لنفسه خير من قيود تربطه بها الأيدى الغربية» (١) وهكذا ترى «مى» أن فى الغرب ما يقتبس من مظاهر الحضارة وأن أموراً من أنظمتنا لا ينبغي أن نقتبسها بل إن الحاجة هى التى تقودنا إليها كأنظمة السياسة مثلاً وكبعض أساليب التربية والتعليم . يمثل هذه الآراء المعتدلة والنظرات الحكيمة تدعم «مى» مبادئها فى السياسة العامة التى تراها تتناسب مع شعوب الشرق والغرب ، وأن الاعتدال يلزم الكاتبة فى أكثر ما تكتب برغم ما يصاحب آراءها من حرارة تسرى فى أسلوبها الرصين قلباً يوفق إليها الكثيرون ممن يتناولون الموضوعات العلية التى طالما بداخلها برود المنطق الجاف .

(١) انظر بين الجزر والمد ص ١٧٥ و١٧٦ .

فلا يريد للمرأة ، ويطمع في ادخارها للراحة والهناء والرخاء والمواساة ، بل هو دليل على محبته التي تتلون بشتى الألوان ، وعلى احترامه ولو مسخ أحياناً بشكل الاستخفاف . أذلك الإنكار محض أنانية كما يزعمون؟ وماذا لو كان ذلك؟ ومتى كانت الحياة خالية من الانانية؟ وما أحب أنانية أحبنا إلينا! أما الانانية المقبولة من القريب والغريب على السواء فهى الانانية التي تنتفخ على حسابنا ، ولا تجعل لنا فى إحصائها مكاناً وقدرًا . ومن هنا منشأ كل ثورة وكل فتنة وكل ظلم . إن المرأة التي تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحباً ، لا تثور ولا تشكو ، حتى ولو عسرتها المسؤولية . وإنما هى المرأة المظلومة من ناحية العواطف التي تصيح وتلج ، يطلبون منها ألف ألف واجب ، ويقيدونها بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف وقر ، ومقابل ذلك ماذا؟ مقابل ذلك لا رعاية أحياناً ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . إذن لماذا تحتمل ، وفى سبيل أى غاية تحيا؟ ،

وإن القارىء الممعن فيما تقدم ذكره من بعض ما دوتته «مى» فى تعقيها على التزين عند النساء ليرى أنها تنجى فى حديثها إلى إبراز خصائص المرأة من الجمال والأناقة والإيناس والتظرف والحرص على عواطف المحبة والمجاملة والهناء وما إلى ذلك ، مما يدل على أن الكاتبة تقدر فى النساء معنى خاصاً وطابعاً مميزاً ، ولو نأ مشخصاً ، وكل ذلك فيما تسميه الأثوية . وإن الكاتبة حين تقدر خصائص النساء من الأثوية قد تصب سخطها وتدفع بمظاهر غضبها على من يتجرذن من هذه الخصائص الجذابة ليتخذن بدلاً عنها ما ينفر وما يسيء وقد تقول فى ذلك (١) : «إن المرأة المهذمة فى المنزل وفى البيئته لا كبر نغمات الله ، والمرأة الشريرة شر من أخبث الشياطين ، ولكن من ذا يحمى الأبرياء منها؟ من ذا يحمى المرأة النشيطة الصالحة النافعة فى إمكاناتها من خمول الخامل وبطش المبطاش وغرور المغرور؟ ، ،

وقد ترسل الكاتبة أقوالا ليست في صالح النساء ولا تضاف إلى رصيدهن ، ولا يزداد بها ميزانهن كقولها « مما لا ريب فيه أن بعض النساء ، غريبات كن أم شقيقات ، لا تنتظم منهن الحياة إلا إذا عرفت تقودهن يد حاذقة قادرة (١) » . وقد تقول في حق الفتيات (٢) « إنهن لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال الخيم بطلانه على منابت العواطف الخضبة . . . والفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات . . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً » . وقد تقارن الكاتبة بين المرأة والرجل فتقول (٣) : « لقد تصلب قلب الرجل قليلا — أو كثيرا — في حرب الاقتصاد التي ما فتىء يشهرها في ميادين الحياة فلحق ببعض عواطفه جفاف وتوتر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أن القلب ما زال مملكة المرأة . وفي هذه المملكة الضيقة الرجة تجتمع القوة والدقة والكتابة والصفاء . عندما لا يتكلم من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعن في صوت المرأة أنينا كأنما هو بقية زفرة أو تممة بكاء . وحينما يعتز الرجل بإدراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترين المرأة منحنية على نفسها كمن ينحن على جرح بليغ . ترينها منحنية على قلبها لان شيئاً يظل نائحا فيه . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الإبهة والتبجيل والإعظام ، وتلك الحقيرة التي تقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان ، وقد تقول على هذا النحو ونحن في حاجة شديدة إلى نساء تتجلى فيهن عبقرية الرجال دون أن يفقدن صفاتهن النسائية الجميلة من لطف العاطفة وعدوبة الخلق والرقّة ، والدعة ، والاستقامة والإخلاص (٤) .

وإذا قسنا على ما تقدم نجد أن « ميا ، تدرك تمام الإدراك ما يقدر للمرأة من حق في نظام طبيعي واجتماعي ينسجم مع طبيعتها ونفسياتها وما للرجل

(١) انظر بين المد والجزر من ١٦٥

(٢) انظر باحثة البادية من ١٤٩

(٣) انظر باحثة البادية من ١٨٥

(٤) انظر باحثة البادية من ١٧٧ و ١٧٨

من نظام آخر يغاير في ذلك . فكلاهما يختلفان في أمور ويتشابهان في أخرى ، وإن خير ما يتخذ من الموقف الإصلاحى الرشيد بين المرأة والرجل عند «مى» ، يصح في الخطة التى تتمثل « حيث لا يكون الرجل جاثراً مستبداً ولا المرأة ساخطة متمردة بل يتصافى الاثنان فتصير هى له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ، ويصبح هو لها أخلص الأصدقاء والين المرشدين ، (١)

ومن هذه الجملة القصيرة ، وما ذكرته من قبل ، يتبنا لنا أن ندرك الصميم من فهم «مى» ، ونزعتها في موقف المرأة من الرجل حين يكون كل منهما صديقاً مخلصاً للآخر دين أن يفرط في خصائصه فأحدهما يرشد والآخر يعين وأحدهما يصقل عقله الجهاد والآخر يصقل عاطفته الحساسية والحب ، ولكل من الرجل والمرأة في ميدان الحياة والعمل خصائص تغلب على مجموع أفرادها وإن تغلت الشواذ من الخوض لهذه المقومات والخصائص العامة . «مى» ، بسكونها الطبيعى الغالب إلى هذه النزعة قد تشارك باحثة البادية فيما تذهب الباحثة إليه من ترك ميدان الانتخاب والسياسة للرجل وقبول مبدأ نشر حمايته على المرأة وتوكيد قوامته عليها مما تقدر الباحثة أن ذلك يدخل في خصائص الرجل أكثر مما يدخل في خصائص المرأة (٢) .

على أن «ميا» ، وإن استطاع الناقد أن يخرجها من حزب المتطرفات والمشتطات ممن يطالبن بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والمألوفات الاجتماعية وفى مختلف ميادين الحياة العامة ترى وقد أدركها النسيان أحياناً لتغفل عما هو من نفسها فى الصميم ، وعما هو قريب إلى عقلها المفكر الجبار ، وعما يناسب أثويتها فتشتط مع المشتطات وتمرد مع المتمردات فتقول مثلاً (٣) « أشد الملوك فرحاً بهن الصولجان ، وأرفعهم للرأس كبرا وتيها تحت ثقل التيجان هم ذوو العرش المتداعية للهبوط .

(١) انظر خطاب باحثة البادية لمى صحيفة ١٨٧

(٢) انظر خطاب مى لباحثة البادية صحيفة ١٧٤ من كتاب باحثة البادية لمى

(٣) انظر خطاب مى لباحثة البادية من ١٦٠،١٥٩ من كتاب باحثة البادية لمى

والرجل ملك متساع عرشه لأن ربح الفوضى تهب عليه من كل جانب ،
 وخطوات الارتقاء النسائي تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الزمن . لسكنه
 ملك عزيز . هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج فإذا سقط سقطنا
 معه ، وإذا ارتفع كنا بار تفاعه عظيمات . لذلك نريد له خيرا ونجتهد في تأييد
 دولته بشرط أن ي نصب عرشنا بقرب عرشه وأن نقف إلى جنبه وقفة المثل
 بجوار المثل . نريد أن نكون متساويين في الحقوق الأدبية والعمرائية
 مادنا متساويين في الواجبات والمسؤولية . بل إن واجباتنا ومسؤوليتنا يفوقان
 ما عليه من مسؤولية وواجب ! فياترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة .
 وتقول في خطبة لها الكثير مما تقوى به نزعة الغالين من دعاة حقوق
 المرأة لتختتم الخطبة بتلك الكلمات : أيها الرجل لقد أذلتني فكنت ذليلا
 حررتي لتكن حرا ، حررتي لنحرر الانسان ، (١)

ويبدو لي أن الأدبية المفكرة التي يدق فكرها فيما تكتب ويتناسق تناسقا
 عليا ومنطقيا فيما دوتته من ثمرات فهمها وقلها قد اضطربت حين تناولت بالبحث
 موضوع المرأة في حقوقها وواجباتها وربما كان من أسباب هذه الاضطرابات
 ما يفيض به جو الحياة العالمية والاجتماعية الحاضرة من وفرة غامرة في الدعاية
 الموصولة لحقوق يتوهمها الواهمون للمرأة ، ويروج لها جماعات من النفعيين
 والانتهازيين ممن يتخذون من شئون السياسة وسائل لما ربهم ، أو ممن همون
 عندهم المداهنات الاجتماعية ، والمجاملات الرخيصة ، والتظرف المقيت . وللمحيط
 الاجتماعي المشبع بدعايات متلاحقة أو انجاحات معينة تأثيره في تفكير الأفراد
 وآرائهم وبخاصة إذا كان هؤلاء الأفراد من ذوى النفوس اللينة والعقول
 المرنة وعلى هذا نزع دمي ، لمسيرة الركب وجارت ، في تردد وحيرة وأناة
 من يذهبون إلى دفع النساء في معمعة السياسة ، وفي ميادين الانتخابات العامة
 وما تنطوى عليه من نزعات الأهواء والتحزب والأغراض الشخصية . ولربما

كان من المصادر لاضطراب تفكير السكاتبة ونشاز قلبها فى موضوع المرأة تلك السحب من الشكوك التى تمر أحياناً على الأذهان المكتنظة بمحصول علمى وفلسفى وافر وغزير، والتى تظل ظمأى إلى المزيد من العرفان وإدراك الحقائق . ولقد فطن الدكتور محمد حسين هيكل ، حين دعى لتأبين مى وهو يتحدث عن رأيها من ناحية المركز السياسى للمرأة فى المجتمع ، فأشار إلى مخالفة السكاتبة لمن يدعون إلى مساواة الرجل والمرأة فى الحقوق وقال ما نصه (١) :

« دهشت لأول ما سمعت «ميا» تقول ، أنها تخالف الذين يدعون إلى مساواة الرجل والمرأة فى الحقوق ، وأنها ترى هذه المساواة عدواناً على المرأة وعلى الرجل جميعاً . ودهشت حين رأيته تنفر من الحديث فى حق الانتخاب للمرأة ، وتذهب فى نفورها إلى حد بعيد ...

أما حجة «مى» فى تأييد رأيها فهى التى أوردها كما سمعتها منها ، وكما كتبته فى بعض رسائلها وكتبها . فهى تقول ، إن أكبر فخر للرجل ، وأعظم عنوان لمجده إنما هو كمال رجوليته ، الرجل الناقص الرجولة لا يغنى عنه علمه ولا ماله ، بل يظل ناقصاً أبداً . فأما من كملت رجوليته فقدير على أن يستكمل بفضلها ما ينقصه فى الناحية التى ينبغى السكالك فيها . ذلك حق نقره جميعاً . فما بالنالنا لا نقر الحق الذى يقابله ، فنقول أن أكبر فخر للمرأة ، وأعظم عنوان لمجدها إنما هو كمال أنوثتها ، وأنها بكمال أنوثتها تستطيع أن تسكمل ما ينقصها فى الناحية التى ينبغى السكالك فيها . وكما أن الرجولية قوة ونضال وحرص على الظفر ، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة ، محبة للكون ولكل جميل ولكل كامل فيه ، وحنان على المخلوق الصغير الناشئ . زهرة كان هذا المخلوق أو نباتاً أو حيواناً أو طفلاً ، وعطف على بؤس البائس وضعف الضعيف ، وأنة المريض ، وشكايه العانى وكل ذى ضراء ، أما وهذه

انظر مجموعة الخطب والفصائد التى ألقيت فى حفلة تأبين «مى» بدار الاتحاد النسائى المصرى مساء يوم الخميس ٥ من ديسمبر سنة ١٩٤١ . المطبعة المصرية . مصر

طبيعة الانوثة ، وتلك طبيعة الرجولية ، فطبيعي أن يتصور الرجال معاني النضال في سبيل الظفر بما يرونه حقاً ، وطبيعي أن يكون النضال بين الآراء وبين الأهواء ، بل بين القوى المادية ، بعض ما يصطنعونه لتحقيق مآربهم . لكن طبيعي كذلك أن يكون الصبر ، وأن يكون العطف ، وأن تكون المعاونة الصادقة وسائل المرأة لكمال أنوثتها ، ووسائلها بذلك للفخر والمجد . وكانت «مى» تؤيد رأيها بما أثبتته التاريخ في صحفه ، فهي كانت ترى النساء اللواتي اندفعن في ميادين النضال ، من مثيلات جان دارك ، شذوذاً على الطبيعة وخروجاً على سنن الكون ، ولذلك كن نادرة لا يبنى عليها حكم ، والإعجاب بهن ، وتقديس مجدهن ليس إلا إعجاباً بالشذوذ وتقديساً له . أما الرجال الذين جعلوا النضال صناعتهم فخلد لهم التاريخ ذكرأ فهم أصحاب المجد ، سواء منهم المناضلون في ميادين القتال والمناضلون في ميادين الفكر ، والمناضلون في ميادين الفن ، هؤلاء أثبت لهم التاريخ صحف فخار باقية على الدهر أما النساء اللواتي أثبت التاريخ لهن مجداً باقياً ، فهن القديسات المضحيات لله وللإنسانية ، وهن الأمهات اللواتي أنجبن الأطفال ، وهن الرحيمات اللاتي آسبن وواسبن ، وهن الملهمات اللواتي أو حين للشاعر شعره ولرب الفن فنه ، لم تكن واحدة من أولئك تتخذ النضال صناعة أو سيلاً إلى المجد ، بل كانت تؤدى واجبها في هدوء وبلا ضجة أو جلبة ، شأنها في ذلك شأن النحلة إذ تدأب في جمع العسل ، أو شأن الزهرة إذ تتضوع في الوجود جمالاً وشذى . على ما كان من هدوئهن لم ينكر التاريخ فضلهن ، بل أثبت لهن في صحفه مجداً باقياً على الدهر .

وتضيف «مى» إلى ما سبق أن طبيعة الرجل والمرأة تقتضى تضامهما في مودة ورحمة ، وتنسك تنافسهما في نضال وقتال . وهذا أمر يسير في نظرها تصوره ماخرج الفكر من ميادين المادة إلى المعنويات السامية . أما أن يقصر الإنسان نظره إلى ميادين المادة والسعي للعيش أو للثراء ، فذلك ما يدفعه لالتماس مزيد من المادة ، أو من أسباب النعمة المادية في الحياة ، وما يدعو

لبلوغ ذلك إلى التنافس والنضال . وهذا ميدان ، إن صح للرجل أن يدخله ،
فجدير بالمرأة أن تتعد عنه وأن تجعل دأبها التخفيف من حدته .

وإن الدكتور هيكل حين ذكر ما تقدم يعزز رأينا فيما ذهبنا إليه من
أصالة الأنثوية عند «مى» وأن ما جاء في كتابتها مجارياً أو منسجماً مع صدى
المطالب النسائية الصاخبة المغالية لم يكن إلا طارئاً أو دخيلاً اندس في نفسها
وهي في فتور أو في غفلة عن ذات طبيعتها الأنثوية القوية السلمية النامية ،
تلك الطبيعة الحساسة الواثقة الرنانة الصوت ، الواضحة النبرة المنغومة الجرس
في كل قول أو عمل يتناسب مع مقومات المرأة حتى لسكان القارىء يحس
آلامها حين تتذكر وتتحرك فيها أمومة فوتها عليها الأقدار فتخطب
الأمهات بهذا القول : (١)

« سمعت الطفل يبكي فهلح قلبي فرقاً وشعرت بشيء كبير يندوب فيه .
أواه من بكاء الأطفال . أنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال ! ظل يبكي بكاء
متروك منفرد لا يحبه في الدنيا أحد . الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد
التألق إلى عينيه ؟ كيف أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى ؟
فدنوت منه متوسلة وضممته إلى بذراعي التي لم تضم يوماً أختاً أو أختاً
صغيرة ، وأجلسته على ركبتى حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء ، ورفعت
عقارب شعره عن جبهته الظاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلبس شيئاً مقدساً ..
ثم وضعت على تلك الجهة شفقتى ساكنة في قبلة كل ما يحوم في جناني من
شفقة وانعطاف .. ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل
الطفل الباكي ؟ صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجى روحه ، صمت
هنيئة ثم عاد فحقد في بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أنعرفون كيف تحزن
عيون الأطفال ؟ أنعلمون كيف تعنف أحداق الصغار ؟ حدق في سائلنا عن
أعز عزيز لديه وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء . ماما ماما صغيرك

(١) انظر «نلمات وأسمه» صفحات إيكاء الطفل صفحات ٢٥ و٢٦ و٢٧ بيروت سنة ١٩٥٢

يناديك فلماذا لا تجيبين يا أم الصغير؟ عودي من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة وأحاديثك السخيفة . عودي واركي أمام الصغير واستمعيه عذراً لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء . وكيفتك الطبيعة أما قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة ، تعالى اسجدي أمام سرير الصغير . اسجدي أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائر طفله ، وحلبت به فتاة ، وانتظرت زوجته ، فما نجلت أن تهمليه أما . . اسجدي أمام المهد فإن المهد محبتك القصوى ،

وعندما تخاطب «هي» الأمهات بصوت مؤثر ينم عن عواطف الأمومة الحبيبة قد نسمعها توجه قولاً للطفولة الحبيسة إذ يقترب منها طفل صغير في الرابعة من سنواته وهي تترنض في حديقة تقول :

« تعال إلى أيها الصغير . فدنا واجفأ باسماً فسألته ألا تجلس على ركبتي فجلس صامتاً . ولما شعرت بثقل جسمه الصغير ذكرت أخي الوحيد الميت ، ووثب قلبي إلى شفقي وحالت الدموع بين أجفاني فملت إلى الطفل امتص من حلاوة وجنته ، لاهية بتلك القبلية عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعد الغيم من أطراف البحار . ما أعذب قبلة الأطفال ! وما أطيب ابتسامهم ! » (١)

إن فيما تقدم ذكره من كلمات لمي ما يشعر القارئ بتلك الحرارة العاطفية الغامرة لقلب امرأة ، والمستعرة على لسانها ، والدالة على تأصل الأثوية تأصلاً لا يضعفه ولا يزعه ما يعرض النساء في هذا العصر لهرات عنيفة ياقحامهن في مختلف نشاط الميدان الحيوي الاجتماعي .

ومهما يكن لمي من رأى في شئون مطالب النساء لتحقيق المساواة في الأعمال بينهن وبين الرجال فإن هذه الأدبية لم تسكن قط على حقيقتها بالمرأة الرجلانة ، ولا المشتتة ، ولا المغالية في تقويم الحقوق النسوية . فهي لم تهمل قط العناية بصفات الأثوية وما يلائمها ، وهي لم تكن تواقفة ولا سواقفة لإخراج النساء من ميادين الطبيعية ودفعهن في مالا يساير الفطرة ، ولم

(١) انظر ظلمات وأشعة: منشورات دار بيروت سنة ١٩٥٢ صحيفة ١ و ٤

تستدرجها مآرب الحياة السياسية الضيقة ولاملاعبها لدفع نفسها أو استدراج المرأة إلى حلقات هذه المآرب ، أو إلى ساحات هذه الملاعب ، برغم ما كان يدفعها حبها لبلادها وانتقاد وطنيتها إلى الاشتراك بقلها وقلها ولسانها في حماسة لتأييد كل مظهر من مظاهر التقدم النسوى حين لانضار المرأة لا يضيع عليها كرامة الأنوثة إذا هي غلبت في الكفاح الحيوى والنضال ، وإذا هي خرجت عن العرف السليم وتوغلت في مزلق الابتذال ، وإذا هي ، حين تتشبه بالرجال ، تضيع خير خصائصها من البهاء والرواء والجمال ، فللمرأة عند مى (هى ممشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعدوبتها مستودع تعزيتة وبسمتها مكافأة أنعابه) (١)

مقومات « مى » وتأثيرها ومخزها ونزها بنها :

بين أجزاء هذا العنوان ، الذى وضعته للفصل الأخير من حديثى عن « مى » ترابط وثيق ، لأن أهم المقومات لشخصية هذه الأدبية قد أثر تأثيرا واضحا في مجرى حياتها ، وفي تأثيرها في الناس وكذلك في مخزها وفي نهايتها من هذه الحياة .

وإني كلما أدقق النظر في أجزاء هذا الفصل وفي أطرافه تبدو لى شدة الترابط والتواصل حتى لسكان حياة « مى » قياس منطوق لا يعترضه ما يقطع التسلسل المقذور في حياة الأدبية منذ البداية حتى النهاية حين تقبر في التراب ، وحين تلوح ذكرياتها عند أولى النهى والألباب وبين المعجبين والمحبين .

ولسكى أبين صورة من هذا الترابط الوثيق يحق أن أرجع إلى الوراء واستعرض بعض ما ذكرت لها من الصفات والنزعات التى كانت بينة الأثر في سيرة عطرة مرت كسجابه محسنة انعشت أدبا كان له نفحه وعييره وشذاه .

ويلوح لى أن المعالم المتألقه في نزعات « مى » وصفاتها إنما كانت في عاطفيتها وحساسيتها للشجن إلى حد بعيد ، وأنها كانت طلعة وتواقة إلى العرفان في

حدود مترامية المدى، وأنها كانت ضاربة في الدينونة المسيحية وفي أعماق ما فيها من روحانية وصفاء، وأنها كانت تعتد بنفسها إلى أبعاد قد تفتح عندها كوة إلى الغرور، وأنها كانت شرقية وعربية النزعة بحكم إبحارة متأصلة وبيئة لها سلطانها على الوجدان، وأنها كانت ذات حظ كبير من الطبيعة الانثوية وخصائصها، وأنها كانت مثالية يستهويها الجميل ويفتنها الحسن في كل شيء.

ولعل من يدقق في هذه الصفات، وما إليها من تنازع في شؤون الانسان، قد يدرك في يسر أنها حين تتلاقى في نفس، وحين تتجمع وتزدحم في سريرة لا تلبث أن ترهق هذه النفس وأن تعبت هذه السريرة. ولقد أدركت ذلك المرحومة هدى شعراوي وأشارت إليه في تأييدها لى ومما قالت في هذا الصدد ما يلي (١): «وقمت «دى» بعد ذلك في صفوفنا فكانت تدهشنا بحدة ذكائها وعمق تفكيرها وسمو روحها ودقة إحساسها، حتى كنت أفزع أحيانا من تجمع كل هذه الصفات فيها. وأخشى عليها تأثير تلك القوى الجبارة التي كانت تتنازع جسمها وقلبها وروحها... كانت «دى» المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة في جميع أطوارها وتطوراتها، في اعتزازها بقوميتها، وتمكنها من لغتها، ومحافظةها على شخصيتها، واحترامها لتقاليد قومها وعقائدهم... كنت أتتبع مراحل نشاطها، معززة بها، نخورة بأعمالها وجهودها، ولكن - يالأسف - وقع ما كنت أخشاه، من تأثير تلك القوى الشائرة التي كانت تتنازع جسمها المضنى وحساسيتها الرقيقة، فقد تأثرت بفقد والديها أيما تأثير واستسلمت لأحزانها، واستعذبت آلامها، ولم تسمح لأحد باقتحام عزلتها أو إقصائها عن همومها. وكما كانت «دى» فذة في عبقريتها، كذلك كانت فذة في أحزانها. ولما طغت عليها الأحزان وتناوبتها العليل، ذبلت وتساقطت أوراق تلك الزهرة اليانعة».

وحقا أن من يقدر في أديبتنا أنثوية لها تعطش بالغ للأومومة وما إلى

(١) انظر مجموعة الخطب التي ألقيت في حفلة تأبين «دى» المطبعة المصرية القاهرة سنة ١٩٤١

الأمومة من مطالب ويدخل فى حسابها تلك العظمة الفكرية والكبرياء المعنوية التى أقرتها الثقافة العالية والتحصيل العلمى الغزير، ويضيف إلى ذلك الدينونة المتأصلة الصارمة التى تتحاشى الخطايا والأوزار، ثم يضع إلى جانب ذلك كله الحساسية المرهفة يرى أنه كان من المعتذر على «هى» أن تشبع رغبات أنثويتها مع أى رجل أو أن تهدر كرامة ذهنها الملىء وذوقها الرفيع بمعايشة أو بمجاراة من ليسوا فى رفعة مستواها من العلم والذوق. فبيدنا تدفعها طبيعة الأشياء فى عنف إلى وجهة، تمنعها بعض صفاتها فى عنف آخر عن هذه الوجهة، ويدينا تعرضها مطالب الحياة الاحتماعية إلى ما تعافه الكاتبة وتأباه تدفعها حاجة العيش إلى تحمل ما لا ترضاه مستسلمة كارهة.

ومن ثم كبت يحز فى حساسية مرهفة واحتمال لآلام تقيم، ومن ثم تنازع وتشاد بين مطالب وصفات متناقضة للنفس؛ ومن ثم تمزيق وتجريح فى ضمير من يستهدف للمنازعات النفسية وهو مرهف الحساسية. ومن ثم تعذيب معنوى من نوع راقٍ قد يودى إلى علة فى الجسم وفى النفس جميعا. ومرد ذلك خصومة عالية بين طموح مجنح مستنسر يريد ما ينبغى أن يكون وبين واقع كأن محتوم يقاومه فى جلد وسمود وليس ثمت طرف بينهما لىكى يتدخل صوت الاعتدال الحكيم فى تلك الحرب الضروس التى جعلت من روح «هى» المدللة المتكبرة ميدانها الفسيح الواسع. وإذا زدنا على هذا كله تلاحق الأحزان بخلو محيط الكاتبة ممن كان لها عندهم صدق العاطفه وإخلاصها، ورجاحة العقل، وتقدير المنزلة وروابط الحب فلا عجب أن يزداد بذلك ضناها وتتراكم عليها الهموم والحن وتمتص نورها وحيويتها فتذوى وتقع كما تقع الزهرة الذابلة حين يتجمع النحل النهم عليها فلا يبقى من عصارتها المونعه شيئا يحفظ لها التماسك والحياة وزكى النفحات.

أكان من اليسير على «هى»، وهى من وصل بها ذكاؤها وذوقها ونهمها فى العلم لتكون فى المنزلة العليا بين ذوى الأقلام ولتكون دائرة للمعارف فواره مائجة، أن تجد لها القرين الملائم والرفيق الموائم الذى يتناسب ذوقه

وعليه وأدبه مع ذوقها وعلما وأدبها لكي يتحقق بينهما العدل في تبادل الحب والتراحم والتقدير؟

إن المرأة تنزع بوحى فطرتها السليمة للحياة الزوجية وتودلو استوفت نصيبها المقدر من تلك الحياة وروابطها على أنها تودلو يكون شريك حياتها أبلغ منها حظاً في مقوماته ومميزاته التي تتفق مع مقوماتها ومميزاتها . أفكان من اليسير أن تجد « مى » الطموح ذلك الصاحب بين تلك الوفرة من أهل الفكر والأقلام ممن كانوا يتجمعون حولها في منتداهما الأدبي العامر؟ لعل الطموح ، ولعل السعة في مجال التخيير كلاهما كان يعطل ميا من أن تتخذها صاحباً شريكاً في الحياة في الزمن المناسب حين كانت حاجتها الأثوية تدعو إلى هذا الرفيق المشروع !! . . . !

تأثير (مى) وتأثيرها :

ولمناسبة ذكرى لمنتدى « مى » ، الذى لا يخلو أن يكون تأثيره كبيراً في حياة الأدبية ، وفي مرامها العاطفية ، وفي تفويت الزواج عليها ، أودلو أشير إشارة خفيفة إلى تأثيرها من ناحية هذا المنتدى في الناس . وفي منازع أهل الأدب وهنا أذكر ما ذكره الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن الدكتور طه حسين حين تحدث الأديب الكبير بما يلي : (١) « ظهرت مى في حياتها الأدبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسيهما في الحياة الأدبية العربية تأثيراً عميقاً جدا ظهرت بعض صورته أثناء حياة « مى » ، وستظهر بعض صورته الأخرى بعد وفاتها بزمن قصير ، أو طويل ، أما أول هذين المظهرين فهو مظهر الأدبية البرزة التي لا تحتجب ولا تستخفى وتلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى الظروف لقاءهم ، وإنما تنظم الاجتماعات الأدبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقى والامتياز . تنظم هذه الاجتماعات في بيئتها وتشترك في كل اجتماع

(١) أنظر كتاب حياة مى لمحمد عبد الغنى حسن مطبعة المقطف والمقطع سنة ١٩٤٢ القاهرة

يشبهها إذا كان خارج بيتها . وليس من شك في أن الصالون الذي تستقبل المرأة فيه رجالا يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب أو بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة . فقد عرف هذا القرن الذي نجن فيه صالونا من هذه الصالونات على الأقل ، كان بعيد الأثر جدا في حياتنا السياسية والاجتماعية ، وهو صالون الأميرة نازلي رحمها الله . فقد كانت تستقبل في دارها بعابدين كبار المصريين والأوروبيين . وكانت الأحاديث في هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الإصلاح الاجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في هذا الوقت . وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبس الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الإجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الأحاديث . وكان آثار ذلك يظهر في الحياة العامة لهؤلاء الناس . ولكن صالون الأميرة نازلي كان ارستقراطيا إن صح أن الارستقراطية توجد في مصر ، وهو على كل حال كان ضيقا مغلقا لا يصل إليه إلا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون إلى هذا النادي .

فأما صالون د م ، فقد كان ديموقراطيا أو قل إنه كان مفتوحا لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية وربما كانوا يدعون إليه وربما كانوا يستدرجون إليه استدراجا فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة ، ويكون لهذا أثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم ، ولقد صدق الأديب الكبير فيما ذهب إليه في حديثه عن أثر منتدى د م ، في تنمية المدارك وفي ترقيق الأذواق ، وفي التقريب بين طبقات الناس وبين مختلف أجناسهم ومشاربهم تحت تأثير الفن والأدب .

ويتحدث المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو من هو في الدقة وفي بعد المنزلة من تذوق الأدب الرفيع فيقول للأستاذ عبد الغني مابلي : (١) «والحق

(١) أنظر م ل محمد عبد الغني حسن .

أن ميا لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيرا ، فكان الاجتماع للمتصلين بها في ناديا الخاص الذي جعلته في بيتها ، وكان المجتمعون يستطيعون أن يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلأنها كانت هي التي تتولى إدارة الحديث في المجتمع ، وكان تنوع الأحاديث وسموها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادة المجتمعات يدل على مقدار كفاياتها الأدبية ، وقيمتها الخلقية . وكانت « م » ، تدير الحديث ولكن من غير أن تظهر بمظهر المتزعمة في النادي ، أو المتصدرة في الحفل مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة

ومهما يكن من أثر لمنتدى « م » في التقريب بين أهل الفكر وفي ربطهم بالروح الأدبية والديموقراطية وفي ترقية أذواقهم وفي تلقينهم اللباقة في فنون الأحاديث وآدابها فإنه كان لهذا المنتدى أثره المحمود بين الشباب من الأدباء ، وأنه كان له تأثيره كذلك في نزعات « م » ، وصفاتها ومن ثم في حياتها كلها .

تأثير « م » :

ولعل أبدي تأثير لمنتدى « م » ، في صفات السكاتبه نفسها وفي حياتها أنه أكد فيها الثقة بنفسها ، وذلك لأن كبار الكتاب والأدباء والمفكرين ، حين كانوا يتلاقون في ساحة تلك الشابة الأدبية الظريفة ، ويتركون لها إدارة توجيه الأحاديث وتنظيم الحوار والمحاضرات فإنهم كانوا يفتحون للشيطان بابا ليتعدى ناحية الثقة بالنفس ، ويغرى لطرق باب الغرور . إن الشهرة تحيط بمى مع من يحيطون بها ويكبرونها من الكتاب والمفكرين ، وأنها مدللة عندهم جميعاً ، أثيرة بينهم بالإعجاب والاطراء ، وإنما لتسمع من شيخ من شيوخ شعرائهم مثل ذلك القول في متنها البديع حين يقول (١) :

(١) الشعر لاسماعيل صبرى .

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامى الطير إذ يهفو على الماء
 إن لم أمتع بمى ناظرى غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء
 وإنها لتقرأ فى خطاب لها من شيخ من شيوخ الأدب والفكر تلك الجملة
 التى تجد فيها بالغ التحية والتعظيم حين يقول (١) :

« فصولك الغضة تعلو بالمدارك ، وتنير جوانب النفوس ، فلا تدعها
 كالأوراق التى تخضر فى الربيع وتذوى فى الشتاء . اجمعها جنية غضة وكللى
 بهار ووس الأعوام . الناس فى حاجة إلى هذه الأنغام الإلهية . هذه تحية
 تمجيد وثناء أضعها تحت أقدامك فإن بلغت ذلك المقام فحسى ، .

وكم من محدث يتحدث برخامة صوتها حين تغنى ، وكم من ذاكر حلو
 الابتسامة حين تبسم . وكم من متغزل بوسمات الظرف وبملاحة الطرف .
 والعدارى بغيره من الشاء . فلم بالله لا يطرق شيطان الغرور بابا فى نفس «مى» ولم
 لا يؤثر فيها هذا الثناء المحيط المتوالى فيدفعها إلى جهود متواصلة لتستزيد بها علما
 ومكانة وترفعاً يتعسر معها أن تفتح قلبها من يؤهل من الرجال للاشتراك فى
 الحياة معها ، وفى جو الروحية الصالحة المسعدة . وإنه مع الجهود والطموح
 يزداد رصيدها الأدبى من العناء والضنى ، ومع العناء والضنى تقرب
 للألام والعلل .

وهكذا فى ندوة «مى» وصفاتها ومنازعتها مقدمات منطقية مترابطة
 لشجونها ولما لحق بها من الابتداء حتى الانتهاء .

على أن هذا المنتدى الذى كان له تأثيره فى الأدب وفى الناس ، وكان له
 تأثيره وأثره كذلك فى شهرة التى أقامته وسيطرت فيه لإثارة أفكار المفكرين
 وكان له تأثيره فى تسكييف نفسياتها ، وفى اتساع ثقافتها وعلمها وفى تعجبها الجسمى
 أقول أن هذا المنتدى قد تفجر من بعض أركانه نبع فياض ، لإرواء أدها
 العاطفى الرائع ، ولتفجير ما فى قلب المرأة من مطالب الحب ، ولإشعال

نفسها بنار العذاب الطاهر المطهر، ولمصدر هام من مصادر علمها
ومخنها القاسية .

المحن والشجوه :

كتبت « مى » فى بعض فصولها ما يلى (١) : « من عجائب الطبيعة وضعها
النقيض بجوار النقيض ، تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة
الغمامل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار . . ما أقامت
ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً ، وما جادت بناه إلا بليت بمعتوه ،
ولا سلست بوليد إلا ودعت بصريع . »

وكذلك كان فى المنتدى « مى » معالم لشهرتها وسعادتها وتقواها ، وتجاويرف
لمحنها وشجنها وبلواها . كان فى هذا المنتدى مصدر لما أصابها من متناقضات
تبدو فيما يتألق من مخايل الأحلام المسعدة ووخزات الآلام الجارحة الدامية .
وفى هذا المنتدى ، الذى عرفته من منذ أول ما عرفته فى شارع علوى
خلف مبنى جريدة الأهرام كانت تدور الأحاديث فى شتى فروع الأدب ،
والعلوم والفنون ، وتذكر فى جوه الأنيق بالنقد أو الإرادة والتمجيد آثاراً
للأدباء والفنانين والعلماء . « مى » زهرة النادى والمثيرة لتيارات الأحاديث
فيه ، والمحبة للجميل فى كل شىء ، وبخاصة فيما يصدر من أفكار الناس وأهل
الفن والأدب . وفى جلسات هذا المنتدى الحافل بالناهين من المثقفين
والبارزين من أهل الرأى يحدثنا جميل جبر فيقول (١) :

« دار الكلام غير مرة فى تلك الجلسات المنظمة حول آثار جبران
وفعلها فى توجيه الفكر العربى المعاصر . فشاق « مى » التعرف إلى ذلك المجدد
الخلاق ، وكان أول ما طالعت منه مقاله « فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى » .
فاستذوقت نهجه وطالعت سواه واستزادت . لقد لقيت لدى الرجل صوتاً
حاد النبرة شاسع الإيحاء ، يחדش الآذان الشرقية الآلفة الوتيرة الواحدة ،

(١) انظر كتاب المساواة فصل والرق والعبودية .

ويبعث فيها الثقة بقدره الإنسان . ولقيت لديه أيضا غصة ألم وضراوة وحشة ، وفورة جموح طالما تنازعها هي فأورثتها الفلق الذي لا يهادن . ولم تكتف مي بمطالعة جبران ، وقد رأت فيه شخصية فذة ، بارزة السمات ، بل راحت تستوضح سيرته وأوضاعه باهتمام جدي ، كأنما أرادت أن تكتشف الينبوع الذي فجر ذلك النتاج . . . فعلمت أنه لبناني بأثر هجر قريته « بشرى ، وأمه وإخوانه إلى « بوسطن » .

وهناك في حي موبوء قذر ، جعل يدرس الانكليزية ويرسم عوض أن يساعده ذويه في تجارة السلع الصغيرة ، وعلمت أنه فقد أخاه وأمه وأخته صغيراً . فعاد إلى بيروت ودرس العربية فيها ، ثم قصد باريس وتلقى على يد رودان ، أصول الرسم الحديث لينتهي إلى « بوسطن » من جديد ويعيش من إبرة أخته في بيته تعاسة وحرمانا . لم تكن هذه الوقائع التي تلقتها عن الشاعر إلا لتؤجج شوقها إلى التعمق في معرفة أنه فريد جذاب . كانت تقول في نفسها ولكن كيف الوصول إليه ؟ .

وكان الوصول إلى ذلك أن كتبت إليه أول رسالة في ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ لتعرفه بنفسها وتحديثه عن آثاره الأدبية وأثرها الطيب وقد تحمل سطور رسالتها ، في غير إفصاح وتعبير ، معنى روحانيا آخر اسمه الشوق إلى معرفة من تكتب إليه دون أن تهدر حياءها وكبرياءها الأثوى لتفصح عن هذا الشوق السكامن المقدور .

وتلقى جبران الذي سبقت شهرة « مي » إلى سمعه وإلى نفسه تلك الرسالة التي كان فيها الضرام الأول لما بين قلبين ولا بد أن يكون قد تلاها وتأمل فيها أكثر من مرة إذ وصلت إليه وهو في سن الشباب ، وفي سن الكفاح من أجل الشهرة ، ومن أجل المرامي التي يهدف إليها في علو المسكان بين الكتابيين والفنانيين . وطالما توقظ رسائل العذارى الناهبات في نفوس الموهوبين ، للبروز والنباهة ، كل نشاط للتجلي بما يستهوى أفئدة العذارى والغايات الحسان . وأسرع جبران في تسطير جواب رقيق لمي يثنى عليها

ويشكر لها أثناءها عليه ، وتحمل الرسالة ما لا تحمله الكلمات من حنين يكمن في نفسه لتلك التي شامت الأقدار أن يصل بين قلبها وقلبه في أول الأمر تيارات غير منظورة من الشوق ، تيارات مبهمة من التراحم لا يحددها إفصاح . ولقد أرفق جبران مع خطابه آخر كتاب ألفه وقتئذ وهو « الأجنحة المتكسرة » . وتلقت « دى » رسالة جبران في شغف وقرأت الكتاب المرفق في تلهف .

وفي الكتاب فن جبران الأخاذ ، وفيه تمرد ، وفيه كل ما يستهوى ويلهب إعجابها إلهابا . وسرعان ما كتبت « دى » رسالة تحدث الأديب النازح عن رأيها في كتابه . وفي حديثها عن كتابه أدخلت حديثا عن الزواج الذي طالما تحلم به المرأة استجابة للأمر الرباني الأزلي ، وخضوعا لوحى الطبيعة التي لا بد أن تربط حواء بأدم ولكن برباط قدسي وثيق .

كتبت « دى » إلى جبران خطابا في ١٢ مايو من سنة ١٩١٢ وجاء فيه ما يلي (١) :
إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأنني أعرفك صادقا في تعزيزها مخلصا في الدفاع عنها ، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة ، وأشارك أيضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة فكل رجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة في ذلك أمياله وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف . حتى إذا ما إنتخبت شريكا لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما . أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة ، حبكتها الأجيال ، وأنا أقول إنها سلاسل ثقيلة ، نعم . ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي ، فلن يتوصل الفكر إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء . لم لا تستطيع المرأة الاجتماعية الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لأن باجتماعها هذا السرى ، مهما كان تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء إرادتها وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها .

(١) أظن رسائل « دى » . تقديم جبل جبر منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١ ص ١٦ و ١٧

عند الزواج تعد المرأة بالأمانة، والأمانة المعنوية تضاهى الأمانة الجسدية أهمية وشأنا . عند الزواج تنكفل المرأة بإسعاد زوجها ، وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبه إزاء المجتمع والعائلة والواجب . ربما اعترضت على هذا بقولك : إن الواجب كلمة مبهمه يعسر تحديدها في أحوال كثيرة . فليس لنا إلا أن نعلم ماهى العائلة ، لنجد الواجبات التى يفرضها على أفرادها . ودور المرأة العائلى هو أصعب الأدوار وأوضعها وأمرها .

إنى أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب . ولكن إذا جوزنا لسلى دسلى كرامة بظلة الرواية ، ولكل واحدة تماثل سلى عواطفنا وسموا وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها فهل يصح لكل امرأة لم تجد فى الزواج السعادة التى حلمت بها وهى فتاة أن تختار لها صديقا غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا ، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب .

وللقارى أن يتلمح فى هذا الخطاب صوراً من نفسية السكاتبة التى فيها من الصفات ما يدفع ومنها ما يمنع . للقارى أن يجد فى هذا الخطاب الذى كتبه دى ، الشابة الربانية وهى فى نحو السادسة والعشرين من عمرها إلى شاب نازح فنان أديب يشبه عمره كذلك ما بلغته الفتاة من العمر وهو كذلك من جنسها ودينها وبلدها ، وله أدبه وله محاسنه وله قيمته وشهرته . أليس فى شباب هذه الفتاة ما يدفع دفعا إلى هذا الفتى ؟ لكن فى دينها وتقاليدها ومبادئها ما يمنع الفتاة من مجاراة صاحب الأجنحة المتكسرة ، فى التمرد والنزوع اللذين يفصح عنهما كتاب جبران حين يهون على المرأة المحبة أن تتلاقى بالرجل المحب غير عابئة بالقيود وبالحدود . وإن دى ، التى تقف نفسها بين دافع ومانع لتعترف بثقل القيود ، وربما تضيق بها ، ولكن سلطان الموانع يشدها إلى هذه القيود شدا وفى النفس أشواق للانطلاق فى جو الهوى ولكن أجنحة دى ، كانت كذلك متكسرة بحكم التقاليد والدين . وتحدث دى ، فى هذه

الرسالة أيضاً عن لبنان وعن الكتب التي قرأتها هناك في رحلتها وقالت :
« وكل واحد من مؤلفاتك يا جبران صديق عزيز علي ،

وفي سنة ١٩١٣ أقيم حفل في القاهرة لتكريم الشاعر خليل مطران ،
وأرسل جبران كلمته عن « الشاعر البعلبكي ، لتلقى في هذا الحفل المقام في
مبنى الجامعة المصرية القديمة الذي عفت الآن آثاره . ووقع الاختيار على «مي ،
لتلقى كلمة الغريب النازح في تمجيد مطران . وتقرأ الكلمة الطيبة الحبيبة عن
يحموم قلبها حوله وكان لها في قراءتها نشوتان نشوة من الكلم الطيب ونشوة
من وحى الهوى فأبدعت في الإلقاء إبداعاً .

ويقول لنا جميل جبر في كتابه القيم الطريف عن « مي ، وجبران :
« تواترت الرسائل بين الغربية والغريب وفيها من مبادلة الرأي والتشجيع
والإعجاب غير القليل : « والنفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس
أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس ، كما أن الغريب يستأنس
بالغريب في أرض بعيدة عن وطنهما ، .

وفي هذه الأثناء إذ كانت الرسائل تتبادل بين الأدبيين الشاديين في
الحب تقع الحرب العالمية الأولى وتتعطل المواصلات بين العالم الجديد الذي
يعيش فيه جبران وبين العالم القديم الذي تعيش فيه « مي ، وكان لهذا أثره
في حرمانهما من ينبوع كان فيه ما يلطف حرارة الشوق الوامق إلى التلاقي .
والفلك يدور وتتقدم «مي ، في السن ويتقدم كذلك جبران ، وكانت « مي ،
كجبران نجد في قراءتها وندوتها ودراساتها في الجامعة ما يخفف عنها مطالب النزعات
وكذلك كان جبران . ومنتدى « مي ، الحافل برواده الأجلال ، والمعجبون
الكثيرون بها من مختلف الأنحاء ، كل ذلك قد يعمل عمله في حركات
التحير والتصادم النفسى بين جنبي الأدبية الكبيرة ولكن برغم تحرك الميول
وتذبذبها فالدافع الأقوى يوجه القلب دائماً إلى جبران .

وأخيراً وفي سنة ١٩٢٠ ينتهى دور التلميح إلى دور التصريح ، ويكتب
جبران لى خطاباً موزاً فيه المبهم وفيه المستور من العواطف ومنه الكنايات

والتعميمات، وفيه المبرقع والسافر من رغبات نفسه التي تنوق إلى الاجتماع بها حيث هو، وفي كن واحد، في ظلال الوصل والغرام. وهنا تركت «مى»، للأيام أن تمر قليلا وتركت لنزعات نفسها الخيرية أن تتصادم وتتشاور كثيرا، ولكن النصر كان لنصرانية وتقاليد متأصلة برغم هوى كان صاحبه المتمرد يريد ناجزا، ومتحلا من القيود. ولكن انتصار المظهر لم يحل دون تباريح الحب والانكسار في المخبر فإن ميا التي جهرت لجران برأيها في قدسية العلاقة الجنسية وإرسائها على قواعد الدين والخلق والتقاليد المشروعة لم تخف وزن تعلقها بجران برغم ما قرأت له من الكتب التي أهداها إليها ككتابي «المواكب»، و«المجنون»، وقد أخرجهما في أثناء الحرب وفيهما تتأكد نزعاته الثورية، واستهتاره بالتقاليد وتأثره بنيتشه الألماني كبير المتمردين على الأوضاع القائمة. و«همت» «مى»، لتكتب إلى جبران الذي تطاول في رسائله في الغزل والمطلب، وكان لها أن تقطع الصلة، ولكنها كتبت ما في مظهره العنف والقطيعة، وفي باطنه الملاينة والوصال، فهي كأنها تدفعه بيد وتشده بأخرى وكان في كتابها ما يصدق به قول من يقولون عن النساء يتمنعن وهن الراغبات. وجاء في كتابها ما يلي:

«لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت. وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا، أن هناك رجلا أحاطبه فأكلبك كما أكلم نفسي، وأحيانا كأنك رقيقة لى في المدرسة. إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة، أتكون المسافة، وعدم التعاون الشخصي، والبحار المنبسطة بيننا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال؟ قد يكون... إلى أن تقول ومررت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب لأنى كنت أقول لنفسي: «يجب أن نقف هنا... أنت قيدتى (مذنبية) في دفترك وقت تشكو لأنى كلما حدثت في شيء أخفيه وراء القناع، وكلها مددت يدا أثقها بسمار... نعم فعلت ذلك متعمدة، تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغز لها يد الغيب

وتدها بين فكرة وفكرة وروح وروح . وصرت أحرف المعاني وأمسخ الأسئلة وأضحك عند السكلمات التي تملأ العينين دموعاً . وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحوالك عن هذا الموضوع وأذكرك أني وحيدة أبوي ؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد ، فيقذفون به من انكلترة إلى الهند . أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء . ولكن أين نحن من هؤلاء ، ونحن شرقيون . تعمدت ذلك خصوصاً لأوفر على نفسي عذاباً هي في غنى عنه ، ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكا وعلقما في هذه السنوات الماضية . ففهمت ما أريد وإنما في غير معناه الحقيقي ، وفهمته على وجه لم أقصده . ثم سطلت عليك الكبرياء ، كبرياء الرجل ، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن الذين تكاتبنا أبداً كصديقين مفكرين . نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضاً وما دام أنه لم يكن الأصل فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر في علاقتنا الأدبية الفكرية .

أما صدق القائلون أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات . آلمني سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهي ، فأعلمني أنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية لأنك لو كنت سعيداً بها مثلي ، لما كنت رميت إلى أبعد منها . علمت أنني كنت وحدي حيث كنت أظننا اثنين . وقد تركت أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها . وصار معنى سكوتك عندي « إما ذاك وإما لا شيء . . . » وأنت أدري بأثر هذا في نفسي ، .

وفي هذه الرسالة التي كتبتها « م » ، لجران يستطيع القارىء الفطن أن يدرك منها مداورة المرأة الراقبة والمرغوبة ، وهي تمزج التمدل بالكبرياء وباللين وبالاستفزاز في تلهيحات تخالط تصريحات وفي رفق يخالطه العنف . ويكتب لها جبران معاتباً وآسفاً ، ويبدى ما حال بين قدمه إلى القاهرة من أسباب الارتباطات المعنوية ، وقد تكونت أسباب مالية ، وثمت

أسباب صحية كذلك . وانقطع الأديب حيناً عن الكتابة لاشتغاله بإعداد كتاب من كتبه فحسبت «مى» أنه قد ألمه خطاها، فبعثت تعتذر إليه، وتدعوه للعفو والابتسام ونسيان الإساءة ، ويحججها بما يرق ويطيب من الكلم ليقول (١) :

« أنا المسمى وحدى ، وقد أسأت فى سكوتى وفى قنوطى ، لذلك أستعطفك أن تغتفرى لى ما فرط منى وأن تسامحنيى . »

وأهم من تبادل الرسائل الغرامية ما كان يوحيه تخيل الكتاتين المتحابين من روائع الأدب المتناثرة فى صفحات ما يضعانه من المؤلفات . فمى تتخيل جبران وتناجيه فى فصول رائعة من كتابها « ظلمات وأشعة » دون أن تصرح باسم جبران . وكذلك كان يفعل جبران فى آخر كتبه . وبما تقوله فى صفحات كتابها المتقدم الذكر ما يلى :

« أنت أيها الغريب .. أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ، وكما يعرف السجناء بأرقامهم يعرف كل حى باسمه ، وقد التقينا وسط جماعات المثقفين فيما بينهم على الضحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض أحياناً . أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوء فى ، لأنى إنما أقلدهم لأريك وجهاً منى جديداً . وأنت أتجارهم بمثل قصدى أم الهزء والاستخفاف منك طوية وسجية ؟ ولكن رغم انقباضى للنسكته منك والظرف ، ورغم امتعاضى للتغافل منك والحبور ، أرانى وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات السكتان والعبوس والتأثر ، بنظرك الناقد الهادى تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ، فصرت إذا ما ذكرتك ارتدت نفسى بثوب فضفاض من الصلاح والنبيل والكرم متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق . »

لى بك ثقة موثوقة ، وقلبي العتى يفيض دموعاً . سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأمانى ، وأبئك شكوى أحزاني ، أنا التى ترانى طرودة طياره .

(١) انظر كتاب مى وجبران لجبل جبر ص ٣٨

وأحسى لك الأثقال التي قوست كتفي وحنيت رأسي منذ فجر أيامي ، أنا التي أسير مخموفة بجناحين متوجة بأكليل ، وسأدعوك أبي وأمي متهيبة منك سطوة الكبير وتأثير الأمر .

وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين .

وسأدعوك أخي وصديقي . أنا التي لا أخ لي ولا صديق .

وسأطالعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري .

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل .

وإذا ساء التصرف وارتكبت ذنبا ما سأسير إليك متواضعة واجفة في

انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أعمد الخطأ لأفوز بسخط علي وأمثل لأمرك .

وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمال حسابا

لأحصل على التجيذ منك أو الاستنكار ، فأسعد في الحالين . وسأوقفك

على حقيقة ما ينسب إلى من آثام ، فتكون لي وحدك الحكم المنصف .

وما يحسبه الناس لي فضلا وحسنات سأبسطه أمامك فتنبهني إلى الغاط فيه

والسهو والنقصان . ستقومني وتسأخني وتشجعني وتحقر المتحاولين

والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني كما أكذب أنا وشاية

منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبر شاهد .

كل ذلك وانت لا تعلم !

سأستعيد ذكرك متكلمًا في خلوتي لأسمع منك حكاية غموك وأطاعك

وآمالك . حكاية البشر المجتمعة في فرد واحد .

وسأستمع إلى جميع الأصوات على أن أعثر على لهجة صوتك ، وأشرح جميع

الأفكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاطم تقديري لآرائك وأفكارك .

وسأبتين فى جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هى شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك .

وسأبتسم فى المرأة ابتسامتك . فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فىك .

سأصورك عليلاً لأشفيك ، مصاباً لأعزيك ، مطروداً مرذولاً لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأى تهور يجازف الاخلاص ، ثم أبصرك متوقفاً فريداً لأفاخر بك وأركن إليك .

وسأتحيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تنقلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل .

وسأتحيل ألف ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو . وإلى أى درجة تستطيع أنت أن تحب .

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخورا لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه الآخرون .

أتعلم ذلك أنت الذى لاتعلم؟ أتعلم ذلك ، أنت الذى لاأريد أن تعلم؟ ، وفى نفس كتاب ظلمات وأشعة أو فى الفصل الذى جعلت «مى» عنوانه «قرب منعطف الطريق» نقرأ ما يلى : «هناك ، فى تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القدر من دوايه على صدرى جدران الحديد ومعازل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق برزت فجأة أمامى . وأخذت تتكلم عن معانٍ اختفت طى المعانى ، وأشياء توارت فى الأشياء ، وممكنات حجبت فى المستحيلات ، وخير حصحص وراء الشر ، ونور أشرق فى لجج الظلام ، وسمو تجلى خلال الحتمارة . وكانت يدك تتحرك متريثة متأنية فبدت منها الإشارات سحرية ساهية ، ثم تشير الكائنية إلى معنى الوجد ثم تقول : «ولسكن ، أنى جاء الوجد؟ أنت لم تكن تهتم بى وأنا لم أكن أهتم بك . ولسكن علام تشل أوصال روحى للذنو من مكان حملته؟ وعلام اضطرارك وارتعاش يدك إذ تلمح خيالى

عن بعد؟ ... أنت لم تسكن تعباً بوجودي وأنا لم أكن أعباً بوجودك .
ولسكن لماذا كنت أحاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه . . من أنت
وماذا كنت؟ أكنت وحيًا من فيض شاعريتي المكتظة ، وطيفًا من أطياف
شوقي وعذابي؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور السفن
في البحر إلى الشواطئ النائية؟ لقد كنت وحيًا من فيض شاعريتي المكتظة،
وكنت طيفًا من أطياف شوقي وعذابي . . يامهذي . .

وبمثل هذه التعبيرات وعلى نحو هذه النبرات التي تراها مرموزة فيما
كتبت «دي» منذ أن تعرفت وترابطت بالقلم وبالفكر وبالخيال وبالقلب مع
«جبران» نستطيع أن نبرر ما اتجه إليه المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق
حين قال (١) : « للآداب الإفريقية من غير شك أثر ظاهر في أسلوب «دي»
وفي طريقة معالجتها للموضوعات التي عالجتها . ولعل أثر الآداب الأوربية
الذي وصل إلى «دي» من طريق الكتاب السوريين في أميركا - كتاب
المهجر - لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوربية ذاتها . »

ومهما يكن من أثر لمختلف الآداب في أسلوب «دي» ، أو مهما يكن
من استقلال في أسلوبها طوعاً لذوقها الفني الخاص ، ونبوغها المميز فلقد
كان لأدب «جبران» الرمزي أثره في بعض روائعها وفصولها بعد أن
توثقت الروابط بين الكائنين الكبيرين وكذلك قد وجهت الأدبية الكبيرة
هذا الأديب الكبير بما أوحى إليه ذكاؤها ، وبما أثارته في نفسه رسائلها
ومناجياتها وملاحظاتنا ونقدها ، وعتبها ، ودلها ، من عواطف ومن
انفعالات أدبية دافقة ومتسعة .

ومع مرور الأيام فقد تطورت التلميحات والاشارات إلى تصريحات ،
وحلت العبارة محل الإشارة ، واكتسحت الصراحة ميادين الغموض والابهام .

(١) انظر كتاب « حياة دي » لمحمد عبد الغني حسن صفحة ٤٧

ولنا أن نتساءل أكان أكسب للأدب وأربى عليه ، عندما يحرك الحب الأفلام ، أن يطول زمن الإيهام أو تغلب الصراحة على الغموض ، ويتأكد النور ويتولى الظلام ؟ وتمر السنون على الإنسان ويتطور جنسانه وبيانه ، ويتطور قلبه ويفصح لسانه وما تكاد تحل سنة ١٩٢٤ حتى نقرأ لى مايلي (١) :
 «... جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب .
 إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمى الحب في أعماقهم قوة ديناميكية رهيبية قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألا السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهم بما لا علاقة له بالعاطفة . يفضلون أى غربة وأى شقاء — وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة ؟

ما معنى هذا الذى أكتبه ؟ إنى لا أعرف ماذا أعنى به . ولكنى أعرف أنك محبوبى وأنى أخاف الحب . إنى أنتظر من الحب كثيراً فأخاف أن لا يأتينى بكل ما أنتظر . أقول هذا مع على بأن القليل من الحب كثير . الجفاف والقحط واللاشيء بالحب خير من النزر اليسير . كيف أجسر على الافضاء إليك بهذا ، وكيف أفرط فيه ؟ لا أدرى . الحمد لله . إننى أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً بعد هذا الكلام ولا تخفيت زماً طويلاً . فما أدعك ترانى إلا بعد أن تنسى . حتى السكتابة ألوم نفسى عليها أحياناً ، لأنى بها حرة كل هذه الحرية . أتذكر قول القدماء من الشرقيين : أنه خير للبنث أن لا تقرأ ولا تسكتب ؟

إن القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدى هنا أثر الوراثة لحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة . ماهو ؟ قل لى أنت ماهو هذا . وقل لى ما إذا

(١) انظر رسائل مى تقديم جميل جبر . منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١

كنت على ضلال أو هدى فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول .
وسواء كنت مخطئة أو غير مخطئة، فإن قلبي يسير إليك . وخير ما يفعل هو أن
يظل حائماً حولك يحرسك ويحنو عليك .

... غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال
والألوان، حصحست نجمة لامعة واحدة، هي الزهرة إلهة الحب . أتري
يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوفون؟ ربما وجد فيها من هي مثلى، لها
واحد جبران، حلو بعيد هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق
يملاً الفضاء وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل
سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذى تحبه
فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقى بالقلم جانبا لتحتفى
من الوحشة فى اسم واحد: جبران .

وتتقدم الأيام، ويتلظى الحب، وتتعدد الرسائل الغزلية والغرامية بين
مى وجبران، وحسى منها ما قدمت . على أن هذه الأيام التى تتقدم بالحيدىين
إلى النهاية المحتومة لم تسكن لتتقدم دون أن تسقيهما وتعدهما ضربا من شراب
العذاب المادى والمعنوى . فكانت تنادى، تخطو مع الأيام إلى سن اليأس والشيخوخة
وكلاهما للمرأة عدو بغيض . وإن فى تنازع أحوالها وما يقع من الاضطراب
والنشاد والتناقض بين صفاتها النفسية كل ذلك يتعجل بها إلى الوهن وقد
يصور ذلك ما بلى من قولها: (١) «وها أنا ذا أسير فى أطراف مرقص
الحياة معانية ما يعانىه مساجين الوجود جميعا، يبرح بى وإياهم الشوق إلى
السعادة، وأتلقى مثلهم ذلك الوحى المتجدد بوجودها . وعند كل خطوة خيبة وكند،
وعند كل خطوة أمل وجذل، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل
الحيوى الذى يتدفق مرغيا مزبدا إلى حيث لا يدرى، وعند كل خطوة
استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم وغايته، عن

(١) انظر كتاب نغمات وأشعة لى صحيفة ٧١ . دار بيروت للطباعة سنة ١٩٥٢

معنى الطرب وغايته ، وعند كل خطوة سؤال للسكون لماذا وجدت النفس الإنسانية كالتحساس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رنانا عميقا وجيعا

وجبران الأديب الفنان يتحرق بين فئسه وأمله وغرته وغرامه وواقعه وخياله والجسم له طاقته فى احتمال حرارة التحرق والتلهب فيسطو عليه المرض ، ويحز فى صلبه وعظامه ويقطع وينخر فى أنسجته ويقوضها ، ويوهن فى خلاياه وكيانه ، ولكن الفنان الأديب ظل يكافح المرض ويكتب ويرسم ويناجى فى رسائله وكتبه ، من أميركا ومن نيويورك ، حبيبة قلبه المقيمة فى مصر وفى القاهرة . ويزداد ألم الحبيبة بازدياد علمها لأخطار العلة التى تقسو على المحبوب وتتوالى خطاباتها إليه لتسليه وتواسيه ، ولتبشبهه عواطفها وأشواقها وأمانيتها الأليمة . وقد يتمثل ذلك فى رسالة كتبتها إليه فى سنة ١٩٢٥ لتقول (١) : « صديقي جبران . لقد توزع فى هذا المساء بريد أوروبا وأميركا ، وهو الثانى من نوعه فى هذا الأسبوع ، وقد فشل أملى بأن تصلنى فيه كلبة منك . نعم إنى تلقيت منك فى الأسبوع الماضى بطاقة عليها وجه القديسة حننه الجميل ، ولكن هل تكفى الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل .

لا أريد أن تكتب إلى إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك أو عندما تنيلك الكتابة سرورا ، ولكن أليس من الطبيعى أن أشرب إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها حقيقته ! أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضها اسم نيويورك واضح . فلا أذكر صديق ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه ؟

ولتحملى إليك رقتى هذه عواطفى فتخفف من كآبتك إن كنت كئيبا ،

(١) انظر رسائل « مى » تقديم جميل جبر . منشورات مكتبة بيروت . بيروت سنة ١٩٥١

وتواسيك إن كنت في حاجة إلى المواساة . ولتقوك إذا كنت عاكفا على عمل ولتزد في رغدك وانسراحك إذا كنت منشراحا سعيدا ،

ولكن ماذا كانت تجدى مؤاساة دى ، لمحبوها إلا إضرار الأشواق وتسعير جذوة الأسمى في روح تنوئ لتقفز من قفصها الواهى المحطم ، ومن عالم الرؤى والأحلام والآمال إلى عالم الحقيقة والاستقرار . ولكن جبران الدائب المثابر في تدوين أدبه يبعث بخطاب يقول فيه مايلي (١) : « صحى الآن اردأ نوعا عما كانت عليه في بدء الصيف ، فالشهور الطويلة التي صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحى وجسدى . أما هذا الطائر الغريب (يعنى قلبه) الذى كان يخلج أكثر من مائة مرة في الدقيقة فقد أبطأ قليلا بل أخذ يعود إلى نظامه الاعتيادى غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هدأ ركافى وقطع أوصالى . إن الراحة تنفعنى من جهة أخرى . أما الأطباء والأدوية فمن علتى بمقام الزيت من السراج . لالست بحاجة إلى الأطباء والأدوية ، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون . أنا بحاجة موجهة إلى من يأخذ منى ويخفف عنى . أنا بحاجة إلى فصادة معنوية ، إلى يد تتناول مما ازدحم في نفسى ، إلى ريح شديدة تسقط أثمارى وأوراقى .

أنا يا دى ، بركان صغير سدت فوهته فلو تمسكنت اليوم من كتابة شىء كبير أو جميل لشفيت تماما . لو كان بإمكانى أن أصرخ عاليا لعادت عافيتى . قد تقولين لماذا لا تكتب فتشقى ؟ . وأنا أجيبك لا أدرى ، لا أدرى ، لا أستطيع الصراخ ، هذه هى علتى ، هى علة فى النفس ظهرت أعراضها فى الجسد
وتسألين الآن إذن ، ما أنت فاعل ؟ وماذا عسى أن تكون النتيجة ! وإلى متى تبقى فى هذه الحالة . أقول اتنى سأشقى ، أقول إتنى سأنشد أعنيتى فأستريح ، أقول إتنى سأصرخ من أعماق سكينتى صوتاً عالياً . بالله عليك لا تقولى : « أنشدت كثيرا وما أنشدته كان حسنا . لا تذكرى أعمالى الماضية لأن ذكرها

يؤلمنى لأن تفاهتها تحول دى إلى نار محرقة ، الآن نشوفتها تولد عطشى ،
الآن سخافتها تقيمنى وتقعدى ألف مرة ومرة فى كل يوم ، لماذا كتبت
تلك المقالات وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضن بالفطرات
فأدخرها وأجمعها ساقية؟ لقد ولدت وعشت لأضع كتابا، كتابا واحداً صغيراً
لا أكثر ولا أقل . قد ولدت وعشت وتألمت ، لأقول كلمة واحدة حية
بجنحة . ولكننى لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتى ؟
لم أفعل ذلك بل كنت ثرثاراً ، فيالأسف وباللخبيل . وبقيت ثرثاراً حتى
أنهكت الثرثرة قواى ، وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتى
وجدتنى ملقى على ظهرى وفى فى حجر صلد . لا بأس ، إن كلمتى لم نزل فى قلبى ،
وهى كلمة حية بجنحة ولا بد من قولها . لا بد لتزيل بوقعها كل ما أوجده
ثررتى من الذنوب . لا بد من إخراج الشعلة .

وفى سنة ١٩٢٥ سافرت مى من مصر إلى إيطاليا لتسرى عن نفسها العانية
بعض ما تلاقى من الحرمان والهموم التى يرد الكثير منها إلى سقام جبران
وآلامه وتسكتب دى ، لجبران لتلح عليه فى العودة إلى شرقه الحبيب ويكتب
جبران لى ليقول (١) : « حبذا لو كنت مريضاً فى مصر ، حبذا لو كنت مريضاً
بدون نظام فى بلادى قريباً من الذين أحبهم . أتعلمين يامى أنى فى كل صباح
ومساء أرى ذاتى فى منزل فى ضواحي القاهرة وأراك جالسة قبالى تقرئين
آخر مقالة كتبتها أو آخر مقالة من مقالاتك وهى لم تنشر بعد؟ أتعلمين يامى
أنى ما فكرت فى الانصراف الذى يسميه الناس موتاً ، إلا وجدت فى التفكير
لذة غريبة وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل؟ ولكنى أعود فأذكر أن كلمة لا بد
من قولها فأحار بين عجزى واضطرارى وتعلق أمانى الأبواب . لا ، لم أقل كلمتى
بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل
مرأ كالعلم . أقول لك يامى ، ولا أقول لسواك ، إنى إذا انصرفت قبل

تهجئة كلمتي ولفظها فاني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في
سكينة روحى . أنتغربين هذا الكلام؟ إن أغرب الأشياء أقربها للحقائق
الثابتة ، وفي الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شمس ،
وتمن حالة جبران في السوء وجبران يدأب في إخراج كتابه « يسوع
ابن الانسان ، وتجيء سنة ١٩٢٩ وتشرع الرابطة القلبية في تهيئة عيد فضى
لجبران الذى يبلغ حينئذ نحو الخمسة والأربعين عاما وتعمل مى وتجدد في الدعابة
لذلك لتشرق البلاد العربية فى تحية ذلك الكاتب المحبوب وتجيء سنة ١٩٣٠
ولا تكاد تنتهى حتى مات جبران وانطفأ سراجة .

النهاية الالهية :

فى سنة ١٩٣٠ مات جبران الذى كانت حياته وإنتاجه وآماله وآلامه ،
وجبه لى تفيض كلها بما يحبب إليها الحياة . وقد مات قبله صروف ذلك
الشيخ الحكيم الذى أجلته « مى ، وجعلت منه رائدا عليا وروحيا وصديق
صدق تعتر بصدافته وتوجيهه ، ومات أبوها ورأيتها تتقبل فيه عزائى مع
بعض الإخوان المعزين وهو لم يزل فى غرفة موته وأمها الشيخة تجلس أمامها
فى بهو الدار مولولة ناحية ، والأدبية تصطنع التجلد، وهى فى آلامها الغائصة
وفى لباسها الأسود تجلس فى كبرياء وجلد وخشوع ، ثم ماتت أمها الشيخة
الطيبة الحنون . أين خلاصاؤها؟ . وأين بمجدوها؟ . وأين مدلوها؟ . لقد
خلا محيط السكاتبة من الخلاء والأهل . ومن ولى الدين يكن ومن إسماعيل
صبرى والدكتور شبلى شميل ومن صديقتها باحثة البادية ومن إليهم ، وخلا
من كان لهم حاجة من ظرفها اليناع أكثر من مآربهم فى أدبها البارع ، وعلمها
الواسع . لأن « ميا ، خلعت كذلك من شبهاها . ومن ذلك الحسن والبهاء
الساطع . فهى حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين . وهى حينئذ فى تلك السن
التي كثيراً ما تتعرض فيه الكثيرات من العوانس لنوع من العصاب
والأمراض النفسية الغادرة .

وبدا لى أن تستعين بالسياحة . وفيها كما يقال علاج تقليدى لتخفيف
الأسى والشجون . وفيها مقاومة ودفع لأطياف الحزن إذ تتوالى وتزدحم
على النفوس المقدر عليها الأحزان فسافرت فى سنة ١٩٣٢ إلى فرنسا
وانكلترا . ولكن هيهات أن يكون الدواء المسكن من الأسفار شافيا .

ثم عادت إلى مصر لتقرأ وتؤلف . ثم سافرت إلى ايطاليا لتدرس
ولتقاوم الألم . ثم ترجع مع قلقها واضطرابها إلى القاهرة ثم تعود إلى روما
من جديد ثم ترجع إلى القاهرة ، وكان كل ذلك فى حوالى سنة ١٩٣٤ . وفى
سنة ١٩٣٥ يزداد سأمها ووهنها وضعفها وترغب فى السفر إلى لبنان حيث
كانت النشأة ، وحيث تكون ذكريات الصبا ، وحيث يكون ماعساه ، من
هوائه ومناظره ومائه ، أن يلفظ من علل واضطراب ووهن وحب جريح
وكتبت إلى ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة مايلي (١) :

« عزيزى جوزيف . منذ مدة طويلة لم أعد أكتب وكلها حاولت ذلك
شعرت بشىء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفسکر لدى .

إنى أنعذب شديد العذاب يا جوزيف ، ولا أدرى السبب ، فأنا أكثر من
مريضة ، وينبغى خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه فى وحولى . إنى لم أتألم
أبدانى حياتى كما أتألم اليوم ، ولم أقرأ فى كتاب من الكتب أن فى طاقة بشرى
أن يتحمل ما أتحمل . وددت لو علمت السبب على الأقل . ولكنى لم أسأل
أحدا إلا وكان جوابه : لا شىء ، إنه وهم شعرى تمكن منى .

لا ، لا ، يا جوزيف . إن هناك أمرا يمزق أحشائى ويميتنى فى كل يوم ،
بل وفى كل دقيقة . . . لقد تراكت على المصائب فى السنوات الأخيرة
وانقضت على وحدتى الرهيبه التى هى معنوية أكثر منها جسدية فجعلتنى
أسأل كيف يمكن عقلى أن يقاوم عذابا كهذا .

(١) انظر رسائل مى تقديم جبل جبر . منشورات مكتبة بيروت سنة ١٩٥١ ص ٧٤ و ٧٥

وكان عزائي الأوحى في مخنتي هذه مكنتي ووحدتي الشعرية ، فكنت
أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعل أنسى فراغ سكني ، أنسى غصة نفسي ،
بل أنسى كل ذاتي .. إنه ليدهشني حقاً كيف انى استطعت أن أكتب هذه
القيمة . ولعل الفضل في هذا يعود جزئياً إلى اللقائف التي أدخنها ليل
نهار - أنا التي لا عهد لي بذلك - أدخنها لتضعف قلبي هذا القلب السليم
المتين الذي لا يزال يقاوم . واسلم لابنة عمك ، ماري .

ولقد يزايد العذاب والحزن على هذه الأدبية التي تقرر أن المصائب
تتراكم عليها في السنوات الأخيرة وتنقض على وحدتها المعنوية الرهيبية .
تنقض المصائب على هذه النفس الرقيقة الحزينة ، وتطوق هذا الضمير
الحساس اليقظ ، فتمعن دى ، في العزلة وتركن إلى الوحدة الموحشة .
وتسلمها هذه الوحدة إلى إهمال ذاتها واذكاء غضبها على الوجود وتشاؤمها
من الحياة ومن الناس والأيام ، وتثير في نفسها استعداداً للشجن كامناً ومتأصلاً ،
وتثير من عليها وعقلها نزعات للنظر والارتياح بجانب ما كان يدفع به المحصول
العلمي الواسع في تلك النفس من نزعات الثقة والتفاؤل . بل تشعل تلك الوحدة
ذلك التشاؤم العلائقي القاتل بما خلفته السنون وتوالي الأيام من ذكريات
لماضيها الداوي الراحل ، وشبابها الذابل ، ونجمها الآفل .. ! وأصبحت
نفس دى ، مختبراً لتلاقي النقيض بجوار النقيض من الذكريات والنزعات ،
وأصبح خيالها مرتعاً لمختلف الرؤى والأطياف من مفزع ، ومخزن ، ومؤلّم ،
ومطمئن ومسالّم ، ومخاصم ، وكان الأدبية في مختبرها في ذات نفسها ، وفي
وحدتها الرهيبية تبدو لتشاهد فصلاً من فصول فلسفتها حين قالت في كتاب
المساواة د من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض ، تجعل الآكمة
الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة الخنازل وخصب الواحات وراء رمال
الصحارى وقحط القفار .. ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً ..
ويشيع النبأ الأليم عن عزلة مريّة لمى ، تصر أن لا تتحول عنها ولا تريد
أن يقتحمها عليها مقتحم .

ودفعتني جراءة الشباب حينذاك ، وبتأثير هزة من الأريحية التي لا تخلو منها النفوس طرقت على الأدبية بابها في أصيل يوم من الأيام ولعل ذلك كان في سنة ١٩٣٦ وثابت في دق الجرس . وفتح الباب في موارد فهورت إلى الداخل فإذا بالسيدة التي فتحت لي الباب إنسانته نفساء الشعر ، مشعثة الرأس ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين يلف جسمها المترهل ، جلباب أبيض فضفاض ، ويلا بسه أشعة صفراء من ضوء خافت يرسله مصباح كهربى صغير يتدلى من سقف الدهليز ، إنها «مى» الآفلة ولم أتبين منها ومن بقايا شروقها إلا ابتسامة باهتة تتأرجح على شففتين تحاول أن تغروهما طلائع النحيب ووساوس الهموم .

ووقفت السيدة في مدخل الدهليز دون أن تتكلم والابتسامة الذاللة الحارة تتردد على ثغر عهده حافلا بالسناة ومليثا ، فيما مضى ، بأزهر البسمات ولسكنه اليوم كاد أن يكون متقلصا من ألم . وكانت الأدبية تغمرني بكل نظراتها وتصوبها إلى هيكلى وكأنها كانت ترفقها بتيار من عدوبة وحنان .

ولسكنها لم تشر إلى بالدخول إلى غرفة الاستقبال ولم تستدرجني إليها ، حتى ولم تشر إلى بالجلوس على مقعد من المقاعد المبعثرة في المدخل ، وظلت واقفة أمامى ناظرة إلى وهى شبه باسمية وباكية ومتوسلة . على أنى لم أفقد رباطة الجأش وحرصت على أن تصل كلباتى المحددة القصار إلى نفسها وتنفذ إليها فى الأعماق . فقلت فى نحو مايلي :

سيدتى إنى أتكلم بلسان المعجبين والأصدقاء ، وأرفع لك صوت كل من يقدر ونك راجياً ألا تترددى فى تكليفهم وتكليفى بجميع ماترومين أن يؤدى لك من خدمات ، ولا تستسلمى للعزلة ، ولا تضعفى للهموم ، وأفسحى لك فى الرياضة مجالاً .

سيدتى إننا جميعاً فى خدمتك عن رضا فلا تضنى علينا بها لتدخلى على أنفسنا الفرح والسرور .

ولكن السيدة التي أوجه إليها كلماتي القاطعة الصادقة لا تجيب ، وتظل
تغمزني بنظرات فيها العطف وفيها الحنان .

وتظفر الدموع إلى عينيها الجميلتين الذابلتين وتنطق في همس بنحو تلك
الكلمات المبهمة المتقطعات البعيدات من صوغ العبارة المتصلة والخيالات
من المعنى المتسلسل الصريح : « شكراً شكراً . لا شيء لا شيء . أريد النوم . رب
لم كانت الخطيئة . »

وأدركت أن الأدبية لا تريد أن يقتحم عزلتها أحد ، فخرجت ورد الباب
ورأى في رفق ، وأخذت أضرب في الشارع وفي خيالي صورة للكاتبة الآفلة
وفي نفسي تأثير عميق إلى أن استقر بي المقام في مقهى أو في مقصف غير
مأهول جلست وأخذت أقول لنفسي : ألا إن الحسنات قد تؤذى أربابها ،
وأن الفضائل قد تضيع أصحابها .

وأعلم بعد ذلك أن ميا سافرت إلى لبنان وأنها ادخلت إلى مصح
العصفورية وظلت فيه نحو ثمانية أشهر ، وأعلم كذلك أنها انتقلت من ذلك
المصح إلى مستشفى الدكتور نقولا ربيز ببيروت في سنة ١٩٣٨ وزارها
المكاتب الكبير أمين الريحاني بهذا المستشفى ولكنه لم يظفر بما كان يأمله من
طيب نفس الأدبية إليه وفرحها بلقائه بعد رحلته له في أميركا ولم يكن حظها
من تلك الزيارة إلا الصدود برغم استنجاهه بالأنسة بدرية كريمة السيد عطا
الأيوبي من دمشق التي كانت تأنس الأدبية بها وتطمئن إليها وهي في محنتها العصبية .

وأعلم كذلك أن ميا تنقل من هذا المستشفى إلى منزل خاص برأس بيروت
تطل شرفانه على قم الجبال المكلفة بالثاوج ويتمتع الناظر منها بحميل مرآتي
الطبيعة اللبنانية وروائعها على أشد ما يكون المتاع وتنفتح أبواب هذا المنزل
لفئة مخنارة من خالصاء رمى ، الذين ناصروها في محنتها وجاملواها يوم انصرف
عن مجاهلتها من تفرقوا عنها حين أحاطت بها شجونها والأوصاب والعلل ،
وأعلم بعد ذلك أنها تركت هذا المنزل ثم آوت إلى الفريكة في جوار فيلسوفها
أمين الريحاني .

وكننت فى لبنان فى سنة ١٩٣٨ وبدا لى ، بتأثير ذلك الدافع المعنوى الذى دفعنى فى القاهرة لاقتحام عزلة دى ، أن أزورها حيث تكون . فذهبت إلى الفريكة وصحبتنى زوجتى أم وائل وقصدنا إلى دار الريحانى . ويسهب الريحانى فى حديثه فتارة يحدثنى عن بلاد العرب ويمسك بزجاجة يملأها الرمل الناعم ويقول بلهجته الظريفة هذا هو رمل الدهناء يارجل وتارة يأتى بسيف طويل فأمسكه وأخرج بعضه من الغمد والريحانى يتابع حديثه عن عبد العزيز بن سعود ويقلد لهجة الملك العظيم المرهوب فتنقلب السنين شبه ثاء على لسان فيلسوف الفريكة ويذكر أن عبد العزيز كان يقول هذا من «ثيوفنا» يارجل ويعمل الريحانى على تبيد الوقت بحديثه الممتع فى شتى الأمور ، وبتقديم ما يطيب من طعام وفاكهة وشراب . ولكنى أستحته على أن يهيم لى زيارة لى وكانت تسكن فى دار غير بعيدة من داره الرابضة فى بطن الوادى . وينبئنى الريحانى بعد وقت طويل أن لى أوقانا تحرص فيها على العزلة . فأدركت أنها مازالت فى حوزة تلك الحالة النفسية وفى ذلك العصاب والشذوذ الذى يلابس الجنون ، وإنها مازالت فريسة لذلك التفاعل المخيف الذى ينزل بنفوس حساسة مرهفة تتجاذبها المحاسن والفضائل وشتى المطالب والمطامح فتتلف من سويتها وتنحرف بها عن المألوف . وخرجت من دار الريحانى لأعود إلى حيث كنت أقر فى لبنان وفى سوق الغرب وأردد فى نفسى وفى أمر دى ، ما كنت رددته فى شأنها من نحو عامين قبل زيارتى للفريكة : حقا لمن الحسنات قد تؤذى أربابها وإن الفضائل تضيع أصحابها وأخفقت فى تحقيق رغبتى من زيارة دى ، كما أخفق الريحانى من قبل عندما سعى لزيارتها بمستشفى الدكتور ريبز أنها كانت تصد عن رؤية الاصدقاء وعن الناس لما وقر فى نفسها أن الناس لا يؤدون لها حقها عليهم . ولم لا يكون ذلك بعد أن كانت فى ماضيها ملء السمع والبصر والأفواه والأفئدة بما تتحدث به وتقوله وبما تتمتع به وتمتع به من سمات الظرف وبما تذكر به من المديح والتمجيد وصيغ الثناء . والمرأة الحساسة طالما يغيرها الثناء وهى فوق ذلك كالزجاج وكالقوارير إذا لم تترفق

بها الحوادث والأحوال والأيام فأنها تتعرض للأذى وسرعان ماتت حطم وتتكسر . وهل ترفقت مطامح «مى» ، وذاؤها وصفاتها ، ونههما في العلم ، ومختلف فضائلها ، وما لحق بها ولاحقها من تدليل ، هل ترفق كل ذلك بذات نفسها حتى يحفظها الترفق من التحطيم النفسى وحتى يحول بينها وبين ما أصابها من إنحراف وأعراض تشبه الجنون وتلامسه ؟ .

ومهما يمكن من القول في شأن انحراف «مى» ، وفي محنتها من الشذوذ العقلى في كهولتها فقد انشغل الرأى الأدبى العربى العام إلى مدى بعيد بأمر هذه الكاتبة الكبيرة ، وتناولت الجرائد وبخاصة جريدة المكشوف ، ماجادات به أقلام الكتاب والمعجبين بها والمنتصرين لمى مما فيه الدليل الكافى على تقدير مكانتها والإهتمام بها . وبذلك كانت «مى» ، من ذوات التأثير فى الناس سواء أكان ذلك فى شروقها أم فى الغروب . ولمناسبة مكانتها وأثرها يصح أن أشير إلى ما كان لهذه الأدبية من تقدير عند أهل الرأى والعلم من الأجانب إيطاليين وفرنسيين وغيرهم مما كان فيه كسب لسمعة المرأة العربية ولرصيدها فى ميدان الثقافة الواسعة والأدب .

وفى سنة ١٩٣٨ إنجاب عن «مى» ، بعض الشذوذ الذى أصابها وبدأ لها أن تعود إلى القاهرة . وفى صباح يوم إذ بها تدخل إلى مكتبى بدار الكتب وترافقها صديقة لها من إحدى البلاد العربية الشقيقة . وما كان أطيها من مفاجأة . وجلست «مى» على متكأ بجوارى وابتسامة منها عريضة وموصولة تحيط بها إشرقة تدخل الجالسة الكبيرة العانية فى إطار وقور . ونظرات منى محدقة وموصولة ورامقة تنقيد عند كل هذه الجالسة التى قدر لى أن أراها باسمه فى زيتها الباهى المنسق بعد أن رأيتها لآخر مرة فى مبادلها مشعوثة الرأس باكية العين . ولكن «ميا» لم تتكلم أو لعلها همست بشىء تافه لا تحرص النفس التى اهتزت لرؤيتها أن تعيه . وتكلمت رفيفتها وأتاح لى كلام الرفيقة أن أثرثر كثيرا حول الكتب ، وحول الفن العربى ، وأطيل فى ثرثرى دون أن أتحول

بنظري وبكلى عن دى، لعلى أستشف شيئاً أستدل به على نفسية الكاتبة، ولعلى كنت أنسى طويلاً من شذى وردة ذابلة .

وانصرفت الأدبية من مكنتى وصحبتى إلى بابى ، وهى تسير فى حركة وثيدة رزينة مع الابتسامة والإشراقة وهما يتموجان حول هيكلا ويغرقانه وكان لسانى يردد : فى حفظ الله وإلى اللقاء القريب . . . وتومى برأسها عند الباب وتلع فى ثغرها الابتسامة الحانية العاطفة كلبعة البرق الخاطف وكأنى بهائف يوحى بمعنى وداع رهيب .

أترى جاءت دى ، الرقيقة الحساسة إلى مكنتى إذ طاف بذكرتها شبح مسعاى السكير المخفق لا زورها فى وادى الفريكة فرأت أن تعتذر وتمسح عن نفسى ألم الإخفاق وتكافى* القصد الجميل ؟!

أترى جاءت لذكريات مضت، ولتزور من سجلت له بخطها كلمة على صفحة من كتاب ابتسامات ودموع أنه د الذى جمع فكره بين العمق والعدوثة . . ومهما يكن من البواعث والدوافع التى دفعت دى ، لزيارتى بدار الكتب .. فإنها كانت الزيارة الأخيرة وكانت زيارة الوداع .. سامت صحة الكاتبة أليفة العزلة والشجن بعد أن طلعت للناس وبدا عليها مظهر من مظاهر السلامة والعافية يشبه أن يكون كطلعة شمس فى يوم من أيام الشتاء الحافلة بركام السحب فلا تلبث الشمس قليلاً حتى تخفيها السحب وتحجبها الغيوم . آوت الأدبية إلى مستشفى المعادى . وعلى غرفة من غرفه المتشابهة، وعلى سرير من تلك الأسرة الحديدية الصغيرة .. كان لابد أن تمر بخيالها أطياف من صور الماضى وأيامه الزاهية والمتعبة وصور من ذكريات جبران ومناجياته . وفى وحدة قاسية حيث لا تحوم حول دى، فى المحيط الموحش عاطفة بنوة أو رحمة أبوة أو حنان أخوة أو ولاء صداقة صادقة بعد أن فوتت الأقدار على الكاتبة حاجة المرأة من الأمومة ، وفى منتصف الليل وفى الساعات الأخيرة من ثلثى شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ تهول الراهبة إلى غرفة الكاتبة وإذا بشهيق وإذا بالتنفس بضيق ، وإذا الطب يخفق ، وإذا

بخففة أخيرة للقلب الكبير المعذب الموحوع عند الضحى ؟ .

ماتت «مى» بنشر نعيها واسعاً فى جرائد العرب وفى أمى . ويدعو
الإتحاد النسائى المصرى بلسان مؤسسته وزعميته المرحومة هدى شعراوى
لإقامة حفلة تأبين لمى دعيت مع غيرى لنقول فى تحيتها ورثائها ما قلناه فى
يوم الخميس ٤ ديسمبر سنة ١٩٤١ .

وتقول الداعية هذا يوم عرس «مى» ، ويتبارى الراثون من عظاماء
الكتاب والشعراء فى تحية ذكرها فهذه ابنة الشاطى* تحسن فيما قالت عن
«مى» (١) : «إن أكثركم قد رآها فى هالة من أضواء الشهرة ، يتوجهوا كليل من المجد
وتضج حولها صيحات الهتاف ، فهل منكم من غالب الأضواء فرأى فى إهاب
الكاتبة الشهيرة ، الانساة التى تتوجع وتتلوم وتتلوى ، والناس من حولها
يهتفون لها ؟! . . . إلى أن تقول حطمها ضلال الأمل ، ومزقتها أشواق
الأمومة ، ووقفت فى تيه الحياة يناوشها الظمأ والبرد والحرمان .»

وهذا الكاتب الكبير العقاد تدفمه شاعريته الصادقة المتسعة فينشد
قصيدة رائمة فياضة بالعواطف العامرة ويقول :

أين فى المحفل «مى» ، يا صحاب عودتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجنب مستجيب حين يدعى مستجاب
أين فى المحفل «مى» ، يا صحاب

سائلوا النخبة من رهط الندى أين مى؟ هل علمتم أين مى؟
الحديث الحلو واللحن الشجي والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكبها؟ أين غاب؟

أسف الفن على ملك الفنون حصدتها وهى خضراء السنون
كل ما ضمته منهن المنون غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات وبأس وعذاب

شيم غر رضيات عذاب وحجى ينفذ بالرأى الصواب

(١) أنظر ذكرى مى بمجموعة الخطاب التى ألفت فى حفلة تأبينها المطبعة المصرية ٢٥ ، ٢٦ .

وذكاء المعى كالشهاب وجمال قدسى لا يعاب
كل هذا فى التراب . آه من هذا التراب

كل هذا خالد فى صفحات عطرات فى رباها مشمرات
إن ذوت فى الروض أوراق النبات رفرفت أوراقها مزدهرات
وقطعنا من جناها المستطاب

من جناها كل حسن نشتهيه متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ ميز من كل شيه لم يزل يحسبه من يجتنيه
مفرد المنبت معزول السحاب

الأقاليم التى تنميه شتى كل نبت يانع ينبت نبتاً
من لغات طوفت فى الأرض حتى لم تدع فى الشرق أو فى الغرب نبتا
وحواها كلها اللب العجباب

بالذالك اللب من ثروة خصب نير يقبس فى حس وقلب
بين مرعى من ذوى الألباب رجب وغنى فيه وجود مستحب
كلها جاد ازدهى حسناً وطاب

كل ما أنبت من شعر ونثر كرحيق النحل فى مطلع فجر
قابل النور على شاطىء نهر فله فى العين سحر أى سحر
وصدى فى كل نفس وجواب

حى دميا، إن من شيع ميا منصفا حيا اللسان العربية
وجزى حواء حقاً سرمديا وجزى ميا جزاء أريحيا
للذى أسدت إلى أم الكتاب

للذى أسدت إلى الفصحى إحساسا والذى صاغته طبعاً واكتسابا
والذى خالته فى الدنيا سرايا والذى لاقت مصابا فصابا
من خطوط قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين سلمت فى الدهر من شجو وبين

وأسمى يظلمها ظلم الحسين ينطوى في الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراها بعد صمت واباء سلمت من حسد أو من غيباء
ووداد كل ما فيه ريام وعداء كل ما فيه إفتراء
وسكون كل ما فيه إضطراب

رحمة الله على دمي، خصالا رحمة الله على دمي، فعالا
رحمة الله على دمي، جمالا رحمة الله على دمي، بجالا

كلما يبجل في الطرس كتاب

تلکم الطلعة مازلت أراها غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت في سناها وفروع تهادي في رجاها
ثم شاب الفرع والأصل وغاب

غاب والزهرة تؤتي الثمرات ثمرات من تجاريب الحياة
خير ما يؤتي حصاد السنوات بعثرتهن الرياح العاصفات
ورمتهن ترابا في خراب

رد ما عندك يا هذا التراب كل لب عبقرى أو شباب
في طواياك اغتصاب واتهاب خلقا للشمس أو شم القباب
خلقالا لإنزواء واحتجاب

ويك ما أنت براد مالديك اضيع الآمال ما ضاع عليك
بجد دمي، غير موكول إليك بجد دمي، خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب

ويقول خليل مطران في قصيدة ممتعة :

أفقر البيت أين ناديك يا ميم اليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا في ذراك الرحيب يعتمرونا

فتساق البحوث فيه ضروبا ويदार الحديث منه شجوننا
وتصيب القلوب وهى غرات من ثمار العقول ما نشتهينا
ويقول الشاعر الفتى عادل الغضبان من قصيدة مؤثرة :

اخترت سكنناك فى داج من الحفر يامن عرفناك ملء السمع والبصر
دفنت فى فكرك فيها قبل ما دفنوا جثمانك الغض بين التراب والحجر

* * *

يامى كنت هزار الشرق يسحره صداحك العبرى الآى والسور
رانت بيابك ألوان الفنون كما ران الخنائل ألوان من الزهر
ضمنته نفحات النيل أو عبقا من الشأم ومن لبنانه العطر
فن كأن به من بابل أثرا يختال سامعه كالشارب السكر
فن تلقته عن مى جوانحنا كصوب حق إلى الألباب منحدر

* * *

قولى لمن يتغى للعرب آصرة إن الثقافة فيهم أوثق الأصر
وإن المتأمل فى هذه القصائد وفى غيرها مما قيل فى دى ، يجد القوم
بجمعين على ما حباه الله بها من عبقرية ومن ظرف ومن علم واسع ، ومن
استقلال الشخصية ، ومن تأثير لها فى متنداها ومن خدمتها للغة ، ومن احتمال
للعذاب والأسى فى صبر وشتم ومن غير ذلك مما رقت به إلى مكانة سامية
ومنزلة رفيعة .

والآن وأنا فى موقف الذكريات ، والتحدث عن هذه الأدبية الشرقية
النابهة الخالدة الأثر يمر طيفها بخيالى كما أتلهج فيه ومضات مما فات من
ذكرى الشباب . آراء توأصلت وتقاربت وتنامت ، وهمسات نفسية تجاوبت
وتآلفت مع همسات . ومضت صاحبة هذه الآراء ومخرجة هذه الهمسات
كما مضى غيرها . مضت وأبقت للتاريخ من آثارها الفكرية وهمساتها ما قد
يردده التاريخ أو يغفله ، أو ما قد يتضوع روحه فى الأجيال أو يتطوح

ريحه في عوالم النسيان . مضت ومضى عارفوها وذاكروها ومؤرخوها وإني
كغيري من العارفين والذاكرين والمؤرخين سأمضي كما مضوا ، وقد يفوتنا
أن نذكر عنها ما كان جديراً بالذكر ، وقد نقدر لها ما لا يرضى الحق أو
يرضى بعض الناس أن يكون موضعاً للتقدير . وقد نخطف لها ما ليس بخطأ ،
وقد نصوب لها ما ليس بصواب ولكن روحها إذ تسبح على حد تعبيرها في
الفناء الأنور ، في البقاء الأوحد ، في حضن الله . ، ستلقى الحكم القاطع
عند ذلك الحاكم العادل ، عند الله ، حين يحفظ لها مكانها في عالم الرحمة
والتكريم ويضعها في مركزها من عالم التمجيد والتعظيم .

فهرس

الصفحة	
١	المقدمة
٣	عائشة التيمورية
٤٧	وردة اليازجى
٥٣	باحثة البادية
٩٥	رثاء باحثة البادية
٩٨	مى الأدبية
٢٠٣	النهاية الأليمة

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is extremely faint and illegible due to the quality of the scan and the age of the paper.

ظهر للمؤلف مطبوعاً بالفرنسية

La Condition de la Femme dans la Tradition et
l'évolution de l'islamisme

Paris, librairie Félix Alcan, 1913

Lettrés et illettrés

Genève 1929

وبالعربية

مطبعة المعارف ١٩٣٠ القاهرة

خطرات نفس

هيرمان ودوروتيا نظمها شعراً الشاعر الألماني جوتي ونقلها إلى العربية

الدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب بالجامعة

المصرية طبعة المطبعة الأميرية بولاق سنة ١٩٣٢

الضعف الخلقى وأثره في حياتنا الاجتماعية ١٩٤٠ القاهرة

١٩٤٢ القاهرة

كلمة في ذكرى المولد النبوي

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٦ مطبعة الهلال القاهرة

أوقات الفراغ وكيف نستثمرها

مستندات تاريخية

Le Comptoir de l'Industrie de la Soie
 1110

مستند

- 1000
- 1001
- 1002
- 1003
- 1004
- 1005
- 1006
- 1007
- 1008
- 1009
- 1010
- 1011
- 1012
- 1013
- 1014
- 1015
- 1016
- 1017
- 1018
- 1019
- 1020
- 1021
- 1022
- 1023
- 1024
- 1025
- 1026
- 1027
- 1028
- 1029
- 1030
- 1031
- 1032
- 1033
- 1034
- 1035
- 1036
- 1037
- 1038
- 1039
- 1040
- 1041
- 1042
- 1043
- 1044
- 1045
- 1046
- 1047
- 1048
- 1049
- 1050
- 1051
- 1052
- 1053
- 1054
- 1055
- 1056
- 1057
- 1058
- 1059
- 1060
- 1061
- 1062
- 1063
- 1064
- 1065
- 1066
- 1067
- 1068
- 1069
- 1070
- 1071
- 1072
- 1073
- 1074
- 1075
- 1076
- 1077
- 1078
- 1079
- 1080
- 1081
- 1082
- 1083
- 1084
- 1085
- 1086
- 1087
- 1088
- 1089
- 1090
- 1091
- 1092
- 1093
- 1094
- 1095
- 1096
- 1097
- 1098
- 1099
- 1100

تصويبات

نأسف على حصول أخطاء مطبعية سببها غياب المؤلف عن القاهرة أثناء الطبع . وقد أمكن إصلاح بعضها والبقية متروكة لفظنة القارىء .

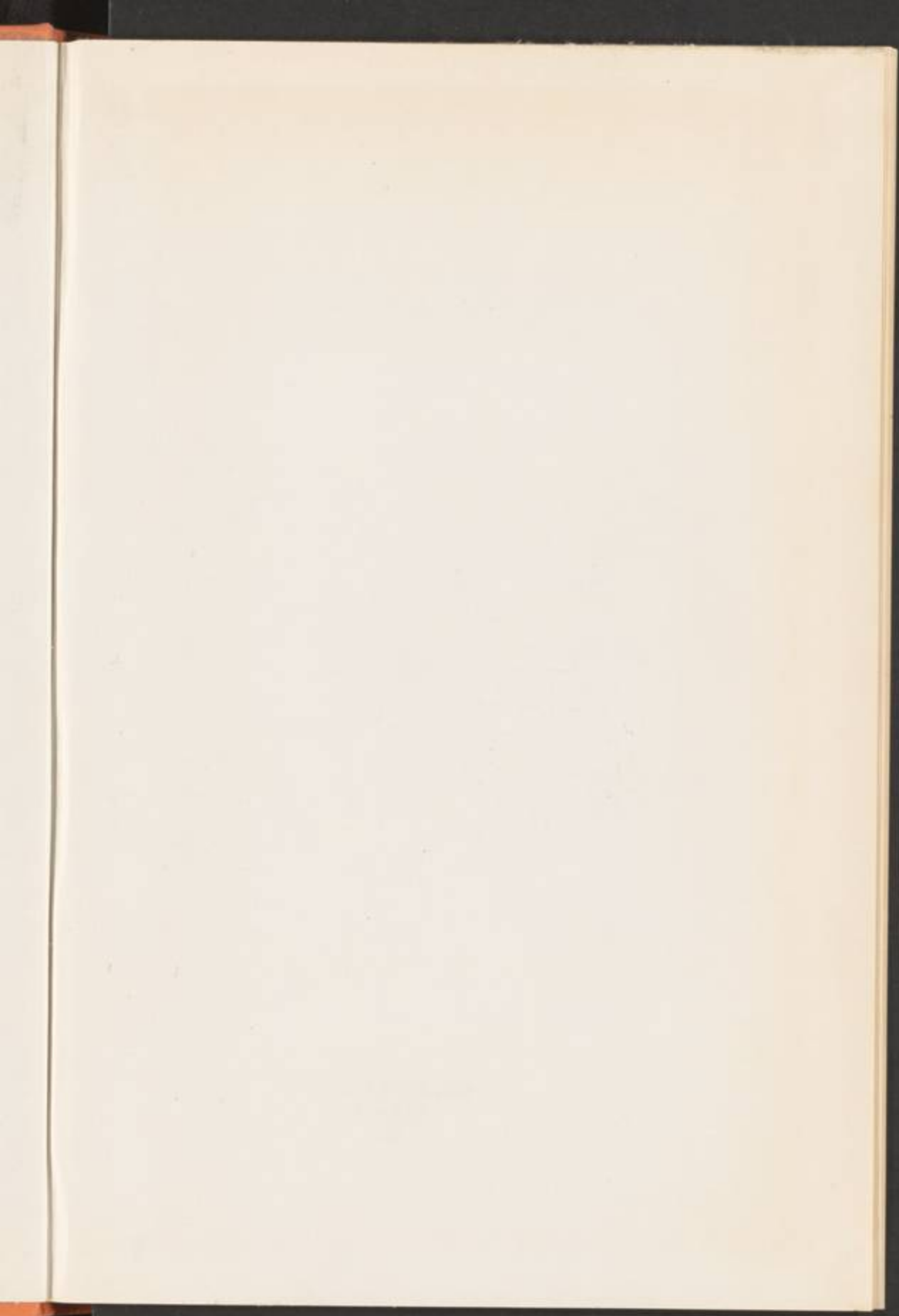
صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٩	وتعبر	اذ تعبر	٦٧	١١	فقدت	فقدت
٢	١١	لى	لى	٧١	٣	عالمأ	عالمأ
٣	٤	بنفسها	بنفسه	٧١	١٤	النقايد والسكرير	النقايد والسكرير
٣	١١	(١) و (٣)	(١) و (٢)	٧١	١٦	داثرة	داثرة
٤	٩	(١)	()	١٠١	٩	(Pirandello)	()
٤	١١		يعود الهامش للرقم (٢) في الصفحة السابقة	١١٣	٢١	وإذ	وإذا
٤	١٢	والنبلاء والمرأة	والنبلاء والسراة	١١٥	٣	يتجلى	تتجلى
٦	١٤	خطابى	خطابى	١١٥	١٠	تعنى	يعنى
١٦	٨	يا كتر	يا كتر	١١٥	٢	وما بهىء	وما بهىء
٢٢	٢	ست وستين	سنة وستين	١١٥	٢	لا يتساهلون في	لا يتساهلون به
٢٢	١٨	من غير	من غير	١١٦	٩	موفور	موفورأ
٢٢	٣	السنوات العشرة	السنوات العشر	١١٨	٥	لدا نتربو	لدا نونبو
٢٤	١٨	وقمها	ووفقأ	١١٨	١٦	بأمشال	بأفعال
٢٧	٢١	وتدبها	وتدبها	١١٩	١٥	وأثبت التعليق وأثبت	وأثبت التعليق وأثبت
٣٢	٢	يحسن	يحسن	١٢٠	٢٢	فكيف يذسر	فكيف يسر
٣٣	١٣	لبعضها	لبعضهم	١٢١	١	الضباثر	للضباثر
٣٣	١٣	يجرى	او يجرى	١٢٢	١٨	الراقى اذ أن	الراقى ان
٤١	٦	تطلع	تضلع	١٢٢	٢٢	المنذوقون	المنذوقون
٤٣	٢	تزرخ منها	تزرخفها	١٢٣	٣	فبترتب من مجموع	فبترتب مجموع جرسها
٤٦	٤	في التضعية	في النصيحة			جرسها	جرسها
٤٩	٦	سنة ١٩٥٤	سنة ١٩٢٤	١٢٥	٢٤	تتم بها ونشقى	تتم بها ونشقى
٤٩	١٧	يأثنية	بثينة	١٢٦	٣	والفائدة	والفائد
٤٩	٢٣	رسول	سول	١٢٨	٢٢	عنائرة	هنائرة
٥١	٣	كالغفصل كالصل	كالغفصل كالفصل	١٢٩	٢	الافتراض	الافتراض
٥٧	٧	وأسالب	وأسالب	١٣٢	١٦	تنساو	تنقايل
٦٥	٥	أحبت	أحببت	١٤٥	٩	شط البحر	شفة البحر
٦٦	٨	عليها	عليه	١٥٤	٣	هذه القيود	هؤلاء القيود

Year	Month	Day	Event	Location	Remarks
1977	7	1
1977	7	2
1977	7	3
1977	7	4
1977	7	5
1977	7	6
1977	7	7
1977	7	8
1977	7	9
1977	7	10
1977	7	11
1977	7	12
1977	7	13
1977	7	14
1977	7	15
1977	7	16
1977	7	17
1977	7	18
1977	7	19
1977	7	20
1977	7	21
1977	7	22
1977	7	23
1977	7	24
1977	7	25
1977	7	26
1977	7	27
1977	7	28
1977	7	29
1977	7	30
1977	7	31

Back

*PB-33806-SB
75-31T
CC





Date Due

DEC 21. 1978

JAN 23. 1979

NYU - BOBST



31142 00314 7785

PJ7876.19 Z6

Mu'alla'at